جامعة القاهرة
معهد التخطيط الإقليمى والعمرانى

المعهد الفرنسى لأبحاث التنمية
والتعاون O.R.S.T.O.M

مشروع

مدن مصر ذات التبادل الحضارى [مدن الدلتا]

التقرير المرحلى الأول

نوفمبر ١٩٨٨

جامعة القاهرة
معهد التخطيط الإقليمى والعمرانى

المعهد الفرنسى لأبحاث التنمية
والتعاون O.R.S.T.O.M

التقرير المرحلى الأول
نوفمبر ١٩٨٨

مشروع

مدن مصر ذات التبادل الحضارى [مدن الدلتا]

فريق البحث

* معهد التخطيط الإقليمى والعمرانى / جامعة القاهرة

أ.د محمد طاهر الصادق	الباحث الأول ـ أستاذ تخطيط ووكيل معهد التخطيط الإقليمى والعمرانى .
أ.د محمود يسرى حسن	أستاذ تخطيط المدن ـ عميد معهد التخطيط الإقليمى والعمرانى .
د. يسرى عزام	مدرس بقسم العمارة ـ كلية الهندسة جامعة الإسكندرية .

باحثون مساعدون :

مهندس / ابراهيم المسلمى	معيد بمعهد التخطيط الإقليمى والعمرانى .
مهندس / عمرو الليثى	معيد بمعهد التخطيط الإقليمى والعمرانى .
مهندس / محمد شحاته	معيد بمعهد التخطيط الإقليمى والعمرانى .
مهندسة / أمانى الريس	دبلوم تخطيط مدن ـ كلية الهندسة جامعة القاهرة .
مهندس / طارق فؤاد	بكالوريوس تخطيط عمرانى ـ معهد التخطيط العمرانى .
مهندس / طارق يوسف	بكالوريوس تخطيط عمرانى ـ معهد التخطيط العمرانى .

سكرتارية وفنيون :

الآنسة / همت فوزى زهران

* المعهد الفرنسى للأبحاث العلمية والتنمية والتعاون O.R.S.T.O.M

د . جليلة القاضى	باحثة بالمعهد الفرنسى للأبحاث العلمية .

فهرس الموضوعات

مقدمة عامة أ
أهداف الدراسة ب
الإطار النظرى والمنهجى للدراسة ج
اختيار عينات البحث د
مراحل إعداد البحث هـ
تصدير و
محتوى التقرير الأول ز

الباب الأول :

اثر العوامل الجيومورفولوجية فى تحديد الملامح العمرانية لمنطقة الدلتا .

١ ـ العوامل الجيولوجية والطبيعية . ٢
١ ـ ١ العصور الجيولوجية ومراحل تكوين أرض الدلتا . ٢
١ ـ ٢ بناء الدلتا وفروعها . ٤
١ ـ ٣ الساحل الشمالى وعلاقته بتطور الدلتا . ٦
١ ـ ٤ هل كان للتجمعات العمرانية فى الصعيد السبق على تجمعات الدلتا . ٧
١ ـ ٥ الدلتا وفروعها ١٠
١ ـ ٥ ـ ١ أفرع النيل القديمة حسب تفسير المؤرخون . ١٠
١ ـ ٥ ـ ٢ أهم المدن الواقعة على أفرع النيل القديمة . ١٨
١ ـ ٦ تكوين البحيرات ٢٤
١ ـ ٦ ـ ١ هبوط ساحل الدلتا الشمالى وأثره فى تكوين البحيرات . ٢٥
١ ـ ٦ ـ ٢ بحيرة المنزلة وعلاقتها بأفرع النيل القديمة . ٢٥
١ ـ ٦ ـ ٣ بحيرة البرلس وعلاقتها بأفرع النيل القديمة . ٢٨
١ ـ ٦ ـ ٤ بحيرات غرب الدلتا وعلاقتها بأفرع النيل القديمة . ٢٨
١ ـ ٦ ـ ٥ بحيرة مريوط وعلاقتها بأفرع النيل القديمة . ٣١
١ ـ ٧ نشأة البرارى فى الدلتا . ٣٣
١ ـ ٨ ترعة الإسكندرية القديمة . ٣٥
١ ـ ٩ خلاصة الجزء الأول . ٣٩
١ ـ ٩ ـ ١ التغيرات الجيومورفولوجية وأثرها على تدهور واندثار التجمعات العمرانية . ٣٩
١ ـ ٩ ـ ٢ جغرافية الساحل الشمالى والثغور المصرية . ٤٢
١ ـ ٩ ـ ٣ البحيرة وحدة جغرافية . ٤٣

الباب الثانى :

اثر العوامل المتغيرة فى نشأة ونمو المدن فى الدلتا .

٢ ـ ١ عبقرية الإنسان . ٤٩
٢ ـ ٢ العوامل الدينية . ٥٠
٢ ـ ٣ العوامل السياسية والاستراتيجية . ٥٢
٢ ـ ٣ ـ ١ عواصم مصر . ٥٢
٢ ـ ٣ ـ ٢ المدن المتحضرة فى الدلتا . ٥٥
٢ ـ ٤ أثر العوامل الاقتصادية على منطقة الدلتا . ٦٢
٢ ـ ٤ ـ ١ تطور العلاقات التجارية لمصر بجيرانها وطرق التجارة الرئيسية . ٦٢
٢ ـ ٤ ـ ٢ أهم المدن ذات الوظيفة التجارية والصناعية فى دلتا مصر . ٦٨
٢ ـ ٤ ـ ٣ تدهور واندثار المدن التجارية والصناعية القديمة . ٧٠
٢ ـ ٥ التقسيم الإدارى والجغرافى فى الدلتا . ٧٢
٢ ـ ٥ ـ ١ تطور التقسيم الإدارى والجغرافى على مر العصور . ٧٤
٢ ـ ٥ ـ ٢ التغير والاستمرارية . ٩٧
٢ ـ ٥ ـ ٣ تبادل الأدوار بين المدن ذات الوظيفة الإدارية . ٩٩
٢ ـ ٥ ـ ٤ تطور التوزيع الجغرافى لمدن الدلتا على مر العصور . ١٠١

الباب الثالث :

تبادل الأدوار بين مدن الثغور

٣ ـ ١ عن بولبتين ورشيد . ١٢٩
٣ ـ ٢ عن فوة ورشيد . ١٣١
٣ ـ ٣ ثغور مصر عند الفتح العربى . ١٣٤
٣ ـ ٤ العصر الفاطمى (عصر الدولة الفاطمية) . ١٣٦
٣ ـ ٥ عصر الدوله الأيوبية . ١٣٧
٣ ـ ٦ عصر الدولة المملوكية . ١٣٧
٣ ـ ٧ العصر العثمانى . ١٣٨
٣ ـ ٨ عصر محمد على وماتلاه . ١٣٩

فهرس الأشكال

أشكال الباب الأول :

شكل ١ ـ ١ خريطة مصر الجيولوجية ٥
شكل ١ ـ ٢ مستوى سطح البحر المتوسط فى تذبذبه وتغيره من أواخر الزمن الثالث حتى اليوم . ٨
شكل ١ ـ ٣ مراحل تكوين أرض الدلتا عبر العصور الجيولوجية المتعاقبة . ٩
شكل ١ ـ ٤ خريطة الدلتا لهيرودت حسب تفسير بول . ١٢
شكل ١ ـ ٥ خريطة الدلتا لسترابو حسب تفسير بول . ١٢
شكل ١ ـ ٦ خريطة بطليموس الأصلية لمصر وفروع الدلتا . ١٤
شكل ١ ـ ٧ فروع الدلتا عند بطليموس حسب تفسير بول . ١٦
شكل ١ ـ ٨ فروع الدلتا وأقسامها عند بطليموس حسب تفسير طوسون . ١٦
شكل ١ ـ ٩ فروع الدلتا فى العصر العربى . ١٩
شكل ١ ـ ١٠ فروع الدلتا عند ابن سيرابيون حسب تفسير طوسون . ١٩
شكل ١ ـ ١١ فروع الدلتا فى القرنين ١٠ ، ١٢ م حسب تفسير جست . ١٩
شكل ١ ـ ١٢ أهم المدن على أفرع النيل فى العصر الفرعونى . ٢٣
شكل ١ ـ ١٣ البحيرات وعلاقتها بأفرع النيل . ٢٦
شكل ١ ـ ١٤ أهم المدن حول بحيرة المنزلة . ٢٧
شكل ١ ـ ١٥ أهم المدن حول بحيرة البرلس . ٢٩
شكل ١ ـ ١٦ أهم المدن حول بحيرتى إدكو ومريوط . ٣٢
شكل ١ ـ ١٧ نشأة البرارى . ٣٤
شكل ١ ـ ١٨ تغير مأخذ ترعة الإسكندرية . ٣٦
شكل ١ ـ ١٩ أهم المدن على ترعة المحمودية . ٣٨

أشكال الباب الثانى :

شكل ٢ ـ ١ خريطة عواصم مصر فى منطقة الدلتا . ٥٣
شكل ٢ ـ ٢ الدوائر الاستراتيجية . ٥٦
شكل ٢ ـ ٣ الولايات العسكرية والمدن المحصنة فى العصر الفرعونى . ٥٨
شكل ٢ ـ ٤ مدن المواجهة على مر العصور . ٦١
شكل ٢ ـ ٥ تجارة مصر الخارجية فى العصور الفرعونية (بمنطقة الدلتا) . ٦٣
شكل ٢ ـ ٦ تجارة مصر الخارجية فى العصر البطلمى (بمنطقة الدلتا) . ٦٤
شكل ٢ ـ ٧ تجارة مصر الخارجية فى العصور الإسلامية (بمنطقة الدلتا) . ٦٦
شكل ٢ ـ ٨ موقع مدينة الإسكندرية بالنسبة للتجارة الخارجية . ٦٧
شكل ٢ ـ ٩ المدن ذات الوظيفة الاقتصادية فى العصور العربية . ٧١
شكل ٢ ـ ١٠ ديجرام يوضح تطور التقسيم الإدارى بالدلتا على مر العصور . ٧٣
شكل ٢ ـ ١١ عواصم الأقاليم بمنطقة الدلتا فى العصر الفرعونى . ٧٦
شكل ٢ ـ ١٢ التقسيمات الإدارية الكبرى فى نهاية العصر البيزنطى (الفترة الأولى) . ٧٩
شكل ٢ ـ ١٣ عواصم الكور لجورج القبرصى قبل الفتح العربى . ٨٠
شكل ٢ ـ ١٤ التقسيمات الإدارية الصغرى فى العصر البيزنطى (٣٣ كورة) لجورج القبرصى . ٨١
شكل ٢ ـ ١٥ التقسيمات الإدارية الكبرى بعد الفتح العربى . الفترة الثانية . ٨٣
شكل ٢ ـ ١٦ التقسيمات الإدارية الصغرى (٤٦ كورة) بعد الفتح العربى . ٨٤
شكل ٢ ـ ١٧ التقسيمات الإدارية الكبرى فى القرن الثالث الهجرى (الفترة الثالثة) ٨٥
شكل ٢ ـ ١٨ عواصم الكور (٤٦ كورة) بعد الفتح العربى . ٨٦
شكل ٢ ـ ١٩ التقسيمات الإدارية الصغرى (٤٦ كورة) فى القرن الثالث الهجرى ٨٧
شكل ٢ ـ ٢٠ التقسيمات الإدارية الكبرى ٨٨
شكل ٢ ـ ٢١ عواصم الأعمال الصغرى فى القرن الحادى عشر الميلادى (٢٢ عمل) ٨٩
شكل ٢ ـ ٢٢ الحدود الإدارية للأعمال الصغرى (٢٢ عمل) فى القرن الحادى عشر الميلادى . ٩٠
شكل ٢ ـ ٢٣ عواصم الأعمال الكبرى (١٢ عمل) فى القرن الرابع عشر الهجرى . ٩١

شكل ٢ ـ ٢٤	الحدود الإدارية للأعمال الكبرى (١٢ عمل) فى القرن الرابع عشر الميلادى .	٩٢
شكل ٢ ـ ٢٥	التقسيمات الإدراية فى عام ١٩٢٦ .	٩٤
شكل ٢ ـ ٢٦	التقسيمات الإدارية فى العصر الحديث .	٩٥
شكل ٢ ـ ٢٧	تقسيم مصر إلى ثمانية أقاليم تخطيطية فى عام ١٩٧٧ .	٩٦
شكل ٢ ـ ٢٨	التغيير والاستمرارية فى التقسيم الإدارى .	١٠٠
شكل ٢ ـ ٢٩	التغير والاستمرارية للمدن ذات الوظيفة الإدراية .	١٠٢
شكل ٢ ـ ٣٠	الأوزان النسبية للنطاقات الطولية فى العصر الفرعونى .	١٠٤
شكل ٢ ـ ٣١	الأوزان النسبية للنطاقات الطولية فى العصر البيزنطى .	١٠٦
شكل ٢ ـ ٣٢	الأوزان النسبية للنطاقات الطولية فى العصر البيزنطى وحتى بداية الفتح العربى .	١٠٧
شكل ٢ ـ ٣٣	الأوزان النسبية للنطاقات الطولية فى العصور الوسطى العربية .	١٠٨
شكل ٢ ـ ٣٤	الأوزان النسبية للنطاقات الطولية فى العصر الحديث .	١٠٩
شكل ٢ ـ ٣٥	الأوزان النسبية للنطاقات العرضية فى العصر الفرعونى .	١١١
شكل ٢ ـ ٣٦	الأوزان النسبية للنطاقات العرضية فى العصر البطلمى .	١١٢
شكل ٢ ـ ٣٧	الأوزان النسبية للنطاقات العرضية فى نهاية العصر البيزنطى وبداية الفتح العربى .	١١٣
شكل ٢ ـ ٣٨	الأوزان النسبية للنطاقات العرضية فى العصور الوسطى العربية .	١١٤
شكل ٢ ـ ٣٩	الأوزان النسبية للنطاقات العرضية فى العصر الحديث .	١١٥
شكل ٢ ـ ٤٠	المحاور الطولية فى العصور الفرعونية والبطلمية والبيزنطية .	١١٧
شكل ٢ ـ ٤١	المحاور الطولية فى العصور الوسطى .	١١٨
شكل ٢ ـ ٤٢	المحاور الطولية فى العصر الحديث .	١١٩
شكل ٢ ـ ٤٣	المحاور الصناعية فى العصور الوسطى العربية .	١٢١
شكل ٢ ـ ٤٤	المحاور الصناعية فى العصر الحديث .	١٢٢

معهد التخطيط الإقليمى والعمرانى
جامعة القاهرة
بالإشتراك مع
المعهد الفرنسى للأبحاث العلمية
للتنمية والتعاون O.R.S.T.O.M

مقدمة فى أهمية دراسة المدن الثانوية
بدلتا مصر ودورها فى عملية التحضر على
المستوى القومى

التقرير الأول
نوفمبر ١٩٨٨ م

مقدمة عامة

إن المتتبع للدراسات التاريخية لمصر القديمة والحديثة يجد أن دراسة المدن المصرية الثانوية لم تنل قدرا كافيا من إهتمام وعناية الباحثين والمؤرخين ، أو بالأحرى نفس القدر الذى نالتة المتغيرات السياسية والأحوال الاقتصادية والاجتماعية وغيرها من الاحداث.

ويمكن القول أن تاريخ المدن المصرية الكبرى وخاصة القاهرة والاسكندرية قد إستحوذ علي إهتمام بعض الباحثين ،الأمر الذى أدى الى إهمال دراسة بقية المدن دراسة أكاديمية علي الرغم من وجود عدد من المدن الثانوية التي لعبت دورا هاما في تاريخ مصر القديم والحديث كما تميزت بسمات خاصة تعبر عن تنوع "شخصية مصر" .

وفي الواقع فان دراسة تاريخ المدن المصرية - بالاضافة الي الدراسات السابقة التي قام بها بعض الباحثين عن الريف يمكن أن تؤدى الي استكمال صورة المجتمع المصرى قديمة وحديثة من كافة الجوانب الاجتماعية والحضرية، انطلاقا من أن دراسة تاريخ أى دولة لا تكتمل صورتة الا عن طريق دراسة النسق العمراني (الحضر والريف) الذى نجد عليه هذه الدولة في كافة المجالات والتخصصات ومنها الدراسات التاريخية. ولا نعني هنا بتاريخ المدن تاريخها الاجتماعي والسياسي والاقتصادى فحسب ولكننا نقصد في المقام الاول تاريخها العمراني والمعماري منطلقين من تحليل المحددات التي ساهمت في تشكيله .. فالشكل المادى الذى نجد عليه المدينه اليوم هو فى الواقع نتاج جدلية تلك المحددات، لعب الزمن خلالها دورا حيويا وهاما ..

هذا وقد اضطلع معهد التخطيط الاقليمى والعمرانى، جامعة القاهرة، منذ نشاته، بالقيام بعدة دراسات عن المدن المصرية تناولت ملامحها العمرانية العريضة وقامت بتحليل عمرانها وعمارتها ووظائفها الحالية والدور المستقبلى الذى يجب ان تقوم به على مستويات مختلفة ... وعلى ذلك تأتى تلك الدراسة مكملة للدراسات السابقة حتى لو كانت الفترة الزمنية التى سوف تتناولها سابقة بعهود طويلة عن الفترة الحديثة التى اختصت بها دراسات المعهد.

أهداف الدراسة

- يعتبر تعميق الوعي التاريخي لمجتمعات المدن المصرية وسكانها خلال وجودها على مر الزمن، بالإضافة إلى فهم الدروس الأساسية والقواعد التي تشكل بيئة تلك المدن العمرانية والإجتماعية ، من أولى أهداف هذه الدراسة ذلك أن الوعي التاريخي بهذا الوجود ، وعمقه هو مطلب ملح حتي يمكن للمدينة أن تشخص واقعها وتعبر عن هويتها - معمارا وعمرانا - كذلك فان ذلك الفهم هو الأساس الواقعي لأي حركة نحو المستقبل ...

- إن وضع إطار منهجي نظري وتطبيقي لتناول التاريخ العمراني والإجتماعي للمدن المصرية لهو بمثابة الهدف الثاني لتلك الدراسة - وهى مهمة غير هينة بالتأكيد - وسوف نسترشد في هذه الدراسة بمناهج من سبقونا إلا أنها لا تمثل من وجهة نظرنا حتي الآن سوى محاولات جزئية ومختلفة المداخل لا يمكن أن تمثل منهجا شاملا، وذلك نتيجة لتناول الباحثين تاريخ المدن المصرية من زوايا معينة تبعا لإنتماءاتهم وتخصصاتهم فكانوا في معظمهم جغرافيين وعلماء إجتماع وتاريخ، مما أدي إلى اهمال أو عدم التطرق إلى الجوانب المختلفة بما فيها الجوانب العمرانية والمعمارية لتاريخ المدن ...

إلى جانب هذين الهدفين الأساسيين، هناك عدة أهداف ثانوية تتمثل في إثراء البحث العلمي والأكاديمي وتزويد الباحثين والدارسين، وخاصة "مادة تخطيط المدن"، بمادة علمية تمكن من نشر الوعي بتاريخ المدن المصرية وتعميقه . كذلك نأمل من أن تصحح نتائج هذا البحث الكثير من المفاهيم عن "شخصية مصر" المتكاملة المعالم على مر العصور، حيث أدت تلك المفاهيم إلى إبراز الوحدة على حساب التنوع خاصة في المجال البيئى والعمرانى.

الإطار المنطوى والمنهجي للدراسة

نظرا لغياب الكتابات النظرية في مجال دراسة تاريخ تخطيط المدن وكذلك تعدد المناهج وأفرع العلوم المختلفة والمداخل التي تتناول هذا الموضوع، فسوف نرتكز على عدة مناهج لكي نتتبع مراحل نشأة وتطور التجمعات العمرانية التي سيتم إختيارها حتى عصرنا هذا ... وعليه فإن منهج الجغرافيا التاريخية سوف يمثل بالنسبة لنا المدخل الرئيسي في دراستنا ذلك أن المنهج الجغرافي التاريخي يتسم بشمولية النظرة وربط الظواهر والمحددات بعضها ببعض ...

فإذا كانت الجغرافيا هي دراسة *"العلم المكان الذى سكنه ويسكنه الإنسان"*(١) بكل عناصره وصفاته الخاصة، فالتاريخ يعطي البعد الزمني ويلقي الضوء على كيفية وطرق وسبل وتباين وتطواستغلال المكان على مر العصور *"فالمدينة -أى مدينة- ظهرت في ضوء التاريخ وتطور مظهرها وتطورت وظائفها خلال العصور المختلفة، وما مظهرها الحاضر ووظائفها الحالية إلا حلقة في سلسلة متصلة تستمد وجودها ومعناها من الماضي والتاريخ، لذلك من البديهي أن أية دراسة لمدينة لا تعتمد على جغرافية الماضي لا يمكن أن تعطي تفسيرات مقبولة"* (٢) ...

ولن يقتصر إرتكازنا على المنهج الجغرافي العمراني فحسب، ولكننا سوف نتناول في تحليلنا للمدن المصرية جميع الزوايا الجغرافية المعروفة ، ومنها الجغرافيا الطبيعيةوالإجتماعية والإقتصادية والسياسية. ومن نفس المنطلق فلن يكون استخدامنا للمنهج التاريخي من أجل سرد الأحداث التاريخية ولكننا سنحاول أن نستخلص من تلك الأحداث عوامل الإنكماش والتمدد أو بمعني آخر عوامل ومحددات الإزدهار والتدهور التي مرت بها هذه المدن والتي أثرت بدورها على التخطيط والعمران والمعمار فى مصر.

---

(١) د. عبد الفتاح وهيبة، دراسات فى جغرافية مصر، تعريفVidal De La Blache ، المؤسسة الثقافية الجامعية.

(٢) نفس المصدر، ص ٣.

و بالإضافة إلى المنهج الجغرافى التاريخى فإن دراستنا سوف تنتهج أيضا التحليل العمرانى وذلك للتعرف على نمط تخطيط تلك المدن فى كل فترة زمنية من المحددات الاجتماعية والاقتصادية والبيئية .. إلخ أى التعرف على شكل الكتلة العمرانية وشبكة الطرق وموقع المنشآت العامة والأنشطة الإقتصادية والثقافية والتقسيم الإجتماعي للحيز الحضري، كذلك تحليل الفراغا ت العمرانية وعلاقاتها بالنسيج العمراني للمدينة، بالإضافة إلى التعرف على أنماط العمارة والفراغات الداخلية ومواد البناء ..الخ. وسوف يقودنا هذا التحليل إلى استخلاص عناصر الإستمرارية وعوامل التغير حتى يومنا هذا ومن المؤكد أن هذا المنهج يستلزم وجود خرائط وصور فوتوغرافية ومساقط أفقية تفصيلية للمنشآت العامة، وكذلك مادة علمية تمكننا من القيام بهذة المهمة. لذلك فسوف نلاحظ نقص أجزاء من الصورة العامة لدراسة المدن المصرية المتوسطة نظرا لقلة المعلومات الخاصة ببعض الفترات الزمنية بالإضافة إلى غياب الحفريات في كثير من المناطق بدلتا مصر وأيضا انعدام الخرائط التاريخية، يصبح إذن من البديهي أن تتوقف درجة القصور على تباعد الفترة الزمنية التاريخية موضع الدراسة. فكلما كانت الفترة الزمنية ضاربة في عمق التاريخ، قلت الحقائق والوثائق والمستندات التي يمكن الإعتماد عليها فى استخلاص الصورة الكاملة لتلك الفترة الزمنية والعكس صحيح.

إختيار عينات البحث

إنتقالا من الدراسة الشاملة للمدن الثانوية بدلتا مصر إلى دراسة أكثر تعمقا وتفصيلا وقع إختيارنا على ثلاث مدن ساحلية هى "رشيد" و"دمياط" و "بور سعيد" كعينات للبحث ويرجع إختيارنا لتلك المدن بالذات للأسباب الآتية:

- تعتبر هذه المدن مداخل مصر وثغورها الهامة على البحر المتوسط أى أنها بمثابة حلقة الإتصال بين مصر ومدن حوض البحر المتوسط ويمكننا اعتبارها أيضا نماذج للتبادل الحضارى والثقافى بين المدن المصرية والمدن البحر أوسطية ، هذا التبادل الذي ظهرت آثاره على جميع أوجه الحياة وترك بصماته على المعمار والعمران فى شمال مصر. واذا كانت مدينتا "رشيد" و " دمياط" أعرق وأقدم من مدينة "بور سعيد"، إلا أن الأخيرة تعتبر وريثة مدينة "بيلوز" - الضاربة في القدم ـ هذا وقد مرت المدن الثلاثة بفترات من الازدهار والتدهور نتيجة لأسباب سياسية واقتصادية كان لها تأثير واضح على ملامحها العمرانية والمعمارية مما يجعلها مجالا خصبا للدراسة .

- تتميز تلك المدن بسمات متباينة على الرغم من وحدة صفتها الوظيفة كثغور ساحلية مثل مدينة " بور سعيد"، أو كمواني بحرية ونهرية في آن واحد مثل مدينتي "رشيد" و "دمياط"، فنجد أن لكل مدينة شخصيتها المستقلة سواء من ناحية شكلها الخارجي أو البيئة الجغرافية أو نمط تخطيطها أو عمارتها، وسوف تمكننا تلك الخصائص المتباينة من القيام بدراسة مقارنة بين المدن الثلاث .

وأخيرا فإن مدينة "رشيد" تكتسب ميزة واضحة بإحتوائها على أكبر تجمع من الآثار التي ترجع إلى العصر العثماني بعد مدينة "القاهرة"، كما تعبر مدينة "بور سعيد" عن نمط "التخطيط الإستعماري" الذي شكل البيئة العمرانية للعديد من المدن الكولونيالية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، فينفرد معمار "بورسعيد" من بين سائر المدن المصرية لإحتوائها على الكثير من سمات العمارة التركية واليونانية. أما مدينة "دمياط" فتتميز بدوريها المتعرجة التي تعبر عن عمران العصور الوسطي كما تتميز بنشاطها الإقتصادي الهام نتيجة لإمتهان أغلب سكانها بمهنة واحدة هى صناعة الأثاث التي اشتهرت بها بين مدن الجمهورية.

وقد تقرر البدء بدراسة مدينة "رشيد" كأولى عينات البحث بهدف إرساء الخطوط العريضة لمنهج نظري وتطبيقي يمكننا من دراسة تاريخ تخطيط المدن بوجه عام.

مراحل اعداد البحث

المرحلة الأولى :

وهى مرحلة جمع المعلومات والبيانات وقد بدأت تلك المرحلة في يوليو ١٩٨٧ وانتهت في يناير ١٩٨٨ ويمكن تقسيم مصادر البيانات التي استقيناها على النحو التالي:

١) الكتب ورسائل الدكتوراه والماجستير التي تناولت مدن الدلتا بصفة عامة ومدينة "رشيد" بصفة خاصة ويمكننا القول بأن عدد هذه الكتب والرسائل قليل نسبيا إلا أنها أمدتنا بالبيلوجرافيا الأولية للبحث الذي نحن بصدده.

٢) كتابات الجغرافيين المؤرخين القدامي أمثال سترابو STRABON وهيرودوت HERODOTE وبلاين PLINE وبطليموس PTOLEME وديودور الصقلى DIODORE DE SICILE وكذلك كتابات الجغرافيين المحدثين أمثال عمر طوسون وسليمان فريد وآخرين، وقد أمدتنا هذه الكتابات بمعلومات عن الفترات الفرعونية والرومانية والإغريقية والفترة التي إمتدت من الفتح العربي إلى الحملة الفرنسية.

٣) القواميس الجغرافية المختلفة، العربية منها والأجنبية، وتلك التي تبحث في أصول أسماء الأماكن مثل قواميس اميلينو وجوتييه.

٤) دراسات المؤرخين والجغرافيين وعلماء الحملة الفرنسية والرحالة الأجانب والعرب والتي تتحدث عن مصر الفرعونية والقبطية والعربية، وجغرافية الدلتا والتقسيم الإداري وتوزيع شبكة المدن وتطورها وما إلى ذلك من الأبحاث التي تفيدنا في دراستنا.

٥) الوثائق العربية الخاصة بمدينة "رشيد" (جاري الإطلاع عليها) وتشمل أرشيف وزارة الأوقاف ودار الوثائق القومية ودار المحفوظات والشهر العقاري بمحافظتي

القاهـــرة والإسكندرية، ووثائق الأوقاف الشرعية ودفاتر المحاكم الشرعية ودفاتر الجمرك ودفاتر الروزنامة.

المرحلة الثانية:

وتتمثل في الدراسة الميدانية ، وقد بدأت المرحلة الأولى منها في نوفمبر ١٩٨٧ وانتهت في مارس ١٩٨٨. والهدف من تلك الدراسة هو التعرف على الوضع الحالي للمدينة وأيضا محاولة إعادة صياغة نسيجها العمراني القديم في عصورها المختلفة.

وقد قمنا بعمل عدة رسومات هى على النحو التالي:

١- تحديد المناطق التاريخية والبؤر المعمارية الهامة وتحديد تاريخها واعتبار هذه البؤر نقاط ارتكاز تمكننا من إعادة صياغة النسيج القديم -على الأقل بالنسبة للعصر العثماني- مستعينين بالصور الفوتوغرافية القديمة وأيضا من خلال وثائق الوقفيات.

٢- تحديد أعمار المباني وذلك من أجل تحديد المناطق الأقدم والمناطق الأحدث ودراسة خصائصها من الناحية العمرانية والمعمارية .

٣- توقيع الحدود التقريبية للمدينة في العصور المختلفة.

٤- رسم خريطة حديثة للمدينة من خلال مجموعة الخرائط التي حصلنا عليها من مجلس المدينة للتعرف على النسيج العمراني الحالي .

٥- تحديد مواقع الأنشطة الاقتصادية الحالية ومقارنتها بما كانت عليه في العصر العثماني وبداية عصر محمد علي.

المرحلة الثالثة:

بدأت في سبتمبر ١٩٨٨ وتنتهي في ديسمبر ١٩٨٨م.

تصدير:

يتعرض هذا التقرير إلى جغرافيا العمران في الدلتا في العصور المختلفة، ومن ثم فهو يتناول بالتحليل أثر العوامل المختلفة (طبيعية - اقتصادية - سياسية - إدارية - ودينية) على تغيير العلاقات داخل شبكة المدن بشكل عام ثم على نشأة وازدهار، أو إندثار، المدن الثانوية الهامة ثانيا. وقد نشأت فكرة هذا التقرير عند الإنتهاء من المرحلة الأولى لهذا البحث - أى مرحلة جمع البيانات، فقد استغرقت منا الدراسة المكتبية والوثائقية وقتا طويلا أمضيناه في البحث في ثنايا الكتب وبين الأسطر عن معلومات تاريخية عن "رشيد" في العصور التاريخية وما تلاها، فكانت حصيلتنا لا بأس بها من المعلومات عن مدن الدلتا وعن "رشيد" فلم نضف سوى القليل بالنسبة لمن سبقونا *.

لذلك فقد رأينا أنه من المفيد جمع وتوثيق تلك البيانات المبعثرة في العشرات من المراجع والكتب في تقرير واحد مساهمة منا في القاء الضوء على بعض الجوانب التاريخية المجهولة نسبيا. إلا أن تلك المساهمة لا تقتصر على كونها مجرد عملية تجميع وتوثيق للبيانات والمعلومات بل تذهب إلى أكثر من ذلك قليلا محاولة ربط الظواهر بعضها ببعض واستنتاج آثارها على مورفولوجية العمران في الدلتا وتطوره. كما أن هذا المدخل "الماكرو عمراني" Macro urbain قد مكننا من تحديد موقع "رشيد" النسبي من مدن الدلتا على مر العصور.

* تخص في هذا المجال د. صلاح عبد الجابر عيسى وعباس السيسي.

ونظرا للفترة الزمنية البالغة الطول والملبئة بالأحداث والمتغيرات -التي تتعرض لها هذه الدراسة بالإضافة إلى العدد الكبير للمدن- فمن الطبيعي أن يكون هناك بعض أوجه قصور وسوف نحاول تلافيها في التقارير التالية التي ستنطرق فيها إلى فترة زمنية أكثر تحديدا وتتعرض لعدد أقل من التجمعات العمرانية.

والله ولى التوفيـــــــــــق.

محتوى التقرير الأول

يتكون هذا التقرير من ثلاثة أبواب.

يتناول **الباب الأول** أثر العوامل الجيولوجية والجغرافية على العمران في الدلتا. انطلاقا من أن تلك هى العوامل "الثابتة" التي شكلت مورفولوجية المكان، إلا أننا لن نتطرق بالتفصيل للحركات التكتونية مثل الزلازل والبراكين والالتواءات الأرضية التي أدت إلى ظهور الوادي وتلال البحر الأحمر والحجاز ومكنت النهر من شق مجراه.. الخ. ولكننا سوف نلقي الضوء بالتحديد على تتابع الطبقات زمنيا على المستوى الرأسي وترجمة هذا التتابع إلى مناطق على المستوى الأفقي الجزء (١-١) وعلاقة النهر بالبحر، بالبابسة (جزء ١-٣)، وتكوين أفرع النيل (جزء ١-٥-١) ونشأة البحيرات (الجزء ١-٦) والبرارى (الجزء ١-٧) ثم انحصار الأفرع وهبوط ساحل الدلتا الشمالي في العصور التاريخية (الجزء ١-٩-١-١) وجفاف ترعة الاسكندرية (الجزء ١-٨).

أما **الباب الثاني** فيتناول بالتحليل تأثير العوامل "المتغيرة" على نشأة وازدهار أو تدهور التجمعات العمرانية في الدلتا وتعني في المقام الأول العوامل الدينية (٢-٢) والعوامل السياسية والإستراتيجية أى تغير موقع العاصمة القومية ونشأة المدن المحصنة(٢-٣) والعوامل الاقتصادية - تجارية وصناعية-(٢-٤) ثم العوامل الإدارية أى تطور التقسيم الاداري (٢-٥) ولا يعني تقسيمنا للعوامل إلى "ثابتة" ومتغيرة" غياب الربط بينهما- فلسنا من أنصار "الحتم الجغرافي" كما اننا لا نعتقد أن البيئة لم تكن الا مسرحا إستخدمه الإنسان واستغله بل إننا نحاول أن نبرز التأثيرات المتبادلة والتفاعلات بين الإنسان والبيئة باستمرار وبالتالي فان هذا التقسيم الي عوامل ثابتة وعوامل متغيرة -أو دراسة تأثير كل عامل على حدة - لا يعدو سوى منهج تبسيطي للعمل من شأنه تفتيت الشيء إلى مكوناته الأصلية ثم إعادة تركيبه مرة أخرى (من الجزئيات إلى الكليات). وتجدر الإشارة أيضا في هذا الصدد إلى مفارقة هامة، الا وهى عدم الثبات المطلق للعوامل "الثابتة" - فاذا كانت مورفولوجيا الدلتا بصورتها الحالية قد تشكلت قبل العصور التاريخية بآلاف السنين - فقد استمرت التغيرات الجيولوجية والفيزيوغرافية وأيضا المناخية في العصور التاريخية وما زالت مستمرة إلى الآن. فنجد مثلا أن الهبوط التدريجي للساحل الشمالي ولكن بمقياس أقل ما زال مستمرا، وكذلك عملية النحر

والإرساب على طول مجرى النهر . واذ كف منسوب الدلتا عن الإرتفاع نتيجة لتوقف ترسيب الطمي بعد بناء السد العالي، فإن مناطق عديدة قد تآكلت على طول الساحل الشمالي نتيجة للنحر. وبالتأكيد فإن التقدم الذي حققه الإنسان في محاولته للسيطرة على العوامل الطبيعية قد أدى لتحجيم الآثار المدمرة ، أحيانا، للعوامل الطبيعية ولا يمكن لدولة مثل مصر أن تترك "رشيد" أو "بلطيم" أو رأس البر" ليبتلعهم البحر مثلما حدث لـ"بيلوز" و"كانوب" وجزيرة "فارو"، على سبيل المثال وليس الحصر.

أما **الباب الثالث** لهذه الدراسة، فسوف يركز على العلاقات التبادلية بين مدن الساحل وتبادل الأدوار فيما بينها، ونقصد بالطبع "رشيد" و "دمياط" و "بور سعيد" و "الإسكندرية" -ذلك أن تلك المدن تعتبر من المدن المستمرة الهامة منذ أقدم العصور- تعرضت بالتأكيد لفترات من الإزدهار والتدهور لكنها ظلت قائمة في مواضعها بدون أدني انقطاع. وترجع أهمية التطرق إلى العلاقات بين تلك المدن الساحلية إلى أنها تمثل احدى المفاتيح التي ستمكننا من فهم حقيقة الدور الذي لعبته المدن التي تهمنا في فترات مختلفة، فازدهار "دمياط" كان يؤثر بالسالب على "رشيد" والعكس صحيح على سبيل المثال. وبالتالي فان هذا الباب يعتبر بمثابة خلاصة لما سبق ومدخل للتقرير التالي.

الباب الأول

أثر العوامل الجيومورفولوجية فى
تحديد الملامح العمرانية لمنطقة الدلتا

ا ـ العوامل الجيولوجية والطبيعية

لقد حفظت لنا أرض الوجه القبلي - بسبب جفافها وانعدام الرطوبة فيها- معظم الآثار في حالة جيدة بالرغم من مرور ما يزيد عن خمسة آلاف عام، بينما آزال مناخ الدلتا الرطب، تقريبا معظم الآثار التي تعد شهودا على حضارة بادت واندثرت. وقد أدى عدم وجود آثار فى الوجه البحرى بالقدر الكافى إلى الظن فى وقت ما، بأن حضارة الوجه القبلى هى الأقدم، وأن الحضارة قد إمتدت من الوجه القبلى إلى الوجه البحرى. وقد ساعد على فهم ذلك قلة اهتمام البعثات الإستكشافية وندرة عمليات البحث في منطقة الدلتا (١).

رسوف تثبت هذه الدراسة عدم صحة هذا الرأى الخطأ خاصة عندما نستعرض تاريخ نشأة المدن بالوجه البحري التي كانت نقطة الثقل الطبيعية في مصر منذ فجر التاريخ *"فقد كانت بالدلتا مراكز قديمة انبثقت منها - منذ الزمن القديم- تيارات الحضارة التي شقت طريقها إلى الوجـــه القبلي"* (٢).

ولسوف نتتبع بناء العناصر الطبيعية للدلتا متدرجين من القاع إلى السطح، أى من الجيولوجية إلى الجغرافية موضحين تأثير تلك العوامل على مر العصور - بادئين بالتأثيرات الموجبة أى النشأة والإزدهار والنمو والتطور - ومنتهين بالتأثيرات السالبة- أى التدهور والإندثار.

ا ـ ا العصور الجيولوجية ومراحل تكوين أرض الدلتا

تتألف جيولوجية مصر الإقليمية من سلسلة من النطاقات العرضية التي تمتد بصفة عامة من الشرق إلى الغرب متتابعة من الجنوب إلى الشمال تبدأ بالأقدم في الجنوب وتتوالى نحو الأحدث في الشمال. وهناك كثير من العصور الجيولوجية لا يتمثل في مصر أو لا يظهر إلا على نطاق محدود جدا، فالسواد الأعظم من رقعة مصر يتكون عمليا من عدد محدود من العصور أو النطاقات، تلك النطاقات هى على الترتيب من الجنوب الأقدم إلى الشمال الأحدث: التكوينات الأركية - التكوينات الخرسانية النوبية - التكوينات الطباشيرية الكرتياسية - تكوينات الحجر الجيري الأيوسيني - تكوينات الأوليجوسين من الحجر الرملي ثم أخيرا الحجر الجيري الميوسيني (٣)

فهذه النطاقات الستة تغطي فيما بينها نحو ٨٢,٣٪ من مساحة مصر بينما يكمل الباقى تكوينات محدودة من عصور حديثة مثل البلوسين والبلايستوسين (الزمن الرابع) أو الهولوسين (الحديث) تمثل حوالي ١٧ر٧٪ من مساحة مصر وتعتبر العصور الحديثة بدءا من الهليوسين Pliocene هى الفترة التي شهدت ميلاد منطقة الدلتا كما سنرى تفصيليا فيما بعد (انظر جدول رقم ١-١العصور الجيولوجية المختلفة في مصر) ثم يأتي النيل أخيرا - على هذه السلسلة من النطاقات الجيولوجية التي سبق ذكرها - كحدث حديث للغاية وكخدش صغير ضحل نسبيا محفور على السطح وليتعامد عليها جميعا تقريبا بالطول من الجنوب إلى الشمال كقطاع عرضي يكشفها ويظهر تكويناتها على طول قطاعاته (٤). وبتحليل الشكل رقم ١-١نستخلص الحقائق التالية:

ا) النطاق الأركى (انتهي من ٠٠ ١١ مليون سنة تقريبا)
Archaeozoic Area

تكوينات الزمن الأركي أو الصخور القاعية تغطي نحو ١ر من سطح مصر، لكنها ترقد أسفل جميع التكوينات الرسوبية غالبا. لذلك فهى تعتبر المادة الخام في بناء أرض مصر بنسبة تسعة أعشار على الأقل من تلك التكوينات بينما العشرالظاهر الذى ظل بارزا فوق كل التكوينات المتلاحقة فهو يتوزع في أربعة مناطق : أساسا جبال البحر الأحمر وفي جنوب سيناء ثم نيل أسوان فبعض النقاط بجنوب الصحراء الغربية (٥).

ب) من الكامبري إلى الكرتياسي (من ٠٠ ٥٠مليون سنة إلى ٥٠ مليون سنة)
Cambrian to Cretaceous

هذه الحقبة الهائلة من الأزمنة والعصور الجيولوجية الدهر القديم والوسيط هى الفجوة الكبرى والفراغ الأساسي في تاريخ مصر الجيولوجي فتكويناتها باستثناءات لا تكاد توجد بمصر. ويلاحظ أن هذه الإستثناءات النادرة تتركز في أقصى شمال شرق مصر في سيناء وغرب خليج السويس.

جـ) النطاق الخرساني النوبي (من ٥٠ مليون سنة تقريبا)
Noubian period

يغطي هذا النطاق القطاع الجنوبي الأقصى في مصر ويشغل نحو خمس مساحتها، ابتداء من الحدود الجنوبية حتى عروض ثنية قنا تقريبا مع انحناءات شديدة في حدود النطاق الشمالية ويتألف الخرسان النوبي من الحجر الرملي تتخلله بعض رقائق من الطفل Shale والكوارتزيت (٦).

د) النطاق الطباشيري الكوتياسي (من ٥٠ مليون سنة تقريبا)
Cretaceous period

يقع هذا النطاق إلى الشمال مباشرة من الخرسان النوبي ولكن بمساحة أقل كثيرا، وهي عبارة عن تكوينات طبقية من الحجر الجيري أساسا وسمكها حوالي ٥٠٠ متر.

هـ) النطاق الأيوسيني (من ٣٠ مليون سنة تقريبا)
Eocene period

تكوينات الأيوسيني هي أيضا من الحجر الجيري أساسا والكلسي عموما ولكنها أحدث سمكا وهي حوالي ٧٠٠ متر.

و) النطاق الأوليجوسيني (من ١٧ مليون سنة تقريبا)
Oligocene period

إلى الشمال الغربي والغربي والجنوبي الغربي من منطقة القاهرة الفيوم/ الريان (على محور شمال شرق / جنوب غرب) نجد نطاق شبه مستطيل طوله حوالي ٢٠٠ كم، ذلك هو اقليم الأوليجوسين في مصر ويحتل أقل من ٢٪ من المساحة الكلية.

ز) النطاق الميوسيني (من ١٠ مليون سنة تقريبا)
Miocene period

تأتي تكوينات الميوسين في أقصى الشمال من مصر ومساحتها نحو ١/٥ مصر، كتلتها الأساسية تحت شمال غرب مصر على شكل مثلث قاعدته في الغرب ورأسه قرب رأس الدلتا، وعلى الجانب الاخر من رأس الدلتا يتوزع الميوسين كنطاق صغير على طريق القاهرة/السويس، ومنه يستمر كشريط ضيق على جانبي خليج السويس ويطول ساحل سيناء الغربي. يتألف هذا النطاق من تكوينات من الحجر الجيري أساسا مع الحجر الرملي ويتراوح سمكها ما بين ٣٠٠ - ٤٥٠ مترا مع زيادة ملحوظة كلما اتجهنا شمالا، وتجدر الإشارة هنا إلى أنه عند نهايات الميوسين الأوسط (حوالي من ١٣ مليون سنة مضت) كان ميلاد النيل وظهوره لأول مرة على الأرجح ثم أخذ في الميوسين الأعلى وما بعده في حفر مجراه وتعميق وادية في تكوينات وصخور العصور السابقة (٧).

حـ) النطاق البليوسيني أو الزمن الثالث (من ٥٠٠ الف سنة تقريبا)
Pliocene period

مساحة البليوسين محددة جدا، بل هي أقل العصور من حيث المساحة في مصر، غير أنها تعتبر من أهمها من ناحية بداية العمران والحياة، خاصة بوادي النيل، وتتركز معظم إرسابات البليوسين في مناطق الساحل الشمالي الغربي، وساحل البحر الأحمر ووادي النيل. كما ترجع أهمية العصر البليوسني إلى ارتفاع البحر ارتفاعا كبيرا بالنسبة إلى اليابس، فقد وصل الإرتفاع إلى أقصاه في أواسط البليوسين إلى نحو ١٨٠ مترا فوق مستوى سطحه الحالي وبالتالي غمرت مياه البحر كل المناطق الأدنى من هذا المستوى وهي المناطق الثلاث السابق ذكرها.

ط) النطاق البلايستوسينى والحديث أو الزمن الرابع (من ٢٠ الف سنة تقريبا) .

Pleistocene and recent

أحدث الأزمنة الجيولوجية وأقصرها عمرا في مصر نهر بمثابة "اللمسات النهائية" إلى سطح الأرض، وتكوينات الزمن الرابع تحتل مساحة كبيرة نحو سدس أرض مصر معظمها في الداخل أكثر منه على السواحل، وهى في الغالب أقرب ما تكون إلى غطاءات ثانوية سطحية رفيعة فوق قاعدة جيولوجية صلبة قوية وقديمة (٨).

ا ـ ٢ بناء الدلتا ونموها

عندما قال هيرودوت أن "مصر هبة النيل"، لا شك أنه كان يقصد بالتحديد الدلتا، فهذا المثلث الذي كان يكون خليجا بحريا، تركيبه كجزء من بحر الميوسيني، تحول إلى أرض صلبة تدريجيا على حساب البحر دافعا مياه المالح إلى الشمال بفضل الارسابات النهرية التي ملأت الخلجان وكونت الجسور.

ولكي نفهم مقومات الحياة البشرية التي استقرت قبل التاريخ وفي مطلعه في الدلتا ووجدت بيئتها الصالحة فنمت ثم استمرت خلال العصر التاريخي، من الضروري دراسة بناء الدلتا من الناحيتين الجغرافية والجيولوجية. هذا وقد كان تطور النيل ومجاريه في الدلتا موضعا للدراسة والبحث خلال العقود الخمسة المنصرفة وبالتالي سوف نحاول أن نخرج بصورة مبسطة لعلاقة بناء الدلتا بنهر النيل وتطوره الجيولوجي.

إن نقطة البداية في تكوين أرض الدلتا تبدأ برواسب الخليج البليوسيني الذي غمر كلا من الدلتا والوادي حيث استقرت طبقات البليوسني على طبقة ميوسينية على عكس الوادي حيث ترقد تلك الطبقات على قاعدة أيوسينية (٩). وقد امتلأ الخليج البليوسيني بالرواسب الفيضية والخليجية الأصل المكونة أساسا من الزلط والحصي والحصباء والرمال التي جلبتها إليه روافده ومجاريه الجانبية. فلم تكن مياه الحبشة الغزيرة وطميها الوفير قد وصلا بعد. ومعني ذلك أن المواد الرملية والحصباوية التي جلبتها أمطار العصرالمطير * من أودية الصحراء الشرقية -قد غطت الطبقات الخليجية المالحة التي توجد في القيمان- وبها وجدها فقط يبدأ الأساس القاعدي للدلتا أى الصخور القاعدية (١٠). ثم بدأت بعد ذلك تتوالى وتتابع الرواسب الدقيقة المكونة من الطمي وقشيرات الميكا والتي جلبتها الروافد الحبشية بعد أن اتصلت بنهر النيل الأدني في البلايستوسيني الأعلى (١١) هذا وقد كان *"لهذا التتابع في الرواسب قيمته المؤثرة في تكوين التربة المصرية وجعلها صالحة للحياة"..."فالطبقات الخشنة في القاع تعتبر بمثابة المصفاة التي تتسرب المياه وتجري بها تحت السطح حتي تبلغ القاع. أما الطبقة العليا من التربة فهى تلك المواد الغرينية الناعمة وغير المسامية والتي أهدتنا بها الحبشة فيما بعد (١٢)...."*

---

*في أواخر البلايوسيني وخلال البلايستوسيني.

مشروع مدن مصر ذات التباين الحضاري
مدن الدلتا

خريطة مصر الجيولوجية

شكل رقم (١-١)

المصدر : د. جمال حمدان
شخصية مصر - الجزء الأول - ص ٧٥

معهد التخطيط الإقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للبحوث التنمية والتعاون
O.R.S.T.O.M

"ويمكننا أن نتصور ماذا كان يحدث لو أن التتابع العكس فكان الطمي في القاع وكانت الرمال والمواد الخشنة والحصي والحصباء على السطح! ماذا كان يحدث لو أن تلك التكوينات الغرينية والتكوينات الخشنة جاءت في هيئة طبقات متداخلة ومتتابعة؟ إذن لتعذر انصراف المياه الجوفية من التربة نظرا لعدم مسامية طبقات الطمي" (١٣).

وبالتالي كان الوادي سيتحول إلى مستنقع عظيم لا يكاد يصلح للاستغلال. هذا وقد وصل سمك الرواسب النيلية بمختلف أنواعها والتي تكونت في نهايات البلايستوسيني إلى ٣٥ - ٣٦ مترا (١٤) تضيف إليها طبقة الطمي القديمة الآتية من الحبشة والذي يعرف باسم الطمي الحجري القديم الأعلى أو الصلصال السيلي والتي وصل سمكها في الدلتا إلى ٢٧ مترا (١٥) ثم تتابع طبقات الطمي الحديث السطحي المألوف أو التربة النيلية العليا التي كونها النيل بفشاء رقيق من رواسب كل عام.تم إذن ملء الدلتا من تتابع الارسابات النهرية - كما أشرنا سابقا والتي تمت على حساب البحر- فهل تراجع البحر باستمرار واضطراد خلال العصور المختلفة؟ أم وجدت الدلتا مقاومة أثناء زحفها، جعلها تتقدم ثم تتقهقر وتتأهب لتنطلق من جديد؟

١ ـ ٣ الساحل الشمالي وعلاقته بتطور الدلتا

مرت الدلتا بعدة مراحل تطورية حتي اتخذت صورتها الحالية، ومما لا شك فيه أن نموها كان يرتبط بالتغيرات التي كانت تطرأ على مستوى سطح البحر المتوسط والتي يمكن ايجازها فيما يلي (١٦):

١-٣-١ بداية البليوسين (من ٥٠٠ الف سنة تقريبا)
At the begining of the Pliocene

كان مستوى سطح البحر أعلى من منسوبه الحالي بنحو ١٨٠ مترا، وكان الساحل في ذلك الوقت لا يبعد عن مدينة "القاهرة" بأكثر من ٢٠ كم (والتي تبعد حاليا عن الساحل بحوالي ١٧٠ كم).

وفي البليوسين الأعلى انخفض سطح البحر عن مستواه في بداية البليوسين بنحو ٢٦ مترا فأصبح ارتفاعه ١٥٤ مترا عن منسوبه الحالي وأصبحت الدلتا أكثر امتدادا إلى الشمال بنحو ٢٥كم عن مدينة "القاهرة" وواصل انخفاضه إلى ١٢٩ متر فوق سطحه الحالي، وأصبح الساحل يبعد ٢٨ كم عن "القاهرة".

١-٣-٢ في خلال فترةالبلايستوسين (من ٢٠ الف سنة تقريبا)
During the Pliostocene

ظل مستوى سطح البحر ينخفض، الاول إلى مستوى ١٠٣م عن مستوى سطح البحر على فترات استقرار ثم ينخفض إلى +٧٢ ، +٥٧ ، +٤١ ، +٢٥، +١٨، -١٢م، وهذا الإنخفاض الذي تم في ٧ مراحل أدى إلى زيادة امتداد الدلتا. هذا معناه أن الساحل الشمالي أصبح يبعد عن مدينة "القاهرة" بمقدار ٤٥، ٤٨، ٥٣، ٦٤، ٧٠، ٩٠كم، وكمية الإنخفاض في مستوى سطح البحر في هذه المراحل كانت ١١٥م، وامتداد الدلتا كان ٥٧كم للشمال.

١-٣-٣ أواخر العصر الحجري القديم الأوسط(الموستيري الأعلى)
At the end of the middle Paleolithic

في هذه الفترة حدث ارتفاع في سطح البحر بحوالي ٢٨ مترا، مما أدى إلى توقف تقدم الفروع الدلتاوية بل وتراجعت ٨كم عن موقعها السابق، وأصبح الساحل يبعد عن القاهرة بمسافة ٨٢كم.

١-٣-٤ البلايوسين الأعلى:
The upper Pleistone

كان هناك رد فعل لإرتفاع مستوى سطح البحر والتي ظهرت في الفترة السابقة، ثم انخفض سطح البحر بمقدار ٥٩م في هذه الفترة حتى وصل إلى -٤٣م، وهو بذلك بلغ أقصى هبوط عن مستواه الحالي، وبالتالي أدى هذا إلى نمو الدلتا حتى بلغت أقصى نمو لها فقد نمت بمقدار ٩٩كم عن موقعها في أواخر العصر الحجري القديم الأوسط فأصبح الساحل يبعد عن مدينة القاهرة بمقدار ١٨١كم بزيادة قدرها ١١كم عن موقعه الحالي.

١-٣-٥ نهاية العصر الحجري القديم الأعلى
At the end of the Paleolithic

إرتفع منسوب البحر إلى -١٠ متر تحت المستوى الحالي وواصل إرتفاعه إلى +٨م في أواسط العصر الحجري الحديث، وأخذ الساحل يمتد حتى أصبح على بعد ١٧٣كم من "القاهرة".

١-٣-٦ خلال الستة الاف سنة الأخيرة
During the last six thousand years

امتد ساحل البحر لمسافة تبلغ حوالي ثلاث كم حتى أصبح يبعد ١٧٠كم عن مدينة "القاهرة" (موقعه الحالي) وأصبح منسوب البحر الحالي صفرا.

١-٤ هل كان للتجمعات العمرانية فى الصعيد السبق على تجمعات الدلتا ؟

مما تقدم نرى أن بناء الدلتا استغرق زمنا طويلا - كما أن المستنقعات والبرك لم تختفي منها إلا بالتدريج - وبالتالي فالدلتا أحدث عهدا من الصعيد. فهل كانت غير موجودة كليا أو جزئيا حين كان الصعيد من قبل مكونا معمورا؟ واذا كانت هناك شواهد تاريخية ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ عن ازدهار حضارة الدلتا، فالدكتور جمال حمدان يزودنا أيضا بمعلومات قيمة تؤكد ذلك فهو يقول:

"..ليس صحيحا أن الدلتا لم تكن قد تكونت أو ظهرت حين كان الصعيد قد اكتمل أرضا وسكانا، وانما الصحيح أن الدلتا وان كانت بداهة أحدث نشأة واكتمالا من الوادي فيزيوغرافيا، فإن المقصود هنا هو المقياس الطبيعي لا البشري، وفيما عدا هذا فلا جدال أن الدلتا كانت قد نشأت وتكونت جميعا قبل العصر التاريخي وظهور العمران وقيام الحضارة في مصر الوادي، وهي بالقطع لم تتكون أو تبزغ في وقت كان الصعيد فيه معمورا ومأهولا على الإطلاق. والمصريون أنفسهم ذكروا لنا أن بوصيرويس وتانيوصيريس وبوتو وبيلوزيوم - وكلها في أقصي الشمال - وجدت حتى في أوائل اوزوريس وحورس الأسطورية ، بعني انها قديمة جدا "(١٧).

الجدول الاتى يوضح ارقام منسوب البحر بالسالب والموجب منسوبه الى ساحل البحر الحالى ، وارقام موقع ساحل الدلتا تشير الى بعده عن القاهرة .

العصر	المرحلة	مستوى البحر بالمتر	موقع الساحل بالكم
البليوسين الاوسط	—	+١٨٠	٢٠
البليوسين الاعلى	مدرج ١٤٠	+١٥٤	٢٥
،، ،،	،، ١١٥	+١٢٩	٢٨
البلايستوسين الاسفل	مدرج ٩٠	+١٠٣	٣٣
،، ،،	،، ٦٠	+٧٢	٤٥
،، ،،	،، ٤٥	+٥٧	٤٨
الحجرى القديم الاسفل	مدرج ٣٠	+٤١	٥٣
،، ،، ،،	،، ١٥	+٢٥	٦٤
الحجرى القديم الاوسط	مدرج ٩	+١٨	٧٠
،، ،، ،،	موستيرى اوسط	-١٢	٩٠
،، ،، ،،	،، اعلى	+١٦	٨٢
الحجرى القديم الاعلى	سبيلى اسفل	+١٣	٨٥
،، ،، ،،	،، اوسط	+٣	١٠٣
،، ،، ،،	،، اعلى	-٤٣	١٨١
الحجرى الحديث	اوائل الحجرى الحديث	-١٠	١٧٣
العصر الحديث		صفر	١٧٠

جدول(١-١) (Source: Ball. "Contribution to the Geography of Egypt."

شكل يوضح مستوى سطح البحر المتوسط فى تذبذبه وتغيره من اواخر الزمن الثالث حتى اليوم.

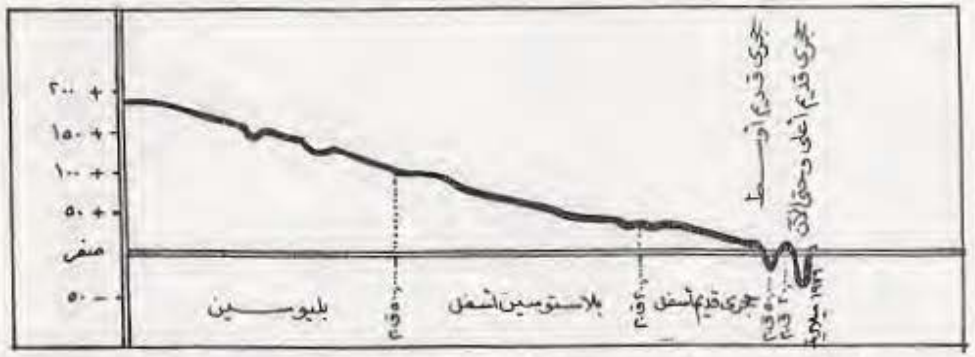

(شكل١-٢) . المصدر: د. جمال حمدان "شخصية مصر... دراسة فى عبقرية المكان" الجزء الاول. ص ١٦٨

مشروع مدن مصر ذات التباين الحضاري
مدن الدلتا

مراحل تكوين أرض الدلتا عبر العصور الجيولوجية المتعاقبة

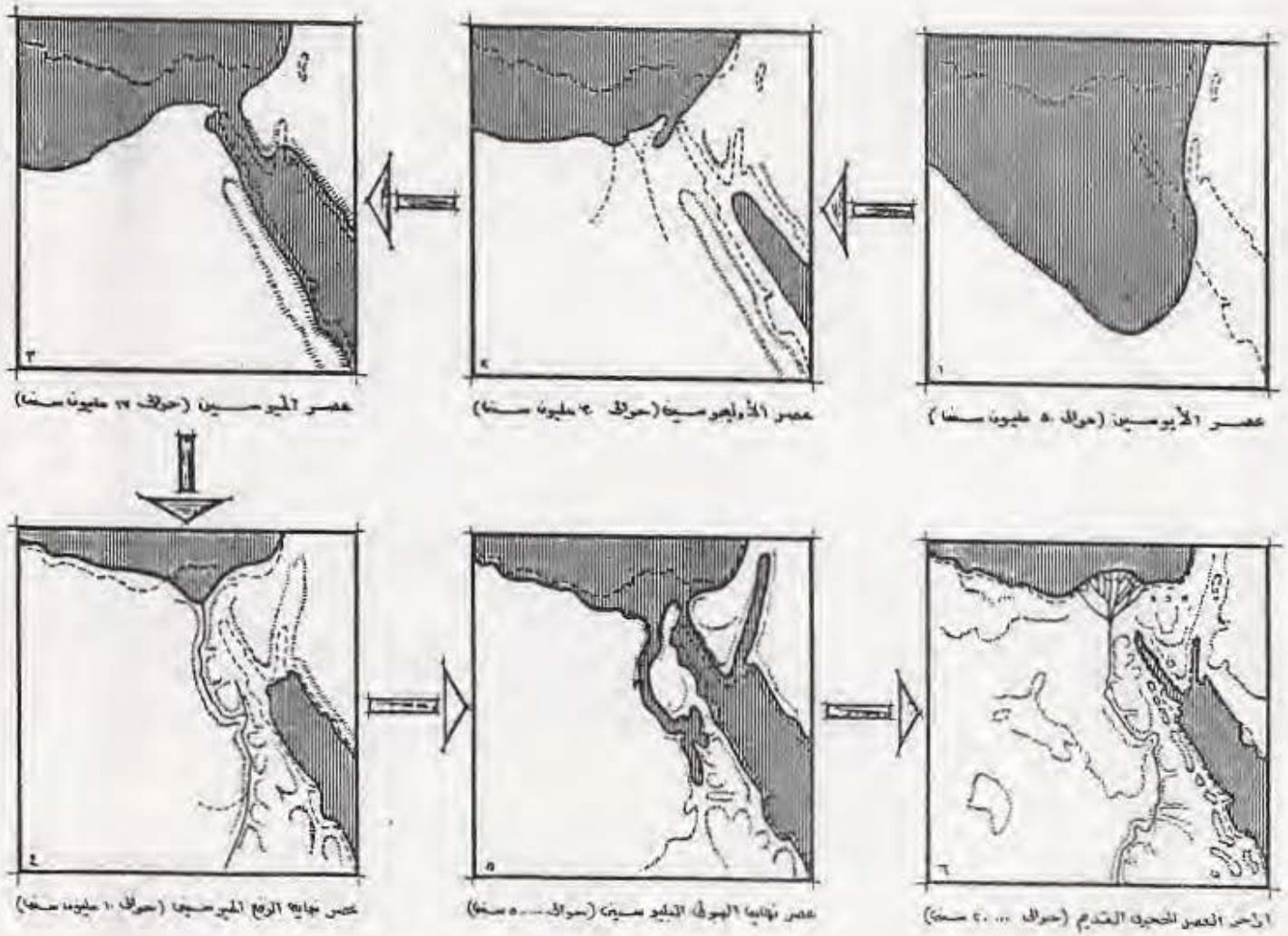

شكل رقم (١-٣)

Source: Ball. "Contributions to the Geography of Egypt".

معهد التخطيط الإقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للأبحاث العلمية والتعاون
O.R.S.T.O.M

١ ـ ٥ الدلتا وفروعها

الدلتا هى تلك الجزء من مصر الذي تنطوي أطرافه بين البحر المتوسط وفرعي النيل اللذين يصبان عند "رشيد" و "دمياط".

وقد كانت الدلتا في العصور القديمة ، عندما كان النيل يلتقي بالبحر في سبعة مصبات كبيرة -كما سنرى فيما بعد- تشمل المنطقة الواقعة بين الفرع الكانوبي الذي كان يصب بالقرب من أبي قير الحالية. والفرع البيلوزى الذي لا يزال مصبه القديم واضح المعالم عند النهاية الشرقية لبحيرة المنزلة، ويرجع الشكل المثلث لهذه الأرض السبب الأساسي،الذي جعل الإغريق يسمونها بالدلتا وذلك لتشابهها مع أحد الحروف الهجائية في لغتهم "حرف الدال".*

لقد ظهرت المدن الأولى في اقطار خصبة تقوم فيها الزراعة معتمدة على مياه الأنهار وما يتطلبه ذلك من تنظيم وتضافر للجهود، وقد استقرت تلك التجمعات في مواضع استراتيجية مثلت طلائع المدن (١٨) وبتتبعنا لمواقع المدن في مصر في عصورها المختلفة نجد انها لم تشذ عن هذه النظرية فقد اتخذت من نهر النيل وفروعه سبلا سهلة ورخيصة للتجارة الداخلية فكانت سببا مباشرا لظهور المدن المصرية الأولى كمواصم للمقاطعات . كما نلاحظ أن مواضع تلك المدن الأولى هى عند ملتقي الطرق التي يصنعها النيل وفروعه عند المصبات ليسهل اتصال تلك المدن بالعالم الخارجي.

وتنقسم دراسة هذا الجزء - كمحاولة لتغطية كافة جوانبها- إلى نقطتين رئيسيتين:

١-٥-١ أفرع النيل القديمة حسب تفسير المؤرخين القدماء.

١-٥-٢ أهم المدن المدن الواقعة على أفرع النيل القديمة.

---

*من قمة الدلتا إلى بوغاز رشيد ودمياط على خط مستقيم حوالى ١٦٠كم وقاعدة الدلتا في خط مستقيم أيضا تبلغ حوالي ١٣٧ كم بين دمياط ورشيد.

١ ـ ٥ ـ ١ أفرع النيل القديمة حسب تفسير المؤرخين القدماء

ترتكز هذه الدراسة على تحليل خرائط ثلاثة من المؤرخين القدماء وهم هيرودوت HERODOTE(٤٥٠ سنة ق.م) وسترابو STRABON (القرن الأول قبل الميلاد) وبطليموس PTOLEMEE (القرن الثانى بعد الميلاد) وذلك حسب تفسيرات كل من جون بول(١٩) وعمر طوسون(٢٠).

إشترك كل من هيرودوت وسترابو فى العديد من الدراسات الخاصة بأفرع النيل القديمة، فيتفقا على نقطة تفرع الدلتا وهى عند بلدة كركاسورCARCASORE التى يرجح أنها جزيرة الوراق الحالية شمال غرب القاهرة. وعلى الرغم من التباعد الزمني بين دراسات هذين المؤرخين إلا انهما اتفقا على أن فروع الدلتا هم سبعة فروع ونجد أن هناك أربعة فروع عند سترابو ظلت كما كانت عند هيرودوت دون تغير هى الفرع "البيلوزي" و"المنديزي" و"البولبتيني" و"الكانوبي" واتفقت دراستهما لهذه الأفرع الأربعة من حيث الأسماء والمسارات بينما ظهر الإختلاف في ثلاثة أفرع إما في الأسماء والمسارات مثل الفرع "السايسي" عند هيرودوت، "التانيسي" عند سترابو والفرع "البوكولى" عند الأول بينما هو عند الثاني يسمى بالفرع "الفاتيميتى"، أو كان الإختلاف في المسار مثل الفرع "السبنيتى" عند كل منهما.

أما بطليموس فسوف نستعرض دراساته منفردا لإختلافها تماما عن دراسات سابقيه.

١-٥-١-١ أفرع النيل القديمة عند كل من هيرودوت وسترابو

يقسم هيرودوت فروعالنيل القديمة إلى مجموعتين:

- مجموعة رئيسية تتكون من ثلاثة فروع هى:

البيلوزى Peluziac - السبنيتى Sebennytec - الكانوبى Canopic

مجموعة ثانوية تتفرع من الرئيسية وهى أربعة فروع

السايسى Saïtic – المنديزى Mendesian – البوكولى Bucolic - البولبتينى Bolbitine.

الفرع البيلوزى Peluziac

يتفق المؤرخان على أنه في أقصى الشرق ويصب عند "بيلوز" (أوالفرما) التى ينسب إليها، ويحدد طوسون مساره بالخط الرابط بين البحر الشيبني (أو ترعة الشرقاوية) والبحر الخليلي وترعة أبو الأخضر ثم بحر فاقوس وترعة السماعنة ثم مدينة بيلوز(٢١).

الفرع السايسى Saitic

يختلف المؤرخان هنا في أمرين هامين، فهو عند هيرودوت الفرع السايسى نسبة إلى "سايس" Saïs (صالحجر حاليا) بينما هو عند سترابو التانيسي نسبة إلى "تانيس" Tanis (صان الحجر حاليا). أما الأمر الآخر فهو اختلافهما في مأخذ الفرع نفسه، فبينما مأخذه عند سترابو من الفرع البيلوزي حيث نقطة التفرع هى "بوبسطة" (تل بسطة قرب الزقازيق حاليا) نجدها عند هيرودوت تأخذ من الفرع السبينتي لينتهي مساره قرب فتحة (بوغاز) "اشتوم الجميل" بالمنزلة غربي "بور سعيد" حسب تفسير بول إلا أن طوسون يخرج به من الجنوب أكثر عند "اتريب" (قرب بنها حاليا) ويجريه في بحر مويس ثم بحر المشرع لينتهي به على الساحل عند أم فرج في منتصف المسافة بين "بيلوز و"بور سعيد"*.

*نرى أنه تبعا لمواقع المدن المشار إليها في هذا التحليل وعلاقتها بالفرع السايسي لهيرودوت أو التانيسي لسترابو، أن تنسبة الفرع عند سترابو لمدينة تانيس (صان الحجر) هى أوقع من تنسبتها لمدينة سايس (صالحجر)، حيث أن الأولى تقع على الفرع نفسه بينما تقع الثانية على الفرع البولبتيني والذي يفصل المدينتين كل من الفرع المنديسي والسبنيتى.

الفرع المنديزى Mendesian

اتفق المؤرخان حسب تفسير بول على أن الفرع المنديزي يصب في حلق الوحل-أحد بواغيز بحيرة المنزلة الحالية- جنوب شرق "رأس البر" بنحو ١٣ كم. أما حسب تفسير طوسون فيبدأ الفرع مساره بالقرب من " ميت غمر" ثم يجري ليمر "بمنديس" (تل الربع حاليا) وليحتل البحر الصغير ثم يخرج في النهاية من فتحة الديبة ببحيرة المنزلة.

الفرع البوكولى Bucolique

الفرع البوكولي عند هيرودوت هو الفرع الفاتيمتى Phatemetique عند سترابو * * إلا أن وجه الإختلاف الرئيسي بين الاثنين أن الفرع البوكولي عند هيرودوت ما هو إلا فرع غير طبيعي من حفر الإنسان ليس له أهمية الأفرع السابقة، بينما يضعه سترابو في الدرجة الثالثة من الأهمية بين فروع النيل السبعة، وتفسير ذلك أن الفرع البوكولي المتواضع في زمن هيرودوت قد ابتلع أعلى السبنيتي في زمن سترابو (أى بعد حوالي نصف قرن من الزمان) وذلك بفضل قوته نتيجة انحداره المباشر(٢٢).

ويتفق الإثنان - هيرودوت وسترابو- على أن مسار الفرع هونفسه النصف الشمالي تقريبا من فرع دمياط الحالى إبتداء من "شبرا اليمن" ومارا ب "سمنود" (أو سبنيتوس كما سماها الإغريق وسمنوت عند الأقباط)(٢٣).

** كلمة فاتيمتى Phatemetique مشتقة من المقطعين mi-pha بمعنى الشيء الأوسط..

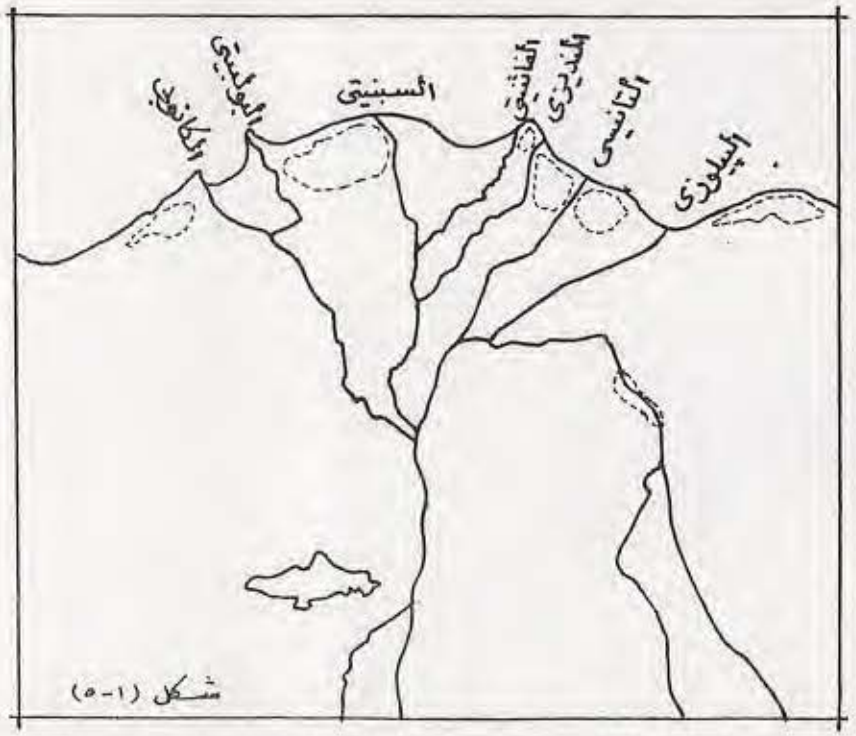

فروع الدلتا عند سترابو حسب تفسير بول
Source: J. Ball "Egypt in the Classical Geographers".

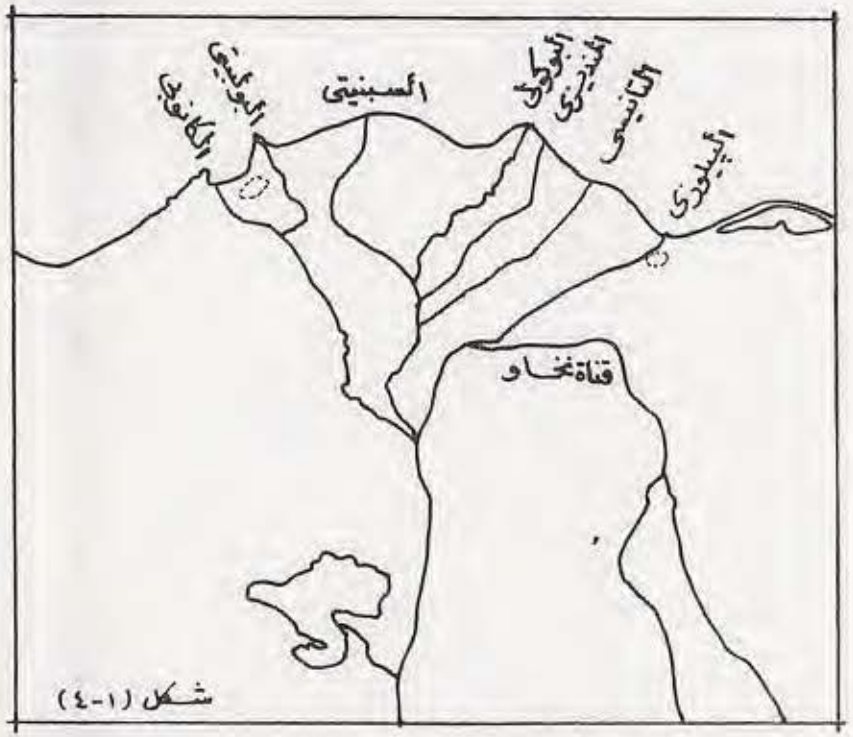

فروع الدلتا عند هيرودوت حسب تفسير بول
Sourse: J. Ball "Egypt in the Classical Geographers".

الفرع السبنيتى Sebennytic

ينسب الفرع السبنيتى إلى مدينة "سبينيتوس"Sebennytos الإغريقية أو سمنود الحالية، ويختلف المؤرخان إختلافا واضحا فى تحديد نوعية ومسار الفرع.

فهو عند هيرودوت فرع رئيسى يبدأ عند رأس الدلتا ويكاد يتوسطها مارا بمدينة "بوتو"Buto (ابطو أو تل الفراعين حاليا)، وحسب تفسير بول فإن هيرودوت يجري الفرع السبنيتي من جزيرة الوراق الحالية إلى ترعة الباسوسية حتى قرية "كفر عليم" ومنها في النصف الجنوبي من فرع دمياط حتى "شبرا اليمن" جنوب "سمنود" بنحو ١٤كم، ثم يقوسه بشدة نحو الشمال الغربي ليمر بقرى "شبرا بابل" و "تشيل قلين" و "شباس عمير" ثم "كوم الفراعين" ليخرجه عبر البرلس عند فتحة برج البرلس، أما طوسون فيجعل الفرع السبنيتي أكثر استقامة وبامتداد فرع دمياط الحالي من رأس الدلتاحتى "سمنود" ثم يجريه بعدذلك في بحر تيرة مارا بـ "الحامول" ثم حافا بطرف بحيرة البرلس الشرقي إلى أن يصب عند برج البرلس.

أما السبنيتي عند سترابو فيتفرع من الفاتيمتي قرب "سمنود" ثم يتجه في خط شبه مستقيم نحو الشمال الغربي ليشغل مجرى بحر شبين وبحر تيرة الحاليين ثم ليمر عند "الخاشعة" بحذاء شاطىء بحيرة البرلس الشرقي ومعني هذا أن النصف العلوي من هذا الفرع قد تحول إلى مجرد فرع صغير بعد أن بتر أعلاه وابتلعه الفاتيميتي(٢٤).

الفرع البولبتينى Bolbitine

يتفق المؤرخان بدرجة كبيرة إلا أن هيرودوت يعتبر الفرع البولبتيني هو الفرع الصناعي والثانى المتفرع من الكانوبي نحو الشرق.

وحسب تفسير بول فيبدأ من الفرع الكانوبي قرب "دمنهور" متجها شمالا شرقا ليحتل الثلث الأخير من فرع رشيد الحالي ابتداء من "الرحمانية" أما طوسون فيبدؤه عند زاوية البحر ليجري مباشرة بكامل فرع رشيد الحالي*

الفرع الكانوبى Canopic

يتفق المؤرخان على اسم ومسار الفرع الكانوبي فهو الفرع الغربي الأقصي والرئيسي في غرب الدلتا، ويصب هذا الفرع عند "كانوب" أو أبو قير" حاليا في خليج أبو قير، يبدأ هذا الفرع مساره من رأس الدلتا مثل الفرع "البيلوزى" و"السبنيتى" ويسير حتى زاوية البحر - نقطة تفرع "البولبتينى" - ثم يمر بترعة أبو دياب مارا بـ "كوم حماده" و"نقراطيس" (نقراش أو كوم جعيف) ثم "دمنهور" و"ابو حمص" حتى يصل إلى "كانوب" ويصب في خليج أبو قير.

١-٥-١-٣ أفرع النيل القديمة عند بطليموس

ننتقل بعد ذلك إلى فروع الدلتا عند بطليموس حيث ينفرد هذا المؤرخ بأنه الجغرافي الوحيد بين المؤرخين الذى مدنا بخريطة مختلفة تماما عن سابقيه.

يميز بطليموس في دراسته بين الفروع والمصبات فيذكر ستة أفرع هى من الشرق إلى الغرب: الفرع البوسطى- البوصيري - الاتريبي- التيرموتى - تالى ثم فرع أجاثو دايمون. كما يذكر لنا تسعة مصبات (نجد منها الطبيعي ومنها الصناعي) تنتهي إليها الفروع السابقة، فالمصبات الطبيعية هى: البيلوزي-التانيسي-المنديزي- الفاتيميتي- السبنيتي فالبولبتيني ثم الهرقلي. أما المصبات الصناعية فهما ديولكوس وبينيتيمي. كذلك يتميز بطليموس بأنه يذكر في دراسته فرع سابع ولكنه عرضي هو الفرع البوتي الذي يقسم الدلتا إلى ثلاثة أجزاء. فيذكربطليموس "الدلتاالكبرى" فى الغرب وهى المحصورة بين فرعي أجاثو دايمون والإتريبى ثم "الدلتا الصغرى" فى الشرق وهى المحصورة بين فرعى البوصيري والبوسطي وأخيرا "الدلتا الثالثة أو الوسطي" وهى المحصورة بين الاتريبي والبوصيري.

---

* يرفض بول هذا التفسير على أساس أن طوسون يجعل مدينة سايس على بعد ٥ر١كم تقريبا من الفرع البولبيتيني في حين أن سترابو يقول أنهابعد١٢ كم تقريبا من النهر.

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

خريطة بطليموس الأصلية
لمصر وفروع الدلتا

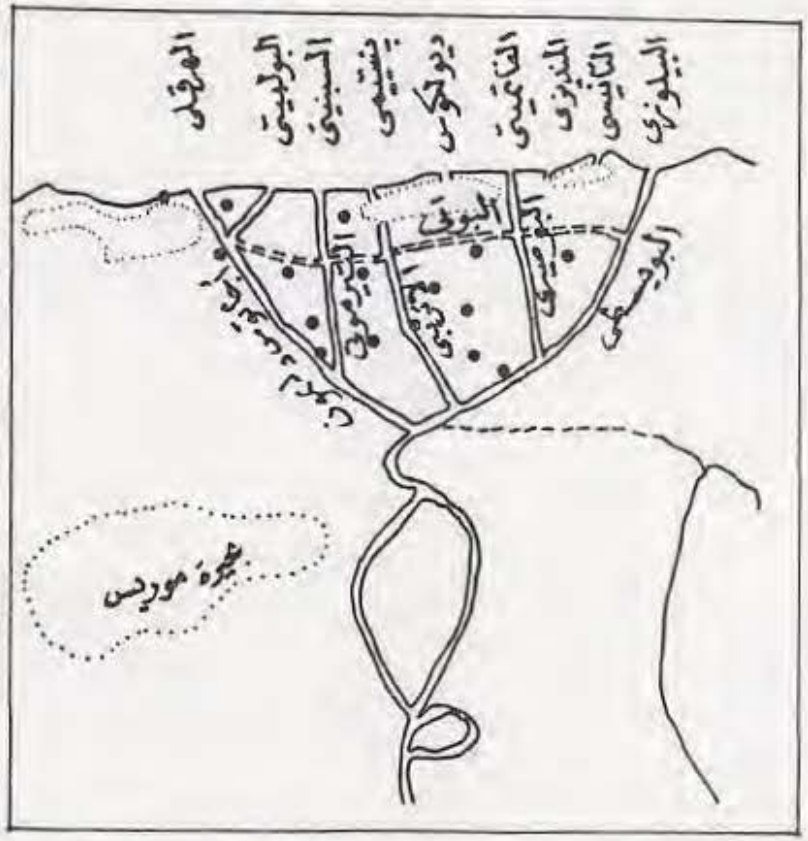

شكل رقم (١-٦)

المصدر : كتاب شخصية مصر - د.جمال حمدان

معهد التخطيط الاقليمى والعمرانى
I.U.R.P
المركز الفرنسى للأبحاث العلمية
والتعاون
O.R.S.T.O.M

وبتحليل أفرع النيل عند بطليموس وامتدادها – أى مصبات الأفرع– ومقارنتها بشبكات هيرودوت وسترابو، نجد أن هناك ثلاثة أفرع عند بطليموس لها ما يقابلها عند هيرودوت وسترابو:

١) البوبسطى +المصب البيلوزي : تقابل البيلوزي عند هيرودوت وسترابو.
٢) تالى Taly+ المصب البولبتيني : تقابل الفرع البولبتيني عند الاثنين .
٣) أجاثو دايمون Agathodaemon + المصب الهرقلى : تقابل الفرع الكانوبى.

كما نلاحظ أن كلا من الفرع التانيسي والمنديزي عند هيرودوت وسترابو تحولا من أفرع إلى مجرد مصبات عند بطليموس، أما الأفرع الأخرى عند بطليموس فهى على النحو التالي:

الفرع التيرموتى Theremuthiaque-Thermutiac

أطلق عليه هذا الاسم نسبة إلى مدينة "ترنوتيس" Thérnuthis (طرانة حاليا شمال الخطاطبة) ويتفرع من أجاثو دايمون قرب قرية "جريس"، وحسب تفسير بول فان الفرع التيرموتي يشغل جزءا من مجرى بحر شبين ثم الترعة البتانونية حتى "تلا" ثم ترعة القاصد وبعدها يستمر شمالا مع بعض التعاريج ثم فى نهايته يحتل مجرى سبنيتي هيرودوت وليس سبنيتي سترابو، وإلى أن يمر بحيرة البرلس في شرقها لينتهي بالمصب السبنيتي عند فتحة برج البرلس(٢٥).

الفرع الأتريبى Attribis

يختلف كل من بول وطوسون على مخرج الفرع الاتريبي عند بطليموس. فيرى بول أنه يتفرع من البوبسطي عند "كوم آسفين" ثم مارا بـ "أتريب" ثم يتبع مجرى فاتيميتى سترابو حتى "سمنود" ثم مجرى سبنيتي سترابو حتى "الخاشعة" قرب نهاية البرلس الشرقية ومنها ينحرف بشدة نحو الشمال الشرقي ليصل إلى البحر عند مصب بيلوزيمى الصناعي الذي يتفق مع مخرج مصرف الغربية الحالي شرق "بلطيم" بنحو ١٠ كيلو مترات

أما طوسون فيرى أن الفرع الاتريبى يجري أولا في الفاتيميتى حتى مدينة "أتريب" وبعدها بقليل ينحرف غربا ليحتل مجرى بحر شبين وبحر بسنديلة الحاليين إلى أن ينتهي إلى البحر عن طريق مصب بيلوزيمي الصناعي.

ويرى الباحث أنه بالرجوع إلى خريطة بطليموس الأصلية، نجد أن بطليموس يحدد بوضوح تفرع الاتريبى من الفرع البوبسطي وليس الفاتيميتي، حيث أن الأخير عند بطليموس يتفرع هو الآخر من الفرع البوبسطي. ولا نجد سببا لهذا الإختلاف بين بول وطوسون، ويذكر بطليموس أيضا أن هناك مصبا صناعيا هو ديولكوس Diolcus لكن دون أن يربطه بأى فرع ولكن بول يرى، حسب تفسيره، أنه مخرج ثانوي كان يتفرع من الفرع الاتريبى عند بلدة "طنيخ" الحالية ليحتل مجرى بحر بسنديلة ويصب في البحر عند "أشتوم"، "جمصة الحالية".

بينما نجد طوسون يتجاهل هنا المصب تماما فنجده قد حدد ثماني مصبات وليس تسعة كما هو مبين عند بول ومبين فـــي خريطة بطليموس الأصلية المرسومة بخط يده، ويرى الباحث عامة أن تفسير بول بالنسبة لهذا الفرع كان أكثر توفيقا من تفســـــير طوسون بالرغم من وضوح خريطة بطليموس الأصلية.

الفرع البوصيرى Busiritic

يتفرع من البوبسطي ولكن عند رأس الدلتا الصغرى، وفي طريقه يمر بمدينة "بوصير" وينتهي بأن يصب خلال المصب الفاتيميتى...يجعل طوسون نقطة ابتداء من البوبسطي عند قرية "النعامة" على فرع دمياط قرب "اتريب و"بنها" . أما بول فيضع نقطة ابتداء عند "كفر الشرابية".

وعن مسار الفرع البوصيري فيبدأ عند طوسون بجزء من بحر مويس "الفرع التانيسي" حتى "كفر صقر" ثم ينعطف شمالا ليفرغ في الفرع أو بمعني أصح مصب الفاتيميتي ما بين "شربين " و"فارسكور".

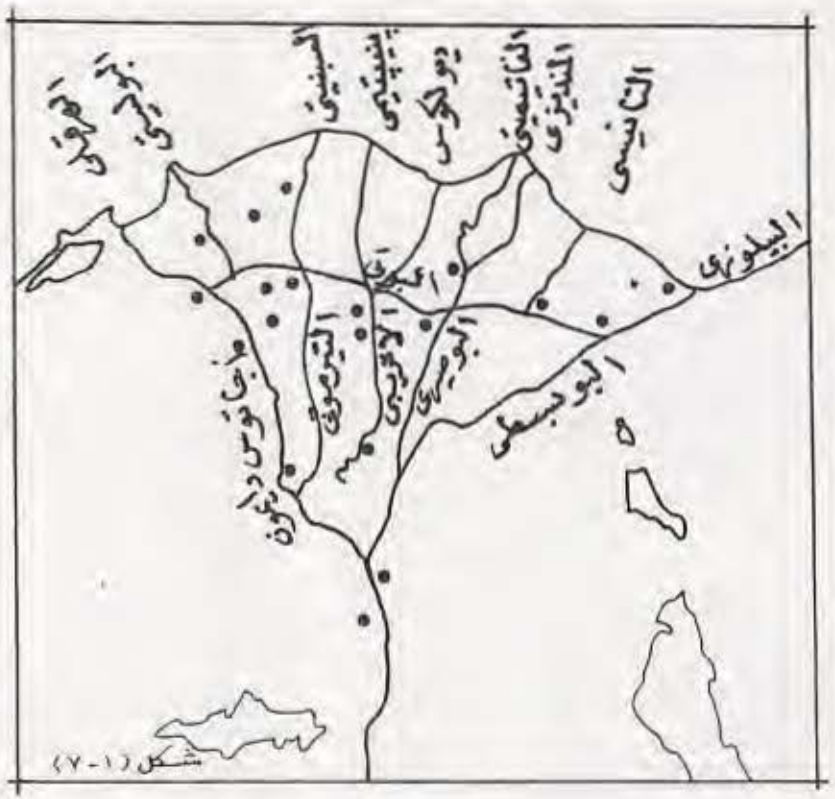

فروع الدلتا عند بطليموس حسب تفسير بول

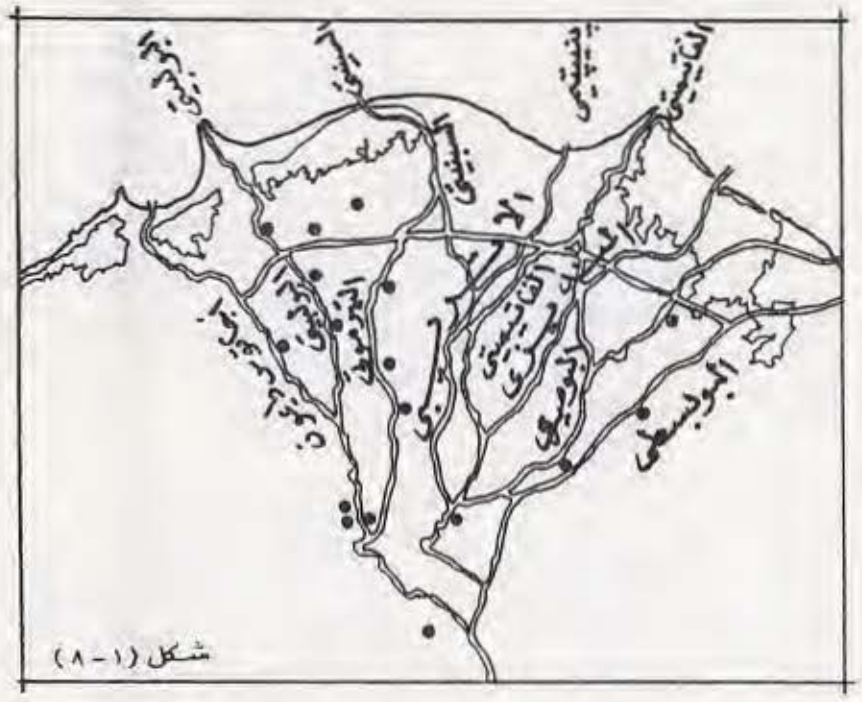

فروع الدلتا وأقسامها عند بطليموس حسب تفسير طوسون

المصدر: كتاب شخصية مصر - د: جمال حمدان

مقارنـــة وخـــلاصـــة

هيرودوت ومصبـــــه	سترابـــــــو	بطليمـــــوس	المرادف الحالـــــى
البيلـوزى (القرمـــا)	البيلـــــــوزى	البـوبسطـــــى	الشرقاوية ،ابوالاخضر ،فاقـــوس
السايســى (الجميـــل)	التانيســـــى	التانيســـــى	مويـس وحـاردس جزئيـــا
المنديـــزى (رأس البـــر)	المنديـــــزى	المصب المنديزى والفـــرع البوصيـــــرى	البحر الصغير جزئيـــا
البوكولـى (غير طبيعـــى)	الفاتيمـــــتى	المصب الفاتيمتى والفـــرع الاتريبـــــى	فـرع دمياط جزئيـــا
السبينـــتى (بوغاز البرلـس)	السبنيـــــتى	السبنيـــــتى	بحـر شبيـــن وتيـــرة
البولبتيـتى (غير طبيعـــى)	البوليتـــــى	تالـــــى	فـرع رشيـد حزئيـــا
الكانولـى (ابوقيـــــر)	الكانوبـــــى	اجاثو ديمـون والمصـــب الهـرقلـــــى	بحر دياب والمحموديـــــة
ـــــــ	ـــــــ	البوتى(عرضى من البيلوزى حـتى الكانوبـــــى)	ـــــــ

المصدر : كتاب شخصية مصر - د.جمال حمدان ص ٢٠٠

جـــدول (١-٢)

الفرع البوتي Butic

أغرب فروع بطليموس، فكل الفروع التي أوردها المؤرخون والجغرافيون مروحية ما عدا ما ذكره بطليموس عن هذا الفرع العرضي الوحيد والمسمى بالفرع البوتي. يمتد هذا الفرع من الغرب إلى الشرق بمحازاة الساحل تقريبا على بعد يتراوح ما بين ٥٠ إلى ٦٠ كم وواصلا بين كل الفروع الطولية الرئيسية الأخرى.

ويرى بول أن هذا الفرع يبدأ من نهر تالي غير بعيد عن "دمنهور" ويتجه نحو الشمال الشرقي ليمر بمدينة "بوتو" التي ينسب إليها، ثم يمضي شرقا حيث يتقاطع على التوالي مع التيرموتي قرب "الحمراء" ثم مع الاتريبي قرب "طنبخ" ثم مع البوصيري قرب "تمي الامديد" وأخيرا مع البوسطي قرب "دقناى"، "تل دفنة" حاليا، كما يرى بول أن هذا الفرع صناعي ومن عمل الإنسان.

١-٥-١-٣ أفرع النيل في العصور الوسطى

قام الأمير عمر طوسون بجمع وتحقيق الروايات العربية الخاصة بأفرع النيل في العصور الوسطى (٢٦)، ابن عبد الحكم (القرن ٩م) - ابن سيرابيون (أول القرن العاشر م) والإدريسي (القرن ١٢م). وقد ذكر الأول أربعة فروع هي:

فرع سردوس بالقليوبية	فرع دمياط
فرع سخا (تيرموتي بطليموس)	فرع شطانوف

أما ابن سيرابيون فلم يذكر سوى ثلاثة أفرع رئيسية فقط، أوسطها هو فرع شطانوف الذي يبدأ من "شطانوف" وينتهي إلى البحر عند "دمياط" ويعتبره طوسون الفرع الاتريبي القديم.

أما ابن حوقل فلم يقوم بالإشارة إلا إلى فرعين فقط: الشرقي فرع دمياط وتنيس، والغربي يمر"بالجريسات" (اشمون جريس حاليا) ثم "بابو يؤانس" حيث يتشعب إلى ذراعين تعودان فتلتقيان في الشمال عند "ابيج" مكونتين فيما بينها جزيرة ضخمة لا يسميها ولكنها هي بلا شك جزيرة "إبيار" عند الإدريسي ومن قبل جزيرة "بود سوبيت" عند

هيرودوت(٢٧). هذا وقد اتفق الإدريسي مع ابن حوقل فلم يشر إلا إلى فرعين فقط وذكر أن الفرع الغربي (رشيد) أهم من الفرع الشرقي (دمياط) كما أشار إلى الأفرع الفرعية خليج ابيار، خليج برنبال، فرع فيلج، ترعة المحلة (٢٨).

واضح إذن في الصورة العامة أن عدد الأفرع لم يتعد الثلاثة قط ، وأن فرعي رشيد ودمياط احتلا الصدارة في الشبكة الجديدة-المختزلة المجففة - الا أنهما لم يتشكلا بشكلهما المعروف ولم يبرزا إلى هذا الوضع إلا حوالي القرن ال ١٠ الميلادي أى نحو ألف سنة إلى الآن (٢٩).

"إختفت إذن الفروع القديمة أو اختنقت ولم تعد تصب في البحر لكنها بعد تفرعها من فرعي دمياط ورشيد كانت تعود فتصب فيهما داخليا تاركة بينها وبينهماجزرا نهرية هائلة المساحة تتقاسم فيما بينها جزءا كبيرا من رقعة قلب الدلتا ، من هذه الفروع فرع اميليج الذي ينفق جزئيا مع بحر شبين الحالي ثم فرع سخا الذي ورثته جزئيا ترعتا القاصد والجعفرية الآن وأخيرا فرع ابيار الذي تمثله اليوم جزئيا الباجورية" (٣٠).

١ـ ٥ ـ ٢ أهم المدن الواقعة على أفرع النيل القديمة

بعد استعراضنا وتحليلنا لمسارات الأفرع المختلفة لنهر النيل في دلتا مصر عند كل من هيرودوت وسترابو وبطليموس، نجد أن هناك العديد من المدن والتجمعات العمرانية التي نشأت على ضفاف تلك الأفرع، هذا وقد بلغ البعض من تلك التجمعات درجة كبيرة من الأهمية إستمدتها من وقوعها على فرع من الفروع السابق تحليلها ، كذلك نتيجة لموقعها عامة بمنطقة الدلتا كوجودها عند نهايات أو مصبات الأفرع أو لوقوعها عند التقاء أكثر من فرع من فروع النيل.

وإستناداً إلى التحليل السابق لأفرع نهر النيل، نجد أن أهم المدن القديمة يمكن حصرها في الدراسة الآتية:

١) الفرع البيلوزى

بالنسبة للفرع البيلوزى نتبين مدينتان هامتين هما مدينة "بيلوز" أو "الفرما" (تل الفرما حاليا) ومدينة "بوبسطة" أو "تل بسطة" حاليا.

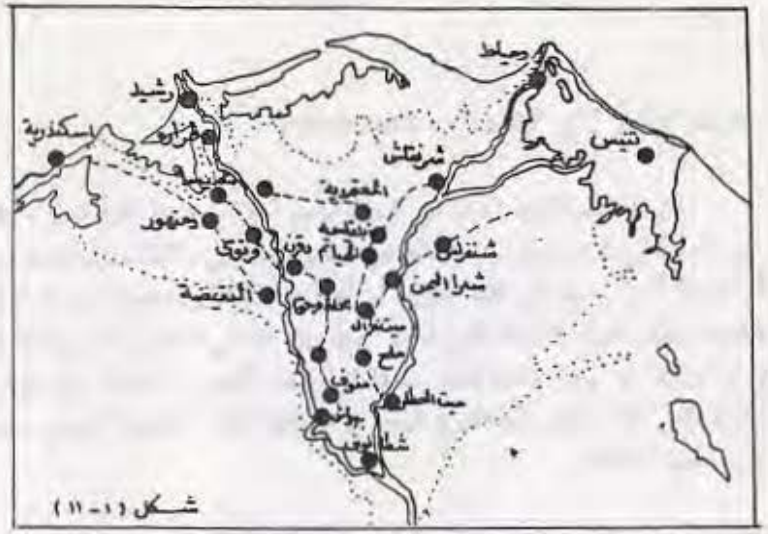

فروع الدلتا فى القرنين ١٠، ١٢ م حسب تفسير چست

المصدر، كتاب "شخصية مصر" ص ٢٠٤ د.جمال حمدان

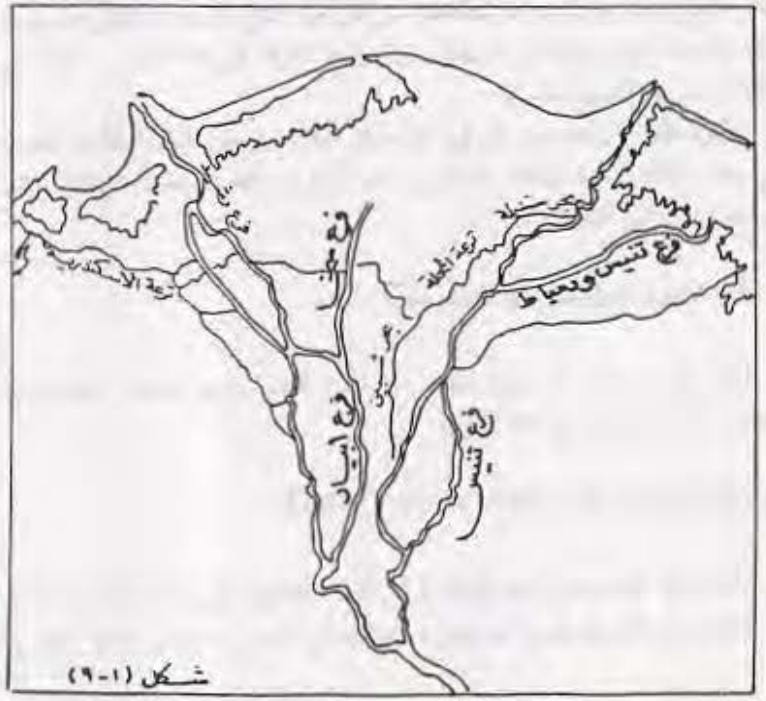

فروع الدلتا فى العصر العربى

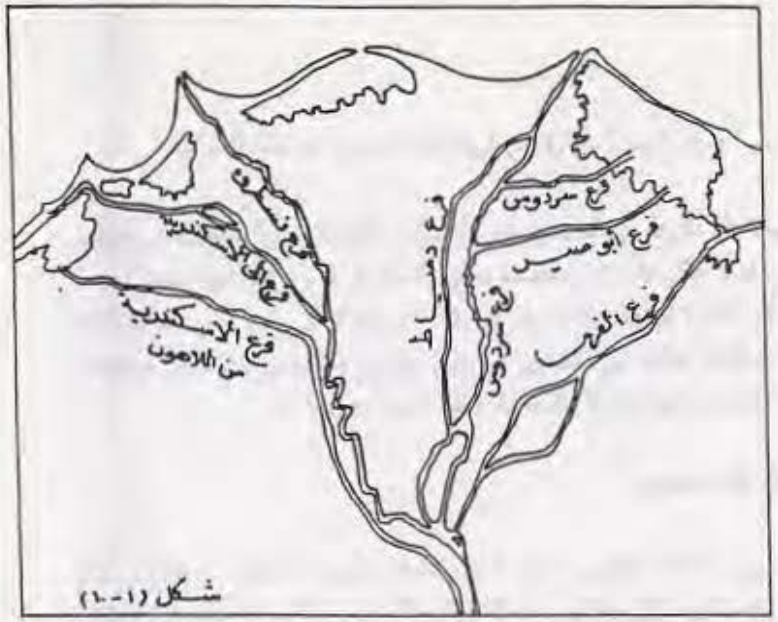

فروع الدلتا عند إبن سيرابيون

حسب تفسير طوسون

المصدر، كتاب شخصية مصر - د.جمال حمدان ص ٢٠٢

هـ) الفرع السبينتي

يحوى هذا الفرع مدينتين من المدن الهامة ، مدينة "سبينتوس" (سمنود الحالية) ومدينة "بوتو" أو "تل الفراعين" حاليا.

مدينة سبنيتوس (سمنود حاليا) Sebennytos

كانت عاصمة مصر في عهد الأسرة الثلاثين هى مدينة "سبينتوس" الإغريقية أو "سمنوت" عند الأقباط أو "سمنود" الحالية التي قيل عنها أثناء فترة الحملة الفرنسية "سمنود" هى أكبر مدينة على النيل بين "القاهرة" و "دمياط" (على فرع دمياط) وموقعها على النهر وإحاطتها بالترع والقنوات ومجاورتها "المحلةالكبرى"(وهى من أهم المدن الصناعية فى الدلتا)، أتاح كل ذلك لـ"سمنود" أن تكون مركزا تجاريا نشيطا وفيها أسواق كثيرة (٣٧).

مدينة بوتو (تل الفراعين حاليا) Bouto

تقع تلك المدينة في شمال "دسوق" الحالية فكانت "بوتو" عاصمة المقاطعة السادسة للوجه البحري ٤٢٤٠ ق م أى في عصر ما قبل الأسرات مما يدل على عراقة وقدم تلك المدينة. وفي الحقيقة فان "بوتو" تتكون من مدينتين أو هى مدينة مزدوجة يفصلهما النهر وهما (دب) و (بي) وقد ظلتا تلعبان دورا في الأدب الديني حتى زمن متأخر.

و) الفرع البولبتيني (فرع رشيد حاليا)

تتبين على ضفافه مدينتين هامتين هما مدينة "سايس" أو "صاالحجر" حاليا ومدينة "بولبتين" (جنوب مدينة رشيد حاليا).

مدينة "سايس" (صا الحجر حاليا): Sais

هى عاصمة مصر في عهد الأسرتين السابعة والعشرين والثامنة والعشرين. تقع هذه المدينة في النصف الغربي من الدلتا الذي كان مسرحا دائما لمتاعب الليبيين المجاورين وغاراتهم، لذا نجد أنه في "سايس" كانت تعبد منذ الزمن القديم آلهه محبة للحرب وهى "نيت"، وقد لعبت هذه المدينة دورا هاما في القرن الثامن ق.م. عندما تولى بعض الأمراء الليبيين أبسماتيك ويخاو زمام الحكم في البلاد(٣٨).

مدينة بولبتين: Bolbitine

تقع هذه المدينة أعلى الفرع الذي يحمل اسمها يرجح أنها كانت عند جنوب "رشيد" الحالية، وقد ذكر اسطافنوس البيزنطي عنها في القرن الخامس الميلادي قال "أنه كان يصنع بها العجلات الخربة التي اشتهرت بها . يرجح واليس بدج أن "بولبتين" قد بدأت تندثر عقب تأسيس مدينة "الإسكندرية "سنة ٣٣١ ق م. (٣٩).

ز) الفرع الكانوبي:

وبوصولنا لآخر فرع من فروع النيل بمنطقة الدلتا نتبين عدة مدن احتلت مكانة مرموقة عبر التاريخ هم على التوالي من جنوب الفرع إلى شماله مدينة "نقراطيس" (نقراش حاليا) و"هيروموبوليس بارفا" (دمنهور حاليا) ومدينة "كانوب".

مدينة نقراطيس (نقراش حاليا): Naucratis

يرجع تاريخ "نقراطيس" إلى عهد أبسماتيك الأول مؤسس الأسرة السادسة والعشرين سنة ٦٥١ ق.م. وأمير مدينة "سايس"، ومدينة نقراطيس" أنشأها التجار الإغريق. وكلمة نقراطيس هى كلمة يونانية الأصل تتكون من كلمتين نافس (ملاح) + كراتوس (السيطرة) وتنطق معا "ناف كراتوس" أى مكان السيطرة على الملاحة. من هذا يتضح لنا أن "نقراطيس" كانت ميناء نيلي هام فكانت التجارة المصرية تمر بها في طريقها إلى بلاد البحر المتوسط فأصبحت الميناء النهري الأول لسايس بدءا من الأسرة السادسة

والعشرين، كما قال عنها أدولف أرمان أن "تقراطيس" معناها "مدينة الميناء " Naukratis (٤٠).

تقع مدينة "تقراطيس" على بعد ٥كم غرب "إيتاى البارود" وتبعد حوالي ٧٠كم من البحر وعلى بعد ١٢٠كم من "كانوب" إذا أخذنا في الإعتبار تعرجات الفرع الكانوبي كما تبعد ٢٠كم شرق "سايس" وهى في منتصف المسافة بين "كانوب" و"مفيس".

ويرجع سبب نشأتها في هذا الموقع لبعده عن الساحل وعدم تعرضه لمخاطر الغزو فكانت بذلك مدينة تجارية عظيمة حتى نشأة "الإسكندرية"، وقد أقل نجم مدينة "تقراطيس" منذ تأسيس "الإسكندرية" كما حدث لمدينة "بولبتين" بالإضافة إلى جفاف الفرع الكانوبي فإندثرت معالم حضارتها ولم تعد غير أطلال و أكوام وقامت على أطلالها "كوم جعيف" التي أطلق عليها العرب فيما بعد "تل نقراش"(٤١).

مدينة هيرموبوليس بارفا (او دمنهور حاليا) Hermopolis prava

يرجع سبب شهرة تلك المدينة حسب تفسير المؤرخين أنها المدينة التي خصصت لعبادة الاله حوريس ففي الأصل كانت تسمي تلك المدينة d-min-hor أى مدينة هوريس la ville d'Horus أماالإغريق فسموها"هرموبوليس بارفا" في القرن الثالث قبل الميلاد، أى مدينة هرمس الصغرى لمقارنتها بهرمس الكبرى التى كانت عاصمة إحدى مقاطعات الصعيد Hermopolis Magna .

وفي نهاية العصر البطلمي كانت هذه المدينة عاصمة المقاطعة السابعة عشر والتي تعرف باسم "بهدت" Behdit ولكن القبط أعادوا إليها اسمها المصري القديم ونطقوها "تمنهور" Timimhor ومنهـــا سميت فى زمان العرب إلى يومنا هذا " دمنهور " Dmanhor(٤٢)

مدينة كانوب Canope

إن أصل كانوب غير مؤكد حتى الآن فتختلف روايات المؤرخين ونظرياتهم. فنجد هوميروس وهكتاتيوس ينسبون اسم تلك المدينة وأصلها إلى ربان سفينة إسمه

كانوبيس Canopus وأنه أول من دفن في رمال تلك المنطقة الواقعة غربي "هرقليوم" ثم أخذت المباني فى الظهور والإزدياد ، ولكن خطيبا من أهل هذا القرن الثاني الميلادي هو ايليوس أريستيديس Aelius Aristides يرى أنها مدينة مصرية قديمة قبل قدوم الرمان بقرون طويلة وينسبهـــا إلـــى كاهينـــوب Kahi - Noub أي أرض الذهـــب (٤٣) . كذلك حاول كل من سويداس Suidas وسيدرنيوس Cedrenus وروفينوس Ru-finus أن يثبتوا أنها نسبة إلى الاله المصري القديم Canupus (٤٤).

فى العصر الفرعوني لم تكن "كانوب" ذات أهمية، ومنذ االقرن الخامس قبل الميلاد كانت "كانوب" تتمتع بشهرة زائدة، فقد سيطرت هذه المدينة على الفرع الكانوبي من جهة البحر كما سيطرت "تقراطيس" على الميناء النهري. وقد تحولت "كانوب" إلى ضاحية من ضواحي مدينة "الإسكندرية" منذ إنشائها في القرن الرابع الميلادي ويمكننا اعتبار هذا التاريخ هو بداية تدهور "كانوب" إلا إنها ظلت مركز ترانزيت تجارى ومدينة مقدسة بما احتوته من معابد، وفي العصر الروماني أصبحت مكانا للهو فقد احتوت على العديد من الحانات والملاهي ثم دمرت جزئيا في عصر دقلديانوس نتيجة لإضطهاد الأقباط واختفت "كانوب" في القرن الثامن نتيجة لهبوط شمال غرب الدلتا تحت سطح البحر.

استنتاج عام

من الدراسة السابقة لأفرع نهر النيل وأهم المدن الواقعة عليها، يمكننا إرجاع أهمية تلك المدن إلى:

١) وجود بعض هذه المدن عند نقطة التقاء الفـرع بالبحر (مصـبات أو قريبـة من المصبات) مثل مـدن "بيلوز" ، "المنزلـة"، "دمياط" القديمة "بولبتين" و"كانوب" (من الشرق إلى الغرب).

٢) وجـــود البعض الآخر في منتصف المســـافة بين بداية الفرع جنوبا حتى التقاء بالبحر مثل مدن "تانيس"، "منديس"، "سبنهتوس"، "سايس" و"تقراطيس" (من الشرق إلى الغرب).

٣) تزداد أهميـــة بعض المدن لوجودهـا عند نقطة التقاء أكثر من فرع مثل مدينة "سبنتيوس" (سمنود حاليا) أو عند التقاء أحد فروع ببحيرة مثل مدينة "المنزلة"

(23)

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

أهم المدن على أفرع النيل في العصر الفرعوني

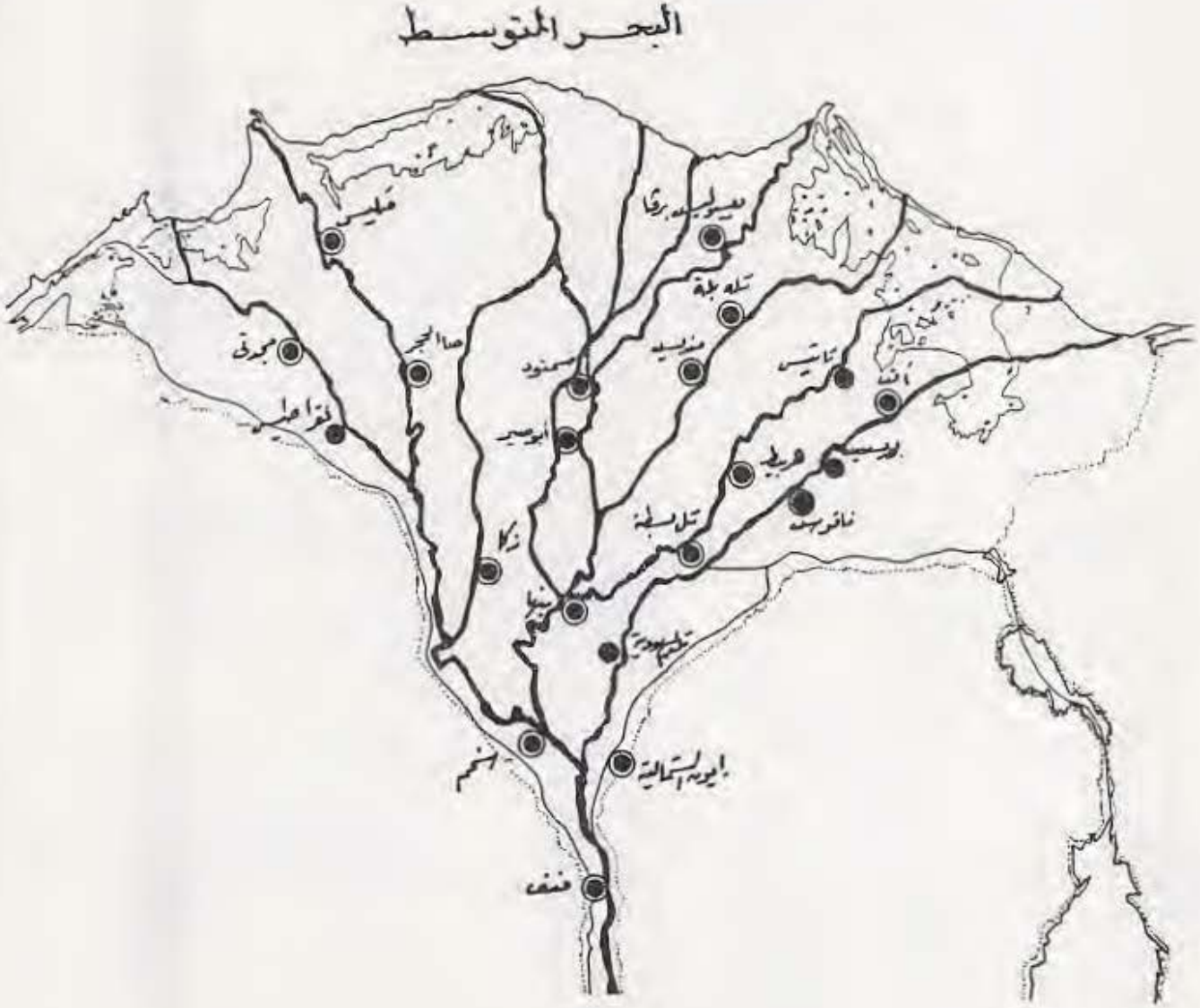

شكل رقم (١-١٢)

N

معهد التخطيط الاقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للابحاث العلمية والتعاون
O.R.S.T.O.M

التي تقع عند إلتقاء الفرع المنديسي ببحيرة المنزلة ومدينة "دمياط" القديمة الواقعة في موضع مركزي بالنسبة للبحر والفرع الفاتيمي وبحيرة المنزلة ، أو نتيجة لوجود المدينة في مركز متوسط بالنسبة لأكثر من فرع مثل مدينة "بوسطة" عند اقتراب كل من الفرع البيلوزي والفرع السايسي من بعضهما (انظر شكل ١-٦).

٤) كما ترجع أهمية البعض الآخر نتيجة لوظيفتها الدينية بالإضافة إلى وقوعها على أحد الأفرع مثل مدينتة "بوتو" (تل الفراعين) على الفرع البولبتينى ومدينة "هرموبوليس بارفا" (دمنهور حاليا) على الفرع الكانوبي.

وكما ساهمت تلك الأفرع في تكوين الدلتا وفي نشأة وتطور الحواضر الأولى على ضفافها، فان رواسبها كان لها أثر كبير في تكوين الكثبان والشطوط الساحلية الرملية كما أنه يرجع إليها الفضل الأكبر في التكوين الحوضي للبحيرات، إذ استطاعت في كثير من الحالات أن تكون لنفسها ضفافا مرتفعة تحصر بينها عددا من المنخفضات تتحول إلى بحيرات أو خلجان بحرية إذا طغت عليها المياه.

١ ـ ٦ تكوين البحيرات

يرتبط تكوين البحيرات بعوامل فيزيوغرافية وأيضا جيولوجية ، وهناك أربعة عوامل رئيسية ساهمت في هذا التكوين تتمثل في تكوين دلتا النيل وفروعه القديمة وفى الشطوط والكثبان الرملية الساحلية وفي حركة هبوط الساحل التاريخية.

ففي خلال تقدم الدلتا على مراحل ملء الجزء الذي كان يشغله الخليج البلوسيني بفضل رواسب النيل والتيار البحري بدأت أنوية البحيرات الشمالية تتكون. ثم أخذت أفرع النيل الرئيسية تحصر بينها بعض الأحواض أو البحيرات نتيجة لإلتقائها أثناء الفيضانات(٤٥).

أما أفرع النيل الثانوية، التي لا تصب في البحر مباشرة فقد كونت المنخفضات أو الأحواض الداخلية التي تلق فيها بمياهها حتي يرتفع منسوبها إلى درجة أدت إلى اتصال مياه هذه الأحوض بعضها بالآخر أو إلى تصريفها إلى البحر أو إلى الخلجان البحرية التي تقع شمالا(٤٦).

أما الشطوط والكثبان الرملية فهى "*تكاد تتعامد فى اتجاهاتها على محاور جسور فروع النيل القديمة وكثيرا ما تمتد متقاطعة مع هذه الجسور وقد تضامنت معها في الإحاطة بالخلجان والمنخفضات وفي فصلها عن البحر ولولا هذه الحواجز أو الشطوط الساحلية لظلت هذه الأحواض على حالتها الخليجية البحرية*"(٤٧)، كما أدى تقاطع هذه الحواجز مع جسور النيل القديمة إلى تقسيم منخفض كل بحيرة إلى عدد من الأحواض المتجاورة ولكن هذه الحواجز بسبب قلة ارتفاعها وبفضل الفتحات التي تبطنها لم تفصل هذه المنخفضات تماما عن البحر. وقد كانت بحيرة أبو قير تظهر لعدم وجود هذه الحواجز على شكل خليج داخلي متصل لخليج أبو قير ولم تكتسب صفة البحيرة الا بعد إنشاء الحائط الذي يفصل حوضها الحالي عن البحر(٤٨).

١-٦-١ هبوط ساحل الدلتا الشمالي واثره في تكويـــــن البحيرات :

تعرض الساحل الشمالي خلال العصور التاريخية إلى حركة هبوط بدأت في الظهور على الأرجح في الفترة السابقة للفتح العربي وظهرت نتائجها واضحة في اواخر العصر الروماني وأوائل العصر العربي. وتعتبر هذه الحركة مشابهة لحركات الهبوط التي تميزت بها العصور الجيولوجية والأركيولوجية ولكن على نطاق أصغر. واذ تعددت النظريات لتفسير هذه الظاهرة، نجد أن نظرية هبوط الأرض نتيجة لثقل الضاغط لرواسب النيل المتراكمة عبر العصور، والمقدر معدل تراكمها بنحو ١٠ سم كل قرن هى الأرجح(٤٩).

وقد اختلفت الآراء حول تأثير هذا الهبوط على بحيرات شمال الدلتا فنجد مثلا العديد من الجغرافيين العرب والمؤرخين أمثال المقريزي يرجعون نشأة بحيرة المنزلة إلى هذا الهبوط. بينما من الثابت تاريخيا أن البحيرات كانت موجودة في القديم.ويقول دكتور جمال حمدان في هذا الصدد "*بل آن لنا إذ نرقى إلى مرحلة موغلة في القدم أكثر، أن نفترض أن البحيرات كانت خلجان من البحر مفتوحة تماما وربما جاز ان نتساءل عما اذا كان بعضها متصلا بالبعض الآخر مباشرة في خليج واحد أو بحيرة مشتركة خاصة منها مريوط وإدكو والبرلس*" (٥٠).

ونعتقد من جانبنا -أن هبوط مستوى شمال الدلتا- إن لم يكن قد أدى إلى تكوين البحيرات فقد ساهم في توسيع مساحتها . أما محمد محمود الصياد فيرى أن حركة الهبوط التاريخيةأدت إلى "*طغيان المياه البحرية على الأراضى الزراعية وعلى المستنقعات والبحيرات التي كانت في طريقها إلى التجفيف وبذلك أخذت هذه المناطق تعود إلى حالتها البحرية*"(٥١).

وسوف نعود لتلك النقطة مرة أخرى في معرض الحديث عن إندثار التجمعات العمرانية في شمال الدلتا وسوف نتطرق الآن لكل بحيرة من تلك البحيرات على حدة بادئين من الشرق ببحيرة المنزلة ثم البرلس وادكووابو قير ومريوط في الغرب.

١-٦-٢ بحيرة المنزلة وعلاقتها بفروع النيل القديمة:

ارتبطت في تكوينها بالمجاري الدنيا الرئيسية والثانوية للأفرع الآتية: البيلوزي والتانيسي والمنديسي والفاتيمتي، فالمجرى الأول كان يجري مخترقا سهل الطينة حتى ينتهي إلى البحر على بعد نحو ٧ كيلومترات شمال شرق "الفرما" محددا السواحل الشمالية الشرقية للبحيرة(٥٢).

أما المجرى الأدني للفرع التانيسي فكان يجري مخترقا منطقة المنزلة من "تانيس" حتى يصل إلى شواطىء البحيرة الحالية على بعد ١٠ كيلومترات جنوب "المطرية" ثم يجتاز حوض البحيرة الشرقي مارا بالقرب من "تانيس" ويصب في البحر المتوسط غرب موقع "بور سعيد" بقليل(٥٣).

وكان الفرع المنديسي الأدني يجتاز البحيرة متجها نحو الشمال الشرقي ليصب في البحر المتوسط عند بوغاز او اشتوم الديها كما كان بعض فروع المنديسي الثانوية تصب عند "اشتوم الجميل" على بعد ١١كم غرب "بور سعيد" (٥٤).

أما المجرى الأدني للفرع الفاتيمتي فيعد من أقوى العوامل في تكوين حوض البحيرة الغربي كما كان له أكبر الأثر في تكوين الشطوط الرملية في شمال غرب البحيرة(٥٥).

بالنسبة للتجمعات العمرانية التى نشأت على ضفاف بحيرة المنزلة، فقد سبق أن أشرنا إلى تلك المدن في معرض الحديث عن أفرع النيل، وبعض هذه المدن يرجع إلى الحقبة الفرعونية مثل مدينة "**بيلوز**" وهى من أهم الثغور المصرية قاطبة قبل نشأة "الإسكندرية" على الساحل ، وهى مدخل مصر الشرقي، مدينة "**تانيس**" عاصمة مصر في الدولة الحديثة، مدينة "**تنيس**" التي إشتهرت بصناعة وتجارة المنسوجات الدقيقة، ومن المدن الأخرى التي ظهرت في عهود لاحقة مدن "**المنزلة**" و"**دمياط**" و"**شطا**" التي اشتهرت" *بعمل الثياب الشطاوية وتطريز ستائر الكعبة، وإلى جانب تلك المدن ثمة "تونة" و"دميرة "ودبيق" وكلها من مدن النسيج والمنسوجات الممتازة* "(٥٦).

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

البحيرات وعلاقتها بأفرع النيل في العصر الفرعوني

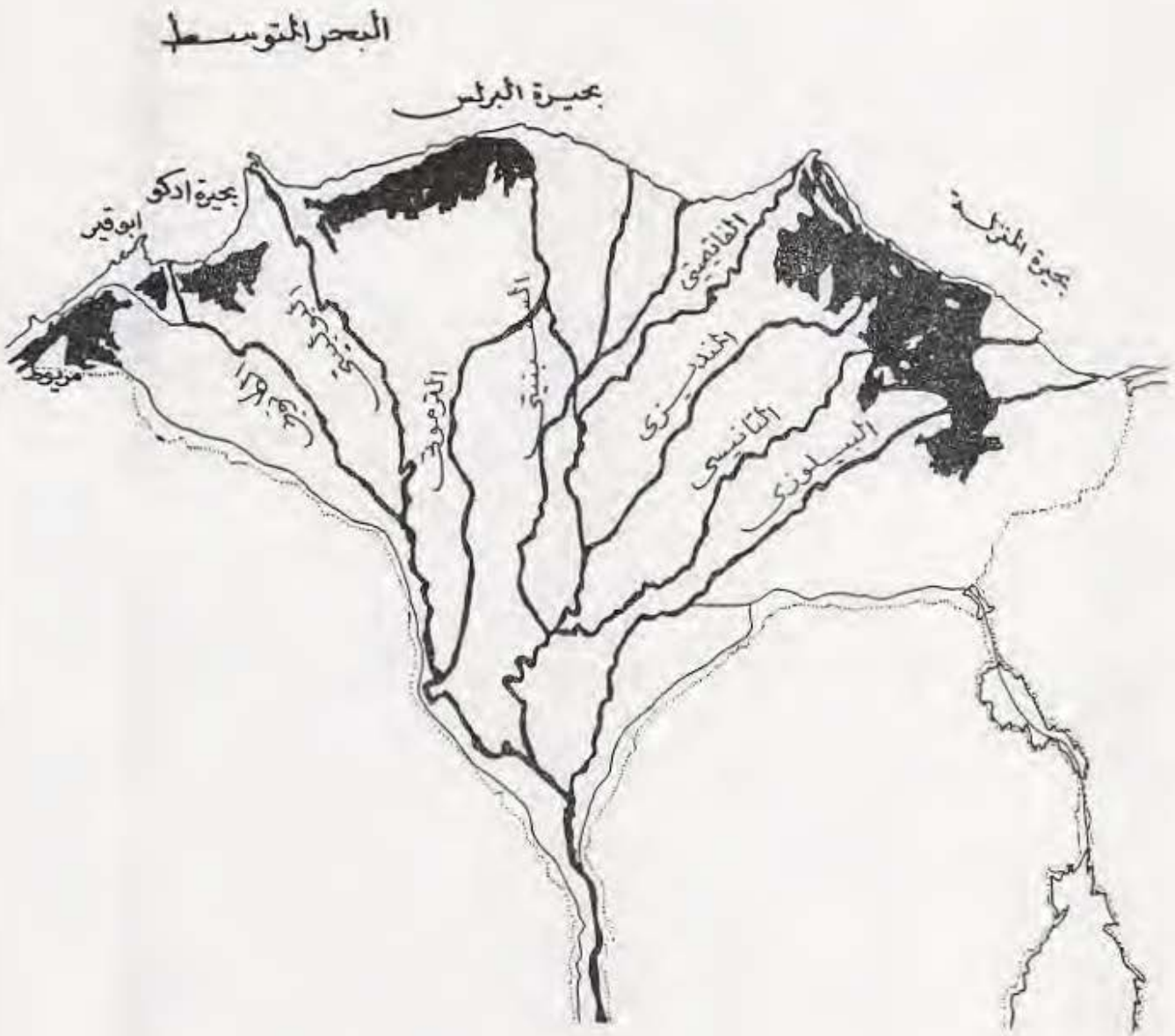

شكل رقم (١-١٣)

N

٠ ١٠ ٢٣ ٣٦ ٤٦ ٥٦٩ كم

معهد التخطيط الاقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للابحاث العلمية
والتعاون
O.R.S.T.O.M

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

أهم المدن حول بحيرة المنزلة

شكل رقم (١-١٤)

N

٠ ٤ ٨ ١٢ ١٦ ٢٠ كم

معهد التخطيط الاقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للبحوث العلمية
والتعاون
O.R.S.T.O.M

١-٦-٣ بحيرة البرلس وعلاقتها بفروع النيل القديمة

تأثر تكوين بحيرة البرلس بالمجرى الأدني للفرع السبنيتي وتفرعاته في مجراه الأدنى. ويظهر أن هذا الفرع في مجراه الأدني قد تشعب إلى عدة فروع تفرعت بدورها إلى أفرع أخرى (٥٧). هذا وقد أشار بطليموس الجغرافي إلى وجود مصب صناعي في موضع "أشتوم جمصة" الحالي، وهو ربما يكون مصبا لفرع صغير حديث النشأة كان يجري متتبعا مجرى بحري إلى البحر(٥٨).

١-٦-٣-١- التجمعات العمرانية التى نشأت على ضفاف بحيرة البرلس:

تقول أسطورة خلق العالم، التي كان يعتنقها قدماء المصريين، ويتخذون منها عقيدة راسخة، " إن *أصل المخلوقات انبعث من مستنقع عظيم أسموه (نون)- أي المختفي الذي لايرى - وأن بذرة الخليقة قد قامت على سطح (نون) على شكل صغير جدا غير منتظم، ليس له حجم معروف ولا أوصاف معلومة كأنها نقطة في لجة المحيط، ولذلك أسموها بالعدم*".

"*ومن هذا المستنقع الأزلي المبارك (بحيرة البرلس فيما بعد) أنبت نون زهرة اللوتس، ومنها خرج الإله الأعظم (اتوم) أو (تم) ومعناه الكامل*"(٥٩).وبعد، "*فما كفر الكهنة، وقد عرفوا البرلس منشأ المدينة المصرية ومهد العمران الأول، إلا أن يجعلوه أيضا منشأ الخليقة أو مبعث الكائنات ومهد الآلهة قبل أن يضع سرها في بني البشر*"(٦٠) ويقال في الأسطورة الدينية الخاصة بقصة أوزوريس وأخيه ست والإلهة إيزيس، أن ست عندما قتل أخية أوزوريس، ألقى بالصندوق الذي كان يحوى جثته في مستنقعات بوتو "البرلس"(٦١).

تلك البحيرة قديمة إذن قدم التاريخ - ومنبع المدينة المصرية فقد التقت على ضفافها الشعوب القادمة من الشرق والغرب والبحر فاستوطنوا شمال الدلتا وصنعوا فيها العجائب- فقد نشأت على ضفافها مدينة "أبوطو" عاصمة الدلتا قبل عصر الأسرات.

وفي البرلس أيضا كوم "الخبيزة" أو خبيت، ومنه جاءت "خبيزة" مركز كفر الشيخ، وهى أيضا Parollo الإغريق التي نشأت على ضفافها ميليسيان Mele-sians اليونانية (٦٢)، ومدينة "باحنامونيس" عاصمة الإقليم السبنيتي الأدنى التي يضعها بطليموس شرق الجزء الأدنى من الفرع الترموتي(٦٣). هذا وقد أطلق الإغريق على "خبيت" اسم "خمى" وهو اسم مصري في اللغة المصرية القديمة(٦٤).

وقد عرف إقليم بحيرة البرلس بالنستروة أيام العرب، ونشأت هناك عدة مدن صناعية مثل "دميرة" و"دبيقة" التي تعبر عنها أطلال الدوارى والنمبرى.

وبعد هبوط ساحل البحر الشمالي وزحف البراري تجاه الجنوب، حل الخراب والدمار والغرق محل العمران والمدنية، فمن التجمعات ما غرق وأصبح جزر معزولة، ومنها ما هو هجر وانتهى مثل "بوتو" ، مدينة ايزيس ومقر معبدي أبولوا وديانا في العصر الإغريقي.

١-٦-٤ بحيرات غرب الدلتا وعلاقتها بأفرع النيل القديمة:

كان يشمل هذا الإقليم ثلاث بحيرات وهى ادكو، وأبو قير، ومريوط، ومن المحتمل إنها كانت حوضا واحدا مستطيلا من الغرب إلى الشرق، وقد تأثر هذا الحوض في تكوينه في المراحل التالية بالمجرى الأدني للفرع الكانوبي (٦٥). وقد تفرعت من الفرع الكانوبي عدة أفرع أهمها الفرع البولبتيني- كما أشرنا من قبل-أما الفرع الكانوبي وفروعه الرئيسية فقد كان له أكبر الأثر في تخطيط المنخفض الأصلي وفي تقسيمهاإلى ثلاثة منخفضات أو خلجان تشمل بحيرات ادكو وابو قير وحده الفرع البولبتيني حوض بحيرة ادكو من الشرق وفصله عن حوض بحيرة البرلس، كما حده الفرع الكانوبي الأدني في القسم الأخير من مجراه بحيرة ادكو وفصله عن حوض بحيرة ابو قير.

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

أهم المدن حول بحيرة البرلس

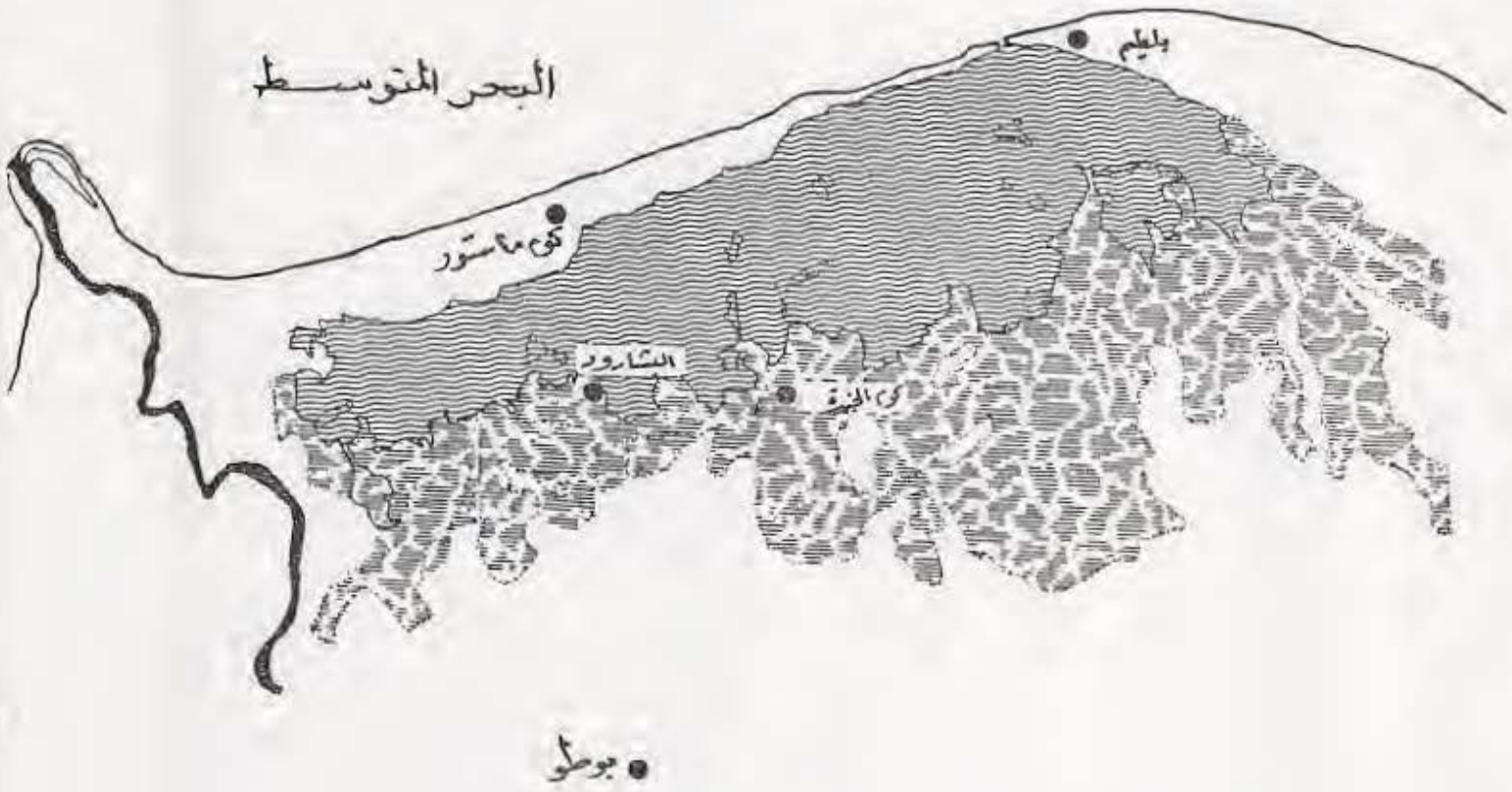

الحدود الحالية للبحيرة

الحدود القديمة للبحيرة

شكل رقم (١ - ١٥)

N

٠ ٤ ٨ ١٢ ١٦ ٢٤ كم

معهد التخطيط الاقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للأبحاث العلمية
والتعاون
O.R.S.T.O.M

١-٦-٤-١ بحيرات ادكو وابو قير:

إتسمت هاتان البحيرتان بعدم استقرار حدودهما وتغير مساحتهما فنجد أن بحيرة ادكو لم تكن ثابتة الضفاف، تجف وتفيض حسب عوامل الطبيعة فضلا عما حدث في القشرة الأرضية من ارتفاع هنا وانخفاض هناك على أثر الزلازل. لهذا "نجد أن بحيرة ادكو كانت تترامي أطرافها غربا خاصة كلما فاضت مياه البحيرة فتجد لنفسها متسعا في بحيرة مجاورة هي بحيرة أبو قير نظرا لإنخفاض منسوب المنطقة الغربية عنها في المنطقة الشرقية، وأحيانا كانت مياه هذه المسطحات المائية تجف تدريجيا مع حرارة الشمس مع انقطاع المد المائي فتخلف وراءها بحيرات صغيرة ومستنقعات(٦٦).

ولعل أقوى العوامل التي أثرت في تكوين بحيرة ابو قير هو ان إنكسار سد ابو قير أمام طغيان مياه البحر عند ارتداد العواصف فتجرف أمامها كل شيء حتي تغمر منطقة تقع بين بحيرتى ادكو ومريوط هى بحيرة ابو قير أو كما سماها الرحالة بحيرة السد أو بحيرة المعدية. ومما يدل على عدم ثبات استمرارية هذه البحيرة وتغير معالمها بصفة دائمة، ان بعض الرحالة رسموها في خرائطهم بينما البعض الآخر لم يذكر عنها شيئا تبعا لفترة تواجدهم بالمنطقة. فقد رسمها كل من اروين IRWIN عام ١٧٧٧ ونيبور-NE BUHRعام ١٧٨٠م بينما لم يذكرها كل من بول فورلاني FOURLANI عام ١٥٦٦ودانفيل D'ANVILLE عام ١٧٦٥م، وقد ظلت هذه البحيرة على تلك الحال من عدم الإستقرار حتي جفت عام ١٧٩١م ولم تتكون بعد ذلك إلا لفترة صغيرة عند ضرب الإنجليز لسد ابو قير عام ١٨٠٧ بعد موقعة رشيد وتم تجفيفها نهائيا بعد ذلك.

وكانت بحيرة أبو قير المندثرة تتصل بالبحر عن طريق بوغاز يشغل على وجه التقريب نفس موضع الفتحة (أو المصب) الكانوبية القديمة وقد أطلق عليها بحيرة المعدية لأن المياه الموجودة في بوغازها تعبر "أي تعدى" الطريق بين "الإسكندرية" و"رشيد"(٦٧).

---

* هذه الواقعة هى رد على وجهة نظرReynier فى تكوين بحيرة إدكو التى تعرضت هى الأخرى لفتح ترعة ديروط بأمر من الجنرال مينو.

وعلى عكس بحيرة ابو قير، فإن بوغاز أو فتحة بحيرة ادكو حديثة النشأة ففي عام ١٨٠٠م أمر الفرنسيون بفتح جسور ديروط وجسر ابو جاموس، ولما كان الفيضان وفيرا هذا العام ارتفعت مياه البحيرة فوق مستوى سطح البحر فشقت لها فتحة إلى البحر بإتساع بلغ ١٥٠ مترا بعمق قدره ٣ إلى ٤ أمتار بالقرب من وكالة أو نزل كان الفرنسيون يشيرون إليه باسم "البيت المربع"(٦٨).

هذا ولم يرد ذكر بحيرة إدكو في كتابات الجغرافيين والمؤرخين القدامى أمثال هيرودوت وسترابو وبطليموس. ربما بسبب التغييرات التي طرأت على هذه المنطقة. أما بحيرة ابو قير فتجاهلها من قبل العديد من الرحالة أو الجغرافيين ويرجع سبب ذلك إلى أن الكثير كانو يعتبرونها جزءا من بحيرة مريوط أو امتدادا تجاه الشرق.

١-٦-٤-٢ التجمعات العمرانية حول بحيرتي ادكو وأبو قير:

لم تنشأ تجمعات عمرانية هامة على ضفاف البحيرتين نتيجة لعدم ثبات حدودهما ومسطحاتهما، ولذلك فيمكن اعتبارهما أقل عمرانا وحضارة من بحيرات شرق الدلتا وبحيرة مريوط المنفردة في غربها فإذا تركنا بحيرة أبو قير التي يمكن اعتبارها جزءا من بحيرة مريوط، نجد أن المنطقة المحيطة ببحيرة إدكو في الماضي كانت منطقة عالية الخصوبة يعيش أهلها على الزراعة وصيد السمك من البحيرة. وأهم التجمعات العمرانية التي نشأت حولها هى "إدكو" أو "إتكو" أو "تاج"، وكانت في العصر الفرعوني مختصة بعبادة الإلهة هاتور. كما أن هناك بعض التجمعات التي ترجع إلى العصر البطلمي مثل ما يطلق عليه "الدار الحمراء" في الشمال الشرقي من قرية إدكو(٦٩). كذلك يوجد العديد من الأكوام أو التلال التي لم يتم التنقيب فيها إلى الآن وربما نقصت أعدادها واندثرت بدورها فمحت كذلك إلى الأبد الخيط الذي كان يمكن أن يقود إلى إلقاء الضوء على الحياة العمرانية حول بحيرة ادكو في العصور المختلفة فما زال تاريخ هذه المنطقة يكتنفه الغموض.

١-٦-٥ بحيرة مريوط وعلاقتها بأفرع النيل القديمة

لم يكن اتصال بحيرة مريوط بالنيل عن طريق الفرع الكانوبي ولكن عن طريق ترعة أو أكثر تتفرع منه وقد كانت شواطىء بحيرة مريوط ملبئة بالموانى البحرية والقرى الخصبة العامرة، والبحيرة بحق هى حلقة الإتصال بين بعضها البعض وبينها وبين "الإسكندرية" بواسطة السفن مثلها مثل بحيرة البرلس كانت بحيرة مريوط إذن مركزا لتجمع حضري ازدهر بشكل خاص في العصر البطلمي. وكانت تضم كما يذكر سترابون ثماني جزر، كما كانت تغطي شطئانها بالمساكن الفخمة(٧٠).

١-٦-٥-١ التجمعات العمرانية على ضفاف بحيرة مريوط

تتبين فى هذه المنطقة ثلاثة من المدن الهامة هى على التوالي مدينة "ماريا" ومدينة "تابوزيوس" ومدينة "فوموتيس".

ـ مدينة " ماريا " او " مريوط " Mareotis

يبدو أن هذه المدينة قد سمى باسمها إقليم مريوط والبحيرة أيضا(٧١). وهى عبارة عن مدينة عريقة في القدم فقد ذكرها هيرودوت في كتاباته وتحدث عنها العرب فوصفوها بأنها مدينة كبيرة تقع بالقرب من "الإسكندرية" فأطلال تلك المدينة تبلغ حوالي ١.٥ كيلومتر طولا و٨٠٠م عرضا.

ولا تزال ترى حتي اليوم بقايا مبان عظيمة مما يدل على أنها كانت مدينة كبيرة، كما يوجد بها آثار الأرصفة والأحواض التي تطل على بحيرة مريوط مما يشير إلى أهمية المدينة لإعتبارها ميناء تجاري. كما يرى بها آثار أسوار تحصينات قديمة مما يجعلها مفتاح مصر من ناحية الغرب كما اعتبرنا "بيلوز" هى مفتاح مصر من الشرق*.

ـ *لقد تعرضت مدينة "ماريا" لعديد من الغزوات بهدف فتح مدينة "الإسكندرية" لذلك تعتبر ماريا مفتاح مصر من الغرب، ومن تلك الغزوات على سبيل المثال:

أ) دخول يوليوس قيصر وإتصاله بجيش ميثريداتيس.

ب) دخول عمر بن العاص الإسكندرية مرورا بمدينة ماريا.

جـ) دخول نابليون الأول الإسكندرية سالكا نفس طريق يوليوس قيصر.

مدينة "تابوزيوس" Taposoris

إن أطلال تلك المدينة هى بلاشك الأطلال التي ترى الآن قرب "برج العرب" من الجانب الجنوبي الشرقي والتي تسمى حاليا "أبو صير".

مدينة "فوموتيس " Phomotis

توجد تلك المدينة على مسافة ١٦ كم جنوب غرب "أبو صير" وعلى بعد نحو ٣٠ كم من أطلال مدينة "ماريا" ونحو ٤٢كم من قصر سعيد باشا.

وتجدر الإشارة إلى وجود عدد آخر من المدن أقل أهمية من المدن الثلاثة السابقة مثل المدينة -القرية -السر- والكوم. وفي هذا المجال فإن جراتين لبير Gratien Le Père يذكر في كتاب "وصف مصر" أن قسما من هذه المديرية - يقصد بها أرض مريوط- في القرون الأولى للمسيحية وتحت حكم أباطرة القسطنطينيين، كان يسكنها المسيحيين الذين هربوا من الإضطهاد وكان وادي مريوط عامرا بهم(٧٢).

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

أهم المدن حول بحيرتي أدكو ومريوط

الحدود الحالية للبحيرة

الحدود القديمة للبحيرة

شكل رقم (١-١٦)

N

٠ ٤ ٨ ١٢ ١٦ ٢٤ كم

معهد التخطيط الإقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للأبحاث العلمية
والتعاون
O.R.S.T.O.M

ا ـ ٧ نشأة البوارى فى الدلتا *

"أما عن البراري فكل الأدلة التاريخية تقريبا ابتداء من هيرودوت إلى النقوش الفرعونية تجمع على أن شمال الدلتا عرف بالمستنقعات والبرك وشمل البراري والفيافي دائما بصورة أو بأخرى وإلى حد أو آخر، وقد يختلف عمق هذا الحد أو تتفاوت حدة هذا الوضع، ولكن توجد نواه صلبة باقية من المستنقعات في مكان ما في أقصى الشمال، وتلك على أية حال طبيعة الأشياء في مصبات الأنهار الرسوبية، خاصة في مراحل حداثتها الأولى نسبيا.

وحوالي بدايات التاريخ المصري، ٤٠٠٠ - ٣٠٠٠ ق.م.، يقدر بوتزر امتداد نطاق المستنقعات جنوبا. بما يتفق وخط كنتور ٣ متر الحالي، وعلى أساس أن تقهقر وتراجع البحر المتوسط الحديث وصل الى أدني مستوي له حوالي ٥٠٠ ق.م.، نجده يفسر تحمير واستعمار شمال الدلتا في عصر الأسرات والبطالسة على اعتبار أنه استجابة طبيعية للتصريف الطبيعي للمستنقعات، والإمتداد الشمالي للنيابس(٧٣).

وكذلك يلاحظ ويلسون أن معظم "Nomes" نومات الدلتا الفرعونية كانت تقع فوق خط كنتور ٦متر، أى في الأرض العالية الجافة، بينما كانت الإستثناءات القليلة الواقعة أسفل أو شمال هذا الخط تحمل أسماء تدل على البيئة المائية أو الرطبة، "كجزيرة المستنقعات"، أو "جزيرة الرمل" ويبدو أنها كانت ترتبط بطرادات النيل أو بظهور السلحفاة (٧٤) ، وعدا ذلك فلقد كان النطاق الشمالي من الدلتا المتاخم للبحر يسمى في الماضي القديم باسم ايلبارشيا El-earchia وذلك نسبة إلى المستنقعات الشاسعة التي كانت تغطيه وكـــانت البرلس Parulus (Paralou الإغريقية) هى التسمية التى تلت إيلبارشيا (٧٥).

كذلك ترى "سمبل" Semple أن شمال الدلتا كان دائما محدود الخصوبة خاصة النطاق الساحلي المنخفض حيث يصعد الماء الباطني المالح إلى السطح بواسطة الجاذبية الشعرية، حيث الصرف الطبيعي صعب والرمال تسد المصاب وأفواه الترع (٧٦).

من الناحية الأخرى، لا سبيل إلى الشك عند البعض فى أن كل نطاق شمال الدلتا كان منذ فجر التاريخ أرضا عامرة تزرع إلى سيف البحر ذاته وتخضع لنفس نظام رى الحياض السائد جنوبها كما يحدد أودينو، وكانتوزيع المياه فيها أثناء الفيضان يتم عن طريق فروع النهر، وكان يحف بهذه الفروع أراضي ضفاف عالية لا تلبث أن تنخفض كلما ابتعدت عنها (٧٧).

أو كما يقول ويلكوكس وكريج، فإنه حسب الروايات المحلية، التي يزيدها وجود ترع صيفية فرعونية، كانت أجزاء من المنطقة تغطي بحدائق الكروم في حين كانت بقيتها مقسمة إلى أحواض هائلة كل منها مساحته ٥٠٠,٠٠٠ فدان ومزروعة بالقمح، بينما كان السكان على درجة عظيمة من الكثافة، وفي أيام البطالسة والرومان أيضا كانت منطقة البراري بأكملها تزرع، بينما عرفت المنطقة المتاخمة للبحيرات في المراحل التالية (المربية بالطبع) باسم "أرض الزعفران" كناية عن الخصب والعطاء" (٧٨).

ا ـ ٧ ـ ا هل تكونت البوارى دفعة واحدة أم على دفعات ؟

يفهم من المصادر التاريخية أنه كانت هناك أكثر من ضربة واحدة فى مأساة البراري، توسعت في كل منها بقدر أو بآخر، والثابت أن هذه العملية استمرت حتى القرن الثالث عشر الميلادي، وقد تكون بدأت في الشرق ثم تتابعت حلقاتها نحو الغرب أو العكس، هناك إذن عدة مراحل. وحتى بعد هذا فقد ظلت البراري تزحف إلى الجنوب ببطء ولكن بإطراد نتيجة للعجز عن مقاومة هذا الزحف نفسه والإخلاء المستمر للمناطق المنكوبة ثم الإهمال اللاحق الذي زاد من مضاعفات فساد التربة وبوارها، فالعملية إذن ما إن بدأت حتى اكتسبت قوة التوسع الذاتي والإندفاع الآلي تلقائيا.

ومع ذلك ينبغي أن نسجل استثناءا جوهريا وحيويا، فمن فراغ البور الغامر، نستثني ثلاث تويات عامرة ظلت دائما وأبدا صامدة مزروعة معمورة طوال العصور الوسطى وإلى الحملة الفرنسية ثم العصر الحديث دون أدنى انقطاع. تلك الثلاثية هى مناطق البرلـــس

---

* إقتبسنا هذا الجزء بالكامل من كتاب جمال حمدان، شخصية مصر، دراسة فى عبقرية المكان. ـ الجزء الأول

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

مناطق اليراري في الدلتا

البحر المتوسط

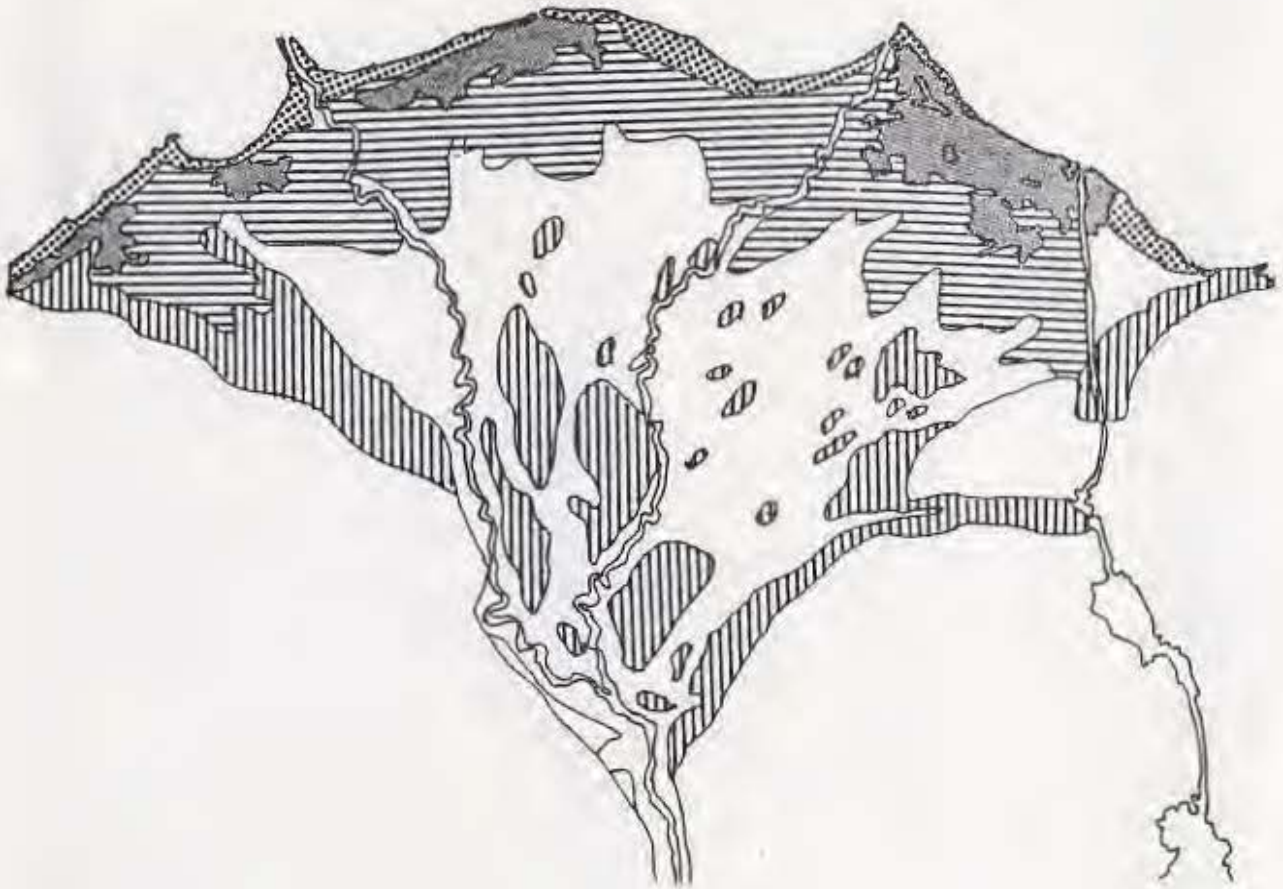

الرمال الساحلية

اليراري

تحت مستوى سطح البحر قبل ٤٠٠٠ ق.م.

أراضي تغمر أثناء الفيضان

شكل رقم (١ - ١٧)

N

٦٩ كم ٤٦ ص ٢٣ ١٢ ١٥

معهد التخطيط الاقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للابحاث العلمية
والتعاون
O.R.S.T.O.M

شمال البحيرة، ثم دمياط ورشيد على نهايتي الفرعين، الأولى جزيرة صغيرة منفصلة تماما فى أقصى شمال الدلتا، والآخريان شبها جزيرتين جليلتا الحجم تخرجان على إمتداد أدنى الفرعين كذراعين بارزتين من كتلة العمور المتبقية في الجنوب ومتصلتين بها جيدا، وثلاثتها- سيلاحظ بالمناسبة- أكثف وأعظم غابات النخيل في أى مكان في شمال الدلتا. فأما منطقة البرلس وبلطيم، أقصى شمال مصر، وأمطر بقعة فيها، فقد ظلت مزروعة ومسكونة طوال التاريخ بفضل اعتمادها على المطر المختزن في كثبانها الرملية وإن كان فصليا، أى أنها كانت مستقلة عن رى النهر وبالتالي نجت من كارثة البراري وأفلتت من دائرة البور. ولقد كانت المنطقة دائما نواة لكورة من كورات مصر، كورة البرلس أو النستراوية أو البشاورد، نسبة إلى نستروه أو البشمور اسم بحيرة البرلس اذ ذاك، وكانت عاصمة الكورة تتناوبها " البرلس" و"بلطيم" و"نستروة" والأخيرة هى "كوم مسطورة" الحالية على اللسان الأرضي بين البحيرة والبحر. أما عن منطقتي دمياط ورشيد، فهاتان دائما ببقائهما واستمرارهما لكونهما استمرار لفرعي الدلتا بالطبع، ومن ثم لإتصالهما بهما ماديا على الدوام، ريا وملاحة مما أدى إلى تمتع المنطقتان بالرى الدائم وكانتا على الدوام بؤرتين من الزراعة الكثيفة، وبفضل هاتين النواتين العمرانيتين مدينتي "دمياط" و"رشيد"، عاشتا وهما ميناءا مصر الأوليان ومدخلاها الرئيسيان طوال العصور الوسطى وحتى الحديثة بلا إنقطاع.

وفيما عدا هذه النويات الثلاث إذن ظلت البراري خلال وطوال العصور الوسطى تزحف على الأطراف كبقعة الزيت وتتوسع متمددة نحو الجنوب(٧٩).

١ ـ ٨ ترعة الإسكندرية القديمة

لم يكن من الممكن أن تزدهر مدينة كبرى "كالإسكندرية"، وتظل أهم مدن حوض البحر المتوسط بدون أن تغطي إحتياجاتها من المياه العذبة . وبالتالي فقد تم حفر ترعة الإسكندرية(٨٠) عقب تأسيس المدينة، وأصبحت تسمى بالنهر نظرا لأهميتها كمصدر أساسي للمياه وكشريان مجاري يربط المدينة بداخل البلاد.

أما المسار الكلاسيكي لهذه الترعة، فقد أمكن معرفته عن طريق الشهادات الموضوعية لسترابو:

" إن المرء عند خروجه من "الإسكندرية" عند باب كانوب، كان يجد على يمينه ترعة تحمل هذا الإسم توازي شاطىء البحر، وعلى مسافة قريبة منه ، هذه الترعة كانت تحصل على مياه النيل عن طريق ترعة ترفد عن الفرع الكانوبي بالقرب من "شديا" وعلى مسافة قصيرة من فم النيل"(٨١).

كانت ترعة الإسكندرية إذن تتفرع من الفرع الكانوبي عند مدينة "شديا" "النشو البحري" ثم تتجه إلى الغرب بموازاة الساحل حتي تصل إلى "الإسكندرية"، هذا وقد أدى ازدياد إحتياج الإسكندرية من المياه العذبة إلى حفر ترعة أخرى قرب مصب الفرع الكانوبي لتغذية ترعة الإسكندرية بالمياه. وقد مرت ترعة الإسكندرية بتغيرات متعددة نتيجة لإنطماس الفرع الكانوبي، فنجد أنه *"لما ابتلع الفرع البولبيتني، شيئا فشيئا، الجزء العلوى من الفرع الكانوبي من زاوية البحر إلى رأس الدلتا ليكون فرع رشيد الحالي انحط بالتدريج الجزء السفلي من الفرع الكانوبي من زاوية البحر إلى خليج أبي قير حتى صار ترعة لاغير، وقد تم هذا الإنقلاب بالتدريج وزال واختفى هذا الفرع من الوجود في القرن الخامس الميلادي"(٨٢).*

وبالتالي فقد أصبح الجزء الممتد من "زاوية البحر" إلى "الكريون" ترعة يتفرع منها فرعان: أولهما يشغل مجرى الفرع الكانوبي القديم (الترعة الكانوبية الآن) يذهب إلى خليج أبو قير والثاني يبدأ من "شديا" ويذهب إلى "الإسكندرية" وهو خليج الإسكندرية (٨٣). وقد اختفى الفرع الكانوبي القديم قبل الفتح الإسلامي، أما الفرع المتجه إلى الإسكندرية والذي كان يمونها بالمياه فقد ظل موضع عناية كبرى حتى عصر الملك الأشرف ثم أهمل شأنه بعد ذلك.

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري

مدن الدلتا

تغير مأخذ ترعة المحمودية

(ترعة الاسكندرية)

شكل رقم (١-١٨)

N

١٧١ كم ١١٤ ٥٧ ٢٨ صفر

معهد التخطيط الإقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للبحوث العلمية والتعاون
O.R.S.T.O.M

هذا، وقد تغير مأخذ الترعة من الفرع الرشيدي (الفرع البولبتيني) مرارا وتكرارا، خاصة في جزئها الأعلى أى الواقع بين "زاوية البحر" و"الكريون" متحركا من "زاوية البحر" جنوبا إلى "العطف" شمالا مارا بـ"الرحمانية" و"أبو منجوج"(٨٤)، أما في جزئها الأدنى، أى مسار ترعة شديا القديمة فقد ظل ثابتا تجري فيه المياه، يهمل في بعض الفترات ثم يعاد حفره وتنظيفه في فترات لاحقة حتى عام ١٤٢٢م حيث "*إمتلأ بالرمل وتندر سلوك الخليج بالمراكب إلا في أيام النيل فقط*"(٨٥)، إلى أن جاء عصر محمد علي، فأمر بحفر ترعة المحمودية الحالية وجعلها تبدأ من "العطف" وتقابل في جزئها الأوسط القسم الأوسط من ترعة الإسكندرية الممتد من "كفر الحمايدة" إلى "الكريون"- في جزئها الأدنى- موضع ترعة شديا القديمة برمتها عدا موضعين (٨٦).

١-٨-١ المدن الواقعة على ترعة الإسكندرية القديمة:

في الزمن الماضي كانت ضفتا الترعة عامرة بالعمائر والبساتين من "الإسكندرية" إلى "الكريون" وفي عهد الإمبراطور أغسطس كان هناك ترعة أو فرع من ترعة - المقصود بها ترعة الإسكندرية- تسير نحو ميناء كيبتوس Kibotos على شاطيء بحيرة مريوط .
ومن القرى التاريخية المحيطة بهذه الترعة:
"أرسينوى"، "برينيس"، قرية "السوريين"، قرية "الإنتوخيانيين".
ومن أهم المدن التي نشأت على ترعة الإسكندرية نذكر:
أ) مدينة شيديا (النشو الجديد).
ب) الكريون.
جـ) أبو حمص.

وذلك بالإضافة إلى مدينة "نقراطيس" (نقراش حاليا) ومدينة "هيرموبوليس بارفا" (دمنهور حاليا) والتي سبق الحديث عنها.

كما يمكننا ذكر بعض التجمعات السكنية الأقل أهمية والتي تقع على نفس المسار:
١) "قراقص"، وعرفت في القرن التاسع الهجري باسم صريفا الناصري.
٢) "كنيسة اوربن"، ذكر أن اسمها المصري القديم Hourn والرومانى Orine
٣) "ابيتوك"، وعرفت في القرن التاسع الهجري باسم محلة بتوك.
٤) "أبو منجوج" وعرفت فى القرن التاسع الهجرى باسم الأمير أحمد بن عبد الملك.

١) مدينة "شيديا" او "مينلابيس"(النشو الجديد) Menelais

تقع مدينة "شيديا" عند انحراف قناة الإسكندرية، وهى حاليا "النشو الجديد" أو كيمان النشو" (فى منطقة كوم الجيزة). وترجع أهميتها لكونها ميناء نهري ووجود جمرك بها لتحصيل الضرائب على البضائع القادمة من الإسكندرية إلى مصر السفلى والعكس(٨٧). وترجع هذه المدينة إلى العصور الفرعونية فهى في الأصل ﻫ -و-نيت الفرعونية حيث كان يوجد أيضا مرفأ جمركيا(٨٨). وقد لوحظ أن مصيرها ظل مرتبطا بوجود قناة الإسكندرية.
ويمكن مقارنة مدينة "شيديا" قديما بالإسماعيلية الحالية من حيث الدور الذي لعبته بما أنها كانت واقعة على قناة تربطها "بكانوب" وقد ازدادت أهميتها في فترة "اللاجيد" La-gides في العصر البطلمي، واحتفظت بتلك الأهمية في العصر البيزنطي.
وتعتبر مدينة "شيديا"، من أهم التجمعات الحضرية التي تكلم عنها المؤرخون، فيقول سترابو:"اذا خرج الإنسان من "الإسكندرية" عن طريق الباب الكانوبي فإنه يجد إلى يمينه الترعة التي تتجه نحو "كانوب" ممتدة على حافة البحيرة ،ويذهب الإنسان على هذه الترعة إلى "شيديا" متبعا الفرع الذي يمضي ليتصل بالنهر الكبير"..." بعد البوزيس بقليل إلى اليمين يوجد مصب الترعة التي توصل إلى "شيديا" وهى مكان مأهول بالناس كأنه مدينة من المدن، وتقع على مسافة ٤ شوينات Shoene* من "الإسكندرية".

---

* " ستاد" هى وحدة قياس يونانية وتساوى حوالى١٦٥ مترا.
4 shenes = 160 stadex x 165m = 26 400m.

مشروع مدن مصر ذات الشأن الحضاري

مدن الدلتا

أهم المدن على ترعة الإسكندرية

شكل رقم : (١-١٩)

N

٠ ٣٦٠ ٧٢ ١٤٤ ٢١٦ ٢٨٨ كم

معهد التخطيط الإقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للأبحاث العلمية
والتعاون
O.R.S.T.O.M

وهناك تتجمع السفن النهرية التى يستقلها المحافظون إلى البلد العليا"(٨٩) وقد اختفت مدينة شبديا بإختفاء الفرع الكانوبي وهبوط الدلتا وقد اختفت معها مقاطعة مينلايس Ménélaiteأو مليديس العربية.

ب) مدينة "الكريون" Kerioun

هى مدينة قديمة ذكرها GAUTHIER واسمها المصري القديم (كيرو Khereu) والروماني (كيريس أو كيرون أو كريونKheris,Khairon, Kheruon واللاتيني (كريوم)والقبطي (كيري أو كريKherey,Kerioun (٩٠). وقد ورد ذكرهافي الفتح الإسلامي حيث كان بها آخر حصن روماني قبل "الإسكندرية" في زحف عمرو بن العاص عليها سنة ٢٠هـ/٦٤١م. ووصفها ابن حوقل ٣٦٧هـ في كتابه "المسالك والممالك" فقال*"أنها مدينة عظيمة جميلة على ضفتي ترعة الإسكندرية وكان التجار يركبون منها القوارب إلى "الفسطاط" صيفا في وقت الفيضان"*. وهى الآن تحمل نفس الأسم "كريون" بالقرب من قرية معمل الزجاج "بكفر الدوار".

جـ) مدينة أبو حمص Abou homos

تقع مدينة "أبو حمص" على أطلال مدينة قديمة هى "شابرياس" Chabrias التى ذكرها سترابو فى طريقه من "الإسكندرية" إلى "منف" بعد "شيديا" وإسمها القديم قرية "شابريا" Chabriu Come وقد عرفها العرب باسم"شبربار".

١ ـ ٩ خلاصة الجزء الأول

يتبين من السرد السابق أن العوامل الطبيعية كانت لها اليد الطولى في صياغة وجه العمران بدلتا مصر. فقد لعب النهر بتشعباته في سبعة أفرع رئيسية والتقائه مع البحيرات قبل أن يصب في البحر دورا حيويا في نشأة ونمو وازدهار التجمعات العمرانية والبشرية سواء تلك التي تمركزت على طول الأفرع أو على ضفاف البحيرات أو عند المصبات ومما لا شك فيه أن اندثار بعض هذه التجمعات وتدهور البعض الآخر مرتبط أيضا بعوامل طبيعية لها علاقة وثيقة بجدلية العلاقات داخل المنظومة الثلاثية للبحر والنهر والبحيرات.

١-٩-١ التغيرات الجيومورفولوجية وأثرها على تدهور واندثار التجمعات العمرانية

حدثت عدة تغيرات في منطقة الدلتا بدءا من القرن السادس الميلادي، بعضها طبيعي والآخر من جراء تدخل الإنسان في محاولته للسيطرة على الطبيعة وإخضاعها لإحتياجاته. وقد أثرت هذه التغيرات سلبيا على العديد من التجمعات العمرانية الهامة القديمة التي استطاعت أن تعتمد وتحتفظ بمكانتها منذ نشأتها على الرغم من الغزوات وأعمال التدمير وترجع هذه التغيرات إلى العوامل الآتية:

- إنطمار أفرع النيل عدا فرعي دمياط ورشيد.
- هبوط ساحل البحر شمال غرب الدلتا وشرقها.
- تجفيف أجزاء من البحيرات الشمالية الغربية.

١ ـ ٩ ـ ١ ـ ١ إنطمار أفرع النيل عدا فرعى دمياط ورشيد

من الثابت تاريخيا أن أفرع النيل إنطمرت تدريجيا وأصبحت فرعين فقط هما فرعا دمياط ورشيد. وإذ إختلفت الآراء بصدد تفسير أسباب زوال هذه الأفرع القديمة (٩١)، فإن المسببات الرئيسية لهذه الظاهرة ترجع في المقام الأول إلى تعرض هذه الأفرع لطغيان الرمال السافية نتيجة لقربها من المناطق التي تتوزع فيها الرواسب الأوليجوسينية والموسينية والبلايوسينية السائبة(٩٢). كما يفسر إختفاء الأفرع الشرقية على أساس

"أن القسم الشرقي من الدلتا يتميز بموقع جغرافي يجعله قريبا من المدخل الشرقي للبلاد الذي وفدت عن طريقه معظم الغزوات التي إجتاحتها ولهذا كان يتعرض للإهمال طوال العصور التاريخية مما أدى لزيادة معدلات الأطماء في الفروع الشرقية ونمو الحشائش البرية في قيعانها حتى إرتفعت وانصرفت عنها مياه النيل" (٩٣). أما إندثار بعض الأفرع وبقاء أفرع أخرى مثل فرعى دمياط ورشيد فيرجع إلى *"تغاير معدلات الردم والإرساب في الدلتا. فإذا ما ردم أحد الفروع القديمة التي كانت تسلكها مياه النيل إلى الحد الذي يجعل قاعه أعلى من غيره من الأفرع الأخرى، فلابد أن يؤدي هذا إلى انسياب مياه هذا الفرع وطغيانها على الجسور التي كانت تحددها ثم جريانها في نهاية الأمر في الفرع الأخفض منسوبا، وغني عن الذكر أن المياه تسلك في جريانها دائما أخفض السبل وأوطاها"*(٩٤)

وقد سبق لعلماء الحملة الفرنسية الوصول إلى تلك الأسباب ذاتها أى الأطماء وتغاير معدلات الردم والإرساب إلا أنهم أرجعوا ذلك في المقام الأول إلى الإهمال . وفي هذا الصدد يقول دي بوايبه :

"ولولا تلك العناية المتضاعفة التي تنم عن إدراك حكيم والتي أولاها المصريون لرى أراضيهم وتسيير مياه النهر في الترع الكبرى لما إستطاعت فروع النيل السبعة أن تبقي صالحة وسط أراضي مصر السفلى "(٩٥). وفي ظل حكومات الفوضى التي تعاقبت على حكم مصر، منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية وحتى يومنا هذا، تضاءلت مساحة الأراضي الزراعية بدرجة كبيرة حتى لا تكاد مساحة الدلتا الجديدة أن تبلغ نصف الدلتا القديمة، فافتتاح لبعض الترع أمسى تقديره بالإضافة إلى إهمال ظل يحظى بالرعاية في عمليات تطهير الترع التي تغطي بالطين "(٩٦)..

كان من الطبيعي إذن أن يؤدي انطماء الأفرع إلى تدهور ثم إختفاء التجمعات العمرانية التي ترعرت على ضفافها وعند مصباتها، فكيف يمكن أن تستمر الحياة إذا جفت الدماء في الشرايين؟ ألم تكن تلك الفروع هى وسيلة الربط والإتصال الأساسية بين الحواضر الكبرى التي نشأت من جانب وبين العالم الخارجي وبقية أجزاء الإقليم المصري من جانب آخر؟

لقد ترك لنا علماء الحملة الفرنسية وصفا لما وجدوا عليه المحيط الأيكولوجي والعمراني لمسارات تلك الأفرع، فعلى امتداد الفرع البيلوزي القديم بدءا من قمة الدلتا تتوالى خرائب "هيليوبوليس" و "ممفيس" "وبوباسطة" والأسوار الحربة لقصر الطينة (بيلوز) تلك المدينة التي لقى فيها بومبي، أحد غرماء قيصر حتفه ضحية لخيانة بشعة *"فالعمل السماء قد نقمت على تلك المدينة فاقتصت حقوق الضيافة المقدسة"*(٩٧).

وتتوالى الخرائب والأطلال -"بوتو" على الفرع السبنيتي و " تانيس " على الفرع التانيسي- التي تشهد بقاياها بالعظمة التي كانت لها قديما حتى يبدو أنه *هناك مدينة شاسعة يرى المرء بداخلها نوعا من الفوروم Forum أو الميدان العام به شكل مستطيل وله مدخل كبير من ناحية ترى بحر مويس ومنافذ مؤدية إلى الأجزاء الجانبية. ويلاحظ فوق هذا المحور الكثير من المباني الحربة والمسلات المقلوبة والمهشمة*"(٩٨) وإلى جانب هذه الأطلال، هناك بعض المدن الحديثة التي شيدت على أنقاض المدن التاريخية في هذا الجزء الشرقي من الدلتا مثل "سمنود" (مكان سبينتوس) و"أشمون" موقع مدينة "منديس" على الفرع المنديسي - إلا أنهما لم تحتلا نفس المكانة للحاضرتين المندثرتين- وهناك أيضا "دمياط" عند مصب هذا الفرع وحلات أخرى يطول مجال الحديث عنها وما يهمنا في المقام الأول هو ما حدث غرب الدلتا.

إحلال الفرع البولبتيني محل الفرع الكانوبي

يعتبر تبدل الأدوار بين فرعى النيل في القسم الغربي من الدلتا، وما صاحبه من تغيرات على مجاري النيل الفرعية مثل قناة الإسكندرية عامل حاسم قلب الأوضاع بين ثغرى "رشيد" و"الإسكندرية"، من جانب، وأدى إلى تدهور وإختفاء العديد من المدن التجارية الهامة مثل "كانوب" و"نقراطيس" و"شديا" من جانب آخر.

بدأ إندثار الفرع الكانوبى في بداية القرن الخامس على الأقل(٩٩)، في جزئه الشمالي، -ذلك أن المؤرخين العرب لا يتحدثون عنه - فهذا الجزء الذي يمتد من "شديا "إلى "كانوب" كان يمر في منطقة فقيرة مليئة بالمستنقعات وتحوطه الكثبان الرملية، ونتيجةلإزدياد إحتياج الإسكندرية من المياه العذبة، ونظرا لتوجه المزيد من المياه إليهاعن طريق قناة ثانوية، لم يعد الفرع الكانوبي في النهاية يصب في البحر شمال "شديا" وقد

ابتلع الفرع البولبتيني جزءا من هذه المياه مما ساهم في ازدياد حجمه وأصبح الجزء الأعلى من الفرع الكانوبي مجرد قناة(..١). ثم أخذ الفرع البولبتيني الذي كان يتبع في الماضي من الفرع الكانوبي، يكبر بشكل غير ملموس على حساب هذا الفرع (الكانوبي) وإنتهى به الأمر إلى إختفائه كلية (١٠١).

أما قناة الإسكندرية، التي سبق الحديث عنها، فقد كان أمرها هو الشغل الشاغل لولاة مصر فى مختلف العصور الأسلامية(١٠٢) ولكن عندما احتبس ماء النيل عن ترعة شدّيا، انعزلت "الإسكندرية" عن النظام المائي في مصر وانتقلت الملاحة إلى فرع رشيد واستقرت فيه نحو ثلاثة قرون(١٠٣).

١-٩-١-٢ طغيان البحر على ساحل الدلتا الشمال:

تم التطرق إلى تلك الظاهرة الجيولوجية في العصر التاريخي عند الحديث عن تكوين البحيرات في شرق الدلتا (المنزلة والبرلس). ففي منطقة بحيرة المنزلة ، حيث كانت المنزلة جزءا من نطاق إمتد إلى قرابة القرن قبل الفتح العربي لا يضارعه أى نطاق آخر في مصر بإستثناء الفيوم، وذلك في مناخه وخصبه وثرائه ثم زحفت مياه البحر سنة بعد سنة وتوغلت إلى أن اكتسحت كل الأراضي المنخفضة الواطئة بلدانها وقراها تاركة فقط عدة جزر عالية بما فيه الكفاية لتنجو من الخراب وتقوم عليها بضع مدن معدودة من أهمها "تنيس" (١٠٤) و "شطا" و" بورة "و"طونة"(١٠٥).

ومثل بحيرة المنزلة، بحيرة البرلس التي بها عدد كبير من الجزر بعضها مستنقعات، ويجب البحث بينها عن جزيرة "خميس" وعن جزيرة "البو" اللتين كانتا شهيرتين في الزمن العتيق".

وفي غرب الدلتا هناك أدلة كثيرة على هبوط الأرض تحت ساحل البحر نتيجة للزلازل التي وقعت في أعوام ٩٥٦ قبل الميلاد، و٩٦٢م و١٠٣٣م و١١١٢م و١٢٠٢م و١٣٠٣م و١٣٢٤م ، وقد تحدث عنها المقريزي (١٠٦) وأكدتها معظم الدراسات(١٠٧) وخاصة دراسة دارسي(١٠٨). وقد كان أقوى الزلازل وأكثرها تأثيرا هذا الذي وقع عام ١٢٠٢م فقد قام بتهيئة المنطقة للدمار الذي اكتمل بعد الزلازل اللاحقة. وعلى أثر هبوط ساحل البحرفى غرب الدلتا إبتلعت "كانوب" حيث أثبتت الأبحاث الخاصة بالفرع الذى يحمل إسمها أن معصبه يمتد تحت مياه خليج أبو قير لمسافة ٦كم في الداخل (١٠٩)، كما أن أرصفة موانىء جزيرة فارو القديمة تقع للآن تحت منسوب سطح البحر بنحو ١٣٠ إلى ٨٣٠سم حسب أجزائها المختلفة (١١٠).

هذا وقد أثبتت أبحاث بترشيا وبوتى أن مستوى سطح مدينة "الإسكندرية" الرومانية يقع تحت مستوى سطح المدينة الحالية بحوالى ٦ أو ٧ أمتار وأنه لكى نعثر على آثار الإسكندرية البطلمية يجب أن نحفر أعمق من ذلك (١١١).

١-٩-١-٣ التجفيف الكلى أو الجزئى للبحيرات وتغيير الهيدروجرافيا

أثر إختفاء الفرع الكانوبي على مساحة البحيرات في شمال غرب الدلتا وخاصة بحيرات أبو قير وادكو ومريوط . فقد كانت هذه البحيرات تزود بالماء من خلال قنوات مشتقة من هذا الفرع. وفي العصر الحديث تأثر مستوى هذه المياه في البحيرات بتحويل رى الحياض إلى الرى الدائم وبناء سد أسوان أولا، ثم السد العالي، وقبلهما القناطر الخيرية في عصر محمد علي، فلم يعد فاقد المياه يصب فيهم كما كان الوضع في الماضى (١١٢). وفى النهاية فقد تأثرت مساحة البحيرات فى هذا الجزء من الدلتا من جراء أعمال تجفيف المستنقعات في الشمال من أجل زيادة الرقعة الزراعية وقد أدى ذلك إلى إختفاء إحدى البحيرات تماما وهى بحيرة أبو قير.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد تغيرت هيدروجرافيا الدلتا في منطقة البحيرة عما كانت عليه في الماضي نتيجة لشق ترع جديدة (المحمودية- الخطاطبة)(١١٣).

لم تعد الدلتا إذن هذا المثلث الذي يغمر بالمياه أثناء الفيضان حيث تظهر المدن كجزر معزولة حتى ليشعر المرء أنه في بحر أيجة كما وصفها هيرودوت في العصور السابقة.

ليس هناك تعبير أبلغ من تعبير أ. جومار في وصفه للتغيرات التي حلت بالدلتا حتى عام ١٧٩٨م (١١٤):

"وجدير بالذكر، إنه لا شيء في مصر قد تغير بأكثر مما تغيرت حالتها البحرية، فحيث ظلت مصر تتعرض لكل مقادير الحروب ولغزوات القراصنة فقد خربت السواحل وتهدمت المدن وخوت على عروشها البيوت، بل إن الطبيعة التي نراها منبسطة ثابتة في

كل مكان، فقد تعرضت في مصر، هي الأخرى لتحورات هائلة، فهناك، حيث كان النيل يصل قديما، توغلت الرمال وأعقبت المياه الملحة المياه العذبة وإتسع الشط عن طريق ترسيبات سنوية يقوم بها النهر، وتغيرت مصبات النيل أكثر مما تغير شيء آخر، ففي حين انطمست بعض هذه المصبات فقد زاد حجم أخريات منها. وإذ كفت مياه النيل عن التدفق من خلال الأوليات، فقد طغى البحر وأدى إندفاع مياهه إلى نشأة بحيرات واسعة من المياه المرة، وإذ ظل النيل يحمل عن طريق الفتحات الأخرى كل مياه النيل، بما فيها مياه الأفرع التي تم هجرها، فقد عمق من سريره وتوغل المجرى داخل مياه البحر ومن سنة إلى سنة تراكمت طبقات الطمي المترسب على الشطئان وأسهم ذلك في إطالة الفتحات أو المصبات حتى أن بعض مواقع على الشط، كانت فيما مضى أكثر تقدما، قد باتت اليوم هي نفسها، أكثر تراجعا، أي أن خلجان قد أعقبت الرؤوس كما أن رؤوسا قد أعقبت الخلجان، بالتبادل. هذا الأمر الذي نستطيع بإتمام الفكر النظري أن نصل إليه، نجده وقد قام عليه الدليل الواضح فوق خريطة السواحل الحالية لمصر، إذ نرى عليها الفتحات الكانوبية والسبنيتية والبيلوزية وقد غاصت إلى أعماق بعيدة في حين نتأت الفتحتان البولبتينية والفاتيميتية وإستطالتا؟ وهكذا لم تكن الجغرافيا الفيزيقية لسواحل مصر أقل تعبيرا عن جغرافيا المدنية"

فكيف لا يستشعر المرء الصعوبة في أن يعرف ، بشكل محدود مواقع التجمعات القديمة وأشكالها ومراحل تطورها؟ فالجغرافيا هنا لا تد يد المعونة إلى عالم الحفريات. وكيف لنا أن نحدد عوامل الثبات أو الإستمرارية في هذا المحيط الذي تعرضت فيه الطبيعة لتعديلات هامة؟ سوف نحاول أن نستخلص بعض السمات الثابتة نسبيا في منطقة الدراسة التي تهمنا متدرجين من الساحل الشمالي وظهيره، إلى "رشيد" و"دمياط ومرورا بمحافظة البحيرة.

١-٩-٢ جغرافية الساحل الشمالي والثغور المصرية

على الرغم من المراحل التطورية للساحل الشمالي للدلتا التي إرتبطت بنمو تلك الأخيرة والتغيرات التي كانت تطرأ على مستوى سطح البحر (أنظر الجزء الأول) ثم تغير مستوى البحر في العصور التاريخية والذبذبات المناخية التي مر بها مارا بتغيرات من الجفاف إلى فترات مطيرة(١١٥). وأخيرا الهبوط التدريجي "الذي استمر حتى العصور الوسطى، فهناك بعض السمات الثابتة لها صفة الإستمرارية قد أثرت بدورها على العمران ، يمكن أن نلخصها كالآتي:

- يتميز الساحل الشمالي خاصة في جزئه الغربي شمال "الإسكندرية" و"بورسعيد"، بكونه ساحل مستقيم قليل التعاريج والرؤوس ضحل المياه تهب عليه رياح قوية قليل الماء لا يتأثر بظاهرة المد والجزر، قليل المراسي وإن وجدت فهي صغيرة بالنسبة لحجم المراكب الشراعية القديمة (١١٦). ومن أمثلة تلك المراسي التي كانت تحتمي عادة في الرؤوس الصخرية Ennesytiorra (سيدي براني) أو تشرف على مستنقع ساحلي تحميه حواجز جيرية ويتصل بالبحر بفتحات ضيقة غير دائمة مثل Paratonium "مرسى مطروح" (١١٧). هذا وقد ذكر بطليموس (القرن الثاني الميلادي) العديد من المرافىء على طول الساحل بين "الإسكندرية" و"السلوم" ، إلا أنه يعتقد *أنها كانت مراسي صغيرة تخدم المهاجرين الإغريق الذين إستوطنوا الساحل كما يرجح أنها لا ترجع كلها إلى فترة معينة وإنما إلى فترات مختلفة أي أن كثيرا منها كان مجرد أسماء لمحلات إختفت*" (١١٨). هذا وقد وصف ديودور الصقلي الساحل الشمالي كالآتي:

"تظل مصر من جهة الشمال على ساحل بحري ممتد من الشرق إلى الغرب، إلا أنه يصعب الرسو فيه بالنسبة للبحارة لخلوه من الموانى فمن "بارتنيوم" (مرسى مطروح) حتى "جوية" في سوريا، حوالي ٥٠٠ ستاد لا يوجد مرفأ آمن سوى "فاروس". ومن جانب آخر، فهناك نطاق من الرمال على طول الساحل المستوى من الصعب أن يميزه البحارة الذين تتحطم سفنهم بمجرد الإقتراب منه في محاولتهم للرسو إذا لم يكونوا على دراية وخبرة بهذه الجغرافية المسطحة الخادعة" (١١٩).

هنا يستثنى ديودور "الإسكندرية" التي تقوم على منطقة تلالية بعيدة عن طمي النيل ورواسبه التي يلقى بها في البحر أما في الشرق من هذه المدينة فيتميز الساحل بكونه "كثير المستنقعات" وإن وجدت به موانىء فكانت في الغالب قرب مصبات أفرع النيل "كبيلوز" في العصر الإغريقي على الفرع البيلوزي القديم، كانوب على الفرع الكانوبي ثم "دمياط" و "رشيد" في العصر العربي والتركي (١٢٠).

أما المدن التي وجدت قرب المصبات السبعة للنيل والتي أشار إليها جميع المؤرخين والجغرافيين مثل هيرودوت وسترابو وهيروكليس وآخرين، فقد كانت في الغالب موانىء

نهرية ليس لها موانىء بحرية ومدن محصنة كما يشير ديودور " *هناك مدينة محصنة عند كل مصب من أفرع النيل السبعة التي تقسمها إلى قسمين يرتبطان بجسر من المراكب وبتحصينات*"(١٢١).

هى إذن "الإسكندرية"، مدخل مصر على ساحلها الشمالي ونافذتها على العالم الخارجي ظلت عاصمة لمصر وميناءها الأول قرابة ١٠٠٠ عام (١٢٢). أما "بيلوز" مدخل مصر الشرقي فقد كانت تبعد عن البحر بمقدار ثلاثة أميال ولم يكن لها سوى مرفأ صغير تربو به السفن.

يفسر إذن استواء الساحل وندرة الخلجان والتعرجات خلاؤه من الثغور الهامة على مر العصور حتى يومنا هذا، فلا يوجد على طول هذا الساحل موانىء هامة سوى "الإسكندرية "وحديثا "بور سعيد".

- استمرارية وجود "رشيد" و"دمياط" كموانىء على درجة نسبية من الأهمية وكمداخل رئيسية لمصر بعد انطمار الأفرع الأخرى للنيل طوال العصور الوسطى وحتى العصور الحديثة. بالتأكيد فإن العامل الجغرافي لعب دورا هاما "*فقد دانتا ببقائهما واستمرارهما لكونهما استمرار لفرعى الدلتا بالطبع ومن ثم لإتصالها بهما مائيا على الدوام، ربما وملاحة*" (١٢٣).

١-٩-٣ البحيرة كوحدة جغرافية

ارتبط التقسيم الإداري للأقاليم الكبرى الوادي والدلتا بالحدود الجغرافية كما اتسمت المقاطعات أيضا بالتجانس الجغرافى، وإذ تغيرت حدود العديد من المقاطعات نتيجة للتغيرات الطبيعية التي حلت بالدلتا، نجد أن البحيرة ، كوحدة جغرافية وأيضا إدارية -كما سنرى في الباب الثاني- قد إحتفظت بوحدتها الجغرافية على مر العصور. فهذه المقاطعة "البحرية" تمثل الجزء الغربي من الدلتا أى المنطقة المحصورة بين الفرع الرشيدي في الشرق ونهاية المرتفعات الليبية في الجنوب والغرب وشاطىء البحر في الشمال وبعد هذا المثلث هو محافظة البحيرة أو المحافظة البحرية التي إقتطعت منها "الإسكندرية" و"أبو قير".

دمنهور- دمياط - رشيد

"دمنهور" الحالية هى وريثة "هرموبوليس بارفا" الكلاسيكية و على الرغم من إندثار العديد من المدن الهامة في محافظة البحيرة نتيجة لجفاف الفرع الكانوبي وترعة الإسكندرية مثل "كانوب" "رشديا" و"اندروبوليس" (لا يعرف موقعها بالتحديد) "وهيراكونبوليس" التي كانت تقع أمام "دمنهور" على الضفة الغربية لفرع النيل، فقد ظلت دمنهور صامدة ومحتفظة بمكانتها بدون إنقطاع على مر العصور، ربما لكونها مدخل مصر البري من ناحية الغرب مثلها مثل "بلبيس" في الشرق.

أما "رشيد"، فكما أشرنا من قبل في العديد من المواقع، فهى تدين بإستمراريتها للفرع البولبتيني ولموقعها المتقدم كمدخل من مداخل مصر على الساحل. ويمكننا القول أن "رشيد" قد حلت محل "كانوب" بعد إختفاء تلك الأخيرة. إلا أننا لا يمكننا أن نعزو إستمرارية وجود حاضرة متوسطة في هذا المكان لعبقرية المكان فحسب، فهناك عوامل أخرى كان لها قدر من المساهمة في هذه الإستمرارية ستتعرض لها في الباب الثاني، كما أن هناك أيضا ضرورات تاريخية لعبت دورها في هذه الإستمرارية.

وفي مقابل "رشيد" على الفرع الرشيدى، نجد "دمياط" التي حلت محل "بيلوز" كمدخل لمصر من ناحية الشرق، وقد كانت "دمياط" في عصر من العصور ثاني مدينة بعد "القاهرة". وإذا كانت "رشيد" قد مرت بمراحل من الإضمحلال والإزدهار "فدمياط" على الرغم من تعرضها للغزوات إبان الحروب الصليبية، فقد كان يعاد بناؤها، وسرعان ما كانت ترجع لسيرتها الأولى.

هوامش الباب الأول

(١) بدأت الدولة فى الإهتمام ببعض المناطق بالدلتا وذلك فى الآونة الأخيرة وخاصة فى منطقة المنزلة (أعمال البحث والتنقيب عن آثار مدينة تنيس وأيضا إكتشافات تل الفراعين أو مدينة بوتو بمحافظة كفر الشيخ) "جريدة الأخبار" رقم ١١١٩٤ بتاريخ ٨٨/٣/٣١ ص١١، وجريدة الأهرام رقم ٣٧٠٠٦ بتاريخ ٨٨/٤/٣ ص١١.

(٢) أدولف إرمان- هرمان رانكة "مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة"- مكتبة النهضة المصرية- القاهرة.

(٣) د. جمال حمدان، "شخصية مصر"، دراسة فى عبقرية المكان، الجزء الأول ص٧٥-٧٧.
لقد إعتمدنا فى هذا الجزء من الدراسة على هذا المصدر الذى مثل بالنسبة لنا المرجع الأساسى.

(٤) BALL (John)"Contribution to the geography of Egypte, Cairo 1939.

(٥) د. جمال حمدان، "شخصية مصر"، دراسة عبقرية المكان، جـ ١ ص ٨٥.

(٦) نفس المصدر السابق.

(٧) نفس المصدر السابق.

(٨) نفس المصدر السابق.

(٩) John (Ball) "Contribution to the Geography of Egypt"1939,p:25. Cairo.

(١٠) هذا الأساس لم يصل إليه الحفر قط ، فأقصى حفر كان على عمق ١٦٣ مترا قرب أبو قير دون أن يصل إلى الصخور القاعدية، جمال حمدان، مصدر سابق.

(١١) جمال حمدان ، مصدرسابق.

(١٢) د.سليمان حزين، "البيئة والإنسان والحضارة فى وادى النيل" فى "تاريخ العصر الفرعونى" ، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٠، ص١٣.

(١٣) نفس المصدر السابق، نفس الصفحة.

(١٤) جمال حمدان، مصدر سابق الجزء الأول.

(١٥) نفس المصدر السابق.

(١٦) BALL (John) "Contribution... " pp.138-139.

(١٧) د. جمال حمدان ، مصدر سابق ، الجزء الأول ، ص ١٥٦ .

(١٨) عبد الفتاح وهيبة ، مصدر سابق ، ص ١١٠ .

(١٩) BALL (John), "Egypt in the Classical geographers", Cairo 1942,pp. 17 - 176.

(٢٠) Omar TOUSSON"Memoires sur les anciennes branches du Nil", Le Caire 1922.

(٢١) جمال حمدان، مصدر سابق- الجزء الأول ص١٩٣.

(٢٢) TOUSSON(Omar),"Mémoires..."

(٢٣) اللواء عبد المنصف محمود "على ضفاف بحيرات مصر"، بحيرة المنزلة وبحيرة البرلس..الجزء الأول ص١٦١.

(٢٤) جمال حمدان مصدر سابق، الجزء الأول .

(٢٥) BALL (John) "Egypt in..."op.cit., pp:173.

(٢٦) Omar TOUSSON "Memoires...", Epoque Arabe- M.P.I.E tome 4, 1923,pp:70-100.

(٢٧) Ibid.

(٢٨) Ibid.

(٢٩) A. GUEST "The Delta in the middle ages" in journal of the Royal Arabic Society, 1912,pp:941

(٣٠) جمال حمدان ، مصدر سابق ، ج ١ ص ١٩٩ .

(٣١) اللواء عبد المنصف محمود، مصدر سابق، الجزء الأول ص٣٠-٣١.

(٣٢) نفس المصدر.

(٣٣) أقام أمنحتب الأول فى عصر الأسرة الثانية عشرة معبدا فخما إكتشفه بترى سنة ١٨٨٤.

(٣٤) من أسباب تقهقر مدينة تانيس تنافسها مع تنيس التى كانت قد أخذت فى الشهرة وإتسعت دائرة تجارتها لقربها من نطاق التجارة المتمركزة شمال غرب الدلتا فانتقل إليها الكثير من أهالى تانيس والمدن الأخرى.

(٣٥) اللواء عبد المنصف محمود- مصدر سابق.

(٣٦) اللواء عبد المنصف محمود- مصدر سابق، الجزء الأول ص ٣٣-٤٠.

(٣٧) نفس المصدر السابق.
(٣٨) نفس المصدر السابق.
(٣٩) Wallis BUDGE "The Rosetta Stone"
(٤٠) أدولف إرمان - هرمان راتكة، "مصر والحياة..." مصدر سابق.
(٤١) محمد محمود زيتون "إقليم البحيرة" صفحات مجيدة من الحضارة والثقافة والكفاح، ص ١٦٣-١٦٥.
(٤٢) GAUTHIER (H.) "Dictionnaire des Noms géographiques, T. 6, p. 94.
(٤٣) BERNAND (André), "Le Delta Egyptien d'après les textes grecs", Le Caire 1976.
(٤٤) محمد محمود زيتون، إقليم البحيرة، مصدر سابق، ص١٦٧-١٧٨.
(٤٥) BALL(John), op. cit.p.33.
(٤٦) محمد محمود الصياد، بحيرات مصر الشمالية.
(٤٧) نفس المصدر السابق .
(٤٨) Darressey,M.G. "Ménélais et l'embouchure de la branche Canonique" in Revue de l'Egypte ancienne, tome II, 1929, pp:40- 44.
(٤٩) Audebeau Bey (ch) "Notes sur l'affaissement du Delta" , p:117, et aussi "Description de l'Egypte, T.V chap. XXIII.
وأيضا جمال حمدان، مصدر سابق جـ ١- ص ٢٦٥..
(٥٠)جمال حمدان، مصدر سابق جـ ١- ص ٢٦٥..
(٥١) محمد محمود الصياد، مصدر سابق ص٨
(٥٢) John BALL,"Egypt in..."op. cit., pp:25-26.
(٥٣) Daressey M.G. "Les Branches du Nil vers la XVIIème dynastie",Bull,soc.,géog. d'Egypte, tome XVII,1933, pp:107-111.
(٥٤) Ibid pp:98-108
(٥٥) Ibid pp:94.
(٥٦) جمال حمدان، مصدر سابق، جـ ١، ص ٢١٧.

(٥٧) Daressy op. cit.I,p:94.
(٥٨) BALL (J), "Egypt in.." op. cit.,pp:26,126,128.
(٥٩) اللواء عبد المنصف محمود، بحيرة المنزلة وبحيرة البرلس، ص١١٦.
(٦٠) نفس المصدر السابق ص ١١٨-١١٩.
(٦١) نفس المصدر السابق نفس الصفحة.
(٦٢) وصف مصر، تأليف علماء الحملة الفرنسية، ترجمة زهير الشايب، جـ ٣، ص١٠٤
(٦٣) نفس المصدر السابق، ص ١٠٥ .
(٦٤) نفس المصدر السابق، ص ١٠٥ .
(٦٥) BALL (J), op. cit. p:28.
(٦٦) محمد محمود زيتون، مصدر سابق ص ٥١-٥٢.
(٦٧) نفس المصدر السابق.
(٦٨) نفس المصدر السابق.
(٦٩) محمد محمود زيتون مصدر سابق ص١٩- وأيضا جمال حمدان مصدر سابق ص٢١٩.
(٧٠) وصف مصر، مصدر سابق، ص١١١ .
(٧١) محمود باشا الفلكى "الإسكندرية القديمة"، دار نشر الثقافة، ١٩٦٧، ص١٧٢. إشتهر هذا الإقليم فى العصور القديمة بإمتياز كرومه وأنبذته التى كان يصدرها عام إلى روما بوجه خاص وإلى المدن الأخرى بصفة عامة.
(٧٢) وصف مصر، مصدر سابق "GRATIEN,le père"جـ ١٨، القسم الثانى، ص٣٤.
(٧٣) BUTZER,"Environment and Human Ecology,p. 61-63
(٧٤) Ibid p.62.
(٧٥) Ibid p. 63.
(٧٦) Egyptian Irrigation,I,p:358,II p:453-454.
(٧٧) جمال حمدان، مصدر سابق، جـ ١، ص٢٣٠.
(٧٨) جمال حمدان، مصدر سابق، جـ ١، ص٢٣٠.

(٧٩) جمال حمدان، مصدر سابق، جـ ١، ص٢٣٠.

(٨٠) كان سكان ضيعة راكوتيس يحصلون على المياه العذبة من المطر والآبار الجوفية. ومن المعروف أن قيصر ومعشوقته حين كانا محاصرين بالإسكندرية قد إقتصرا لوقت طويل على هذا المصدر الوحيد للمياه، وصف مصر، مصدر سابق، ج ٣، ص٢٦٣.

(٨١) عمر طوسون، نفس المصدر السابق ص ٩.

(٨٢) عمر طوسون، نفس المصدر السابق ص ١١.

(٨٣) عمر طوسون، نفس المصدر السابق ص ١٢.

(٨٤) المقريزى، الخطط، ج ١، ص٢٧٨ .

(٨٥) أول موضع عند الكيلومتر الأول بعد الكربون الواقع شمال المحمودية، وثانى موضع، المسافة بين حديقة النزهة وأميزون بين الكيلو ٦٩ والكيلو٧٠. عمر طوسون، مصدر سابق.

(٨٦) د. عبد العزيز سالم،"تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى"، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٨٢، ص٢٩٢.

(٨٧) BERNAND (A.) "Le Delta Egyptien.." op.cit. 432.

(٨٨) BENJEN (J.) "Chroniques d'Egypte" 1944, p277.

(٨٩) سترابون. ترجمة لترون، جـ ١و جـ ٥، ص ٣٥٧.

(٩٠) GAUTHIER (H),"Dictionnaire...", op. cit.

(٩١) يناقش د. محمد صفى الدين وجهات النظر المختلفة حول أسباب إنطمار أفرع النيل فيقول أن بعض العلماء يعلل هذه الظاهرة بتعرض القسم الشرقى من مصر لحركات أحدثت إرتفاعا قليلا فإرتفعت الأجزاء الشرقية من الدلتا وإنصرفت المياه التى كانت تجرى فى فروعها إلى الفروع المنخفضة فى الوسط والغرب.
محمد صفى الدين، "مورفولوجيا الأراضى المصرية"، مصدر سابق ص ٢٢٧.

(٩٢) نفس المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٩٣) ليس هناك إذن داع لإفتراض حركات تكتونية قد أصابت القسم الشرقى من البلاد وأدت من بين ما أدت إلى إنقراض الفروع الدلتاوية القديمة. نفس المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٩٤) نفس المصدر السابق.

(٩٥) وصف مصر، مصدر سابق، جـ٣، ص ٣٨٣.

(٩٦) نفس المصدر السابق.

(٩٧) نفس المصدر السابق ، ص٣٨٠.

(٩٨) نفس المصدر السابق ، ص٣٩٢.

(٩٩) نفس المصدر السابق ، ص٣٩٢.

(١٠٠) نفس المصدر السابق ، ص ٣٩٧.

(١٠١) نقلا عن علماء الحملة، فإن هذه الظاهرة تفسر "بأن المسافة من الرحمانية إلى فتحة رشيد، أقل من تلك التى تفصل بين الرحمانية والبحر بالقرب من أبي قير. وحيث أن مسار الفرع البولبتى أقل تعرجا عما كان عليه الجزء الأدنى من الفرع الكانوبى، فقد سلكت المياه المجرى الذى لها الآن. وإضافة إلى ذلك فقد تراكمت الرسوبيات بالقرب من نقطة إنفصال الفرعين فى فرع كانوب فأخذت المياه طريقها إلى البحر فى الفرع الأكثر إنحدارا موسعة مجراه". وصف مصر، مصدر سابق، ص٣٨٧.

(١٠٢) تعهد العديد من ولاة مصر، قناة الإسكندرية بالإصلاح وإعادة الحفر فى فترات متوالية. فقد ذكر د. عبد العزيز سالم أن الحارث بن مسكين عام ٢٣٩هـ، ثم أحمد بن طولون سنة ٢٥٩هـ، ثم الحاكم بأمر الله عام ٤٠٤هـ فصلاح الدين الأيوبى عام ٥٧٧هـ. ومن بعده الظاهر بيبرس عام ٦٦٢ هـ ثم قلاوون عام ٧١٠هـ، الذى جعلها تبدأ من بلدة الرحمانية وسميت فى هذه السنة بالخليج الناصرى من عام ٧١٠هـ. حتى ٧٧٠هـ. ثم أصلحها برسباى سنة ٨٢٦ هـ وكذلك الملك الأشرف، فسميت بالترعة الأشرفية وأخيرا جعلها محمد على تبدأ من عند العطف عام ١٨٢٠م/١٢٣٨هـ فسميت باسم السلطان محمود العثمانى فعرفت منذ ذلك التاريخ وحتى الآن بالسم ترعة المحمودية.
أنظر د. عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها مصدر سابق، ص٣٩٢.

(١٠٣) د. صلاح عبد الجابر عيسى، جغرافية العمران الريفى، دراسة تطبيقية على مركز رشيد، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٢، ص ٧٠.

(١٠٤) ظلت جزيرة تنيس تقاوم غزو مياه البحر ولكنها عجزت عن أن تواجه منفردة غزاة البحر، إذ أصبحت معرضة لخطر غارات القراصنة والصليبيين من صقلية وفلسطين، فأمر صلاح الدين بإخلائها فى نهايةالقرن ١٢ وفى أوائل القرن ١٣، ثم هدمت حصونها على يد الكامل الذى هدم سورها وسواها بالأرض، وأصبحت مجرد

كومة من الحطام، وأصبحت جزيرة خربة مهجورة تعرف الآن بكوم تنيس أو تل تنيس.

(١٠٥) جمال حمدان، مصدر سابق، ج ١، ص ٢١٦، نقلا عن والمقريزى والمسعودى، مروج الذهب، مكان تونة اليوم جزيرة بالبحيرة تسمى كوم إبن سلام على بعد أربعة كيلومترات شرقى بلدة المطرية.

(١٠٦) MAQRIZI,"Descrp. topogr. et Hist. de l'Eg. Traduction U. BOURIAND, dans Mém. memb.mission Archéol. fr, XVII, fasc.1 (1895) chap. 506.

(١٠٧) AUDEBEAU BEY (Ch) Bull. Inst. d'Egypte I (1919) Louis Cordier, Description des ruines de, San p.117, (Tanis des anciens), dans Descrip. de l'Eg. texte antiquités, descrip.2 (1818), chap. XXIII pp: de 1 à 8 - GRATIEN le Père, Extrait d'un mémoire sur les lacs et les deserts de la basse Egypte, dans Descrip. de l'Egyp., texte Etat moderne - 2,1812, p.417 et Linant DE BELLEFOND.

(١٠٨) G. DARRESSEY," Ménélais et l'Embouchure de la Branche Canopique dans REVEG anc. 2 (1929),pp; 37-51 et notamment pp: 42-44 et pl. II.

(١٠٩) محمد محمود الصياد، تطور ساحل دلتا النيل، فصل من مجلة لكلية الآداب، مايو ١٩٥٣.

(١١٠) نفس المصدر السابق.

(١١١) G. BOTI "La côte alexandrine dans l'antquité, Bull., soc., Khéd. de géog. IVè série n. 12 (1897), pp. 807-835 rt BRECCIA E."Alexandria ad Aeguptum" (1914) pp. 75-77.

(١١٢) A. BERNAND op. cit., p.103, tome 1.

(١١٣) حفرت قناة الخطاطبة عام١٨٦٠ ومأخذها شمال قرية الخطاطبة عند القناطر الخيرية وطولها ٤١كم وتصب فى ترعة المحمودية. وصف مصر، مصدر سابق، ص ٣ و ص ٤١١.

(١١٤) وصف مصر، مصدر سابق، ج ٣ ص ٤١١.

(١١٥) BALL (J.), "Contribution..." op. cit. pp; 41-45

(١١٦) SEMPLE (E.), "The mediterenean region", London 1939, p. 159.

(١١٧) عبد الفتاح وهبة، دراسات...، مصدر سابق، ص ١٨.

(١١٨) نفس المصدر السابق، ص ١٩.

(١٩) BERNAND (A.) op. cit. p.12 T.I

(١٢٠) عبد الفتاح وهبة، مصدر سابق، ص١٩.

(١٢١) BERNAND (A.) op. cit. p. 33 - 58

(١٢٢) جمال حمدان، مصدر سابق، جـ ١ ص ٢٢٩.

(١٢٣) نفس المصدر السابق.

الباب الثانى

أثر العوامل المتغيرة فى نشأة ونمو المدن فى الدلتا

٢ ـ ١ عبقرية الإنسان

تضافرت عبقرية الإنسان المصرى مع "عبقرية المكان" لتساهم في ازدهار الحضارة المصرية التى ترعرعت، وإنتشرت من خلال المدن الكبيرة والكثيرة، في مدن الأسواق والمدن الإقليمية والمدن والعواصم التي نشأت في الدلتا والوادى وكانت بلا حصر(١).

ويرجع أن الثورة المدنية الأولى First urban revolution، ونشأة المدن ترجع إلى عصر ما قبل الأسرات (٢) وليس بدءا بالتوحيد السياسي لمصر وإنشاء منف ذات الحائط الأبيض (٣٢٠٠ق.م.)، فقد إرتبطت نشأة المدن في الدلتا كما في الوادى، بنشأة الإمارات في عصر ما قبل الأسرات وظهور الأقاليم بعواصمهاالإدارية.ويقول A. Moret (٣) أن هذه :

"الأقاليم ظهرت منذ استغل المصريون مياه الفيضان في الزراعة، فقد قسموا الأرض إلى أحواض وأحاطوها بالجسور وشقوا فيها القنوات، هذه الأحوض هى في واقع الأمر "الأقاليم" التى نشأت فيها الإمارات المصرية قبل التوحيد وهى أيضا الإطارات التى إحتوت "المقاطعة" بعد التوحيد . وشملت كل مقاطعة إلى جانب العاصمة عدد من القرى وما يحوطها من أراضي زراعية ومنافع ومراع، وعبد أهلها آلهة محلية كان بعضها يكتسب قداسة واسعة إذا ما إرتفع شأن المقاطعة"

وقد تم الإحتفاظ بهذا النظام بعد التوحيد ثم خلال العصور اللاحقة وإن تغيرت بعض تفاصيله فقد حتمت طبيعة الأقاليم الزراعية ونظام الري والنظام الإقتصادى إستمرار وجود مجموعة من المدن الإدارية للأقاليم تكون مقر الطبقة الحاكمة من الحاكم ونوابه والحامية وكبير الأطباء والموظفون الموكل إليهم عمليات صيانة الجسور وموظفو جباية الضرائب. فهى إذن من الناحية السياسية مقر إقامة ممثلى الفرعون أو الملك والخليفة، ومن الناحية الإدارية تحكم سيطرتها على المنطقة الزراعية ، ومن الناحية الإقتصادية تقوم بعملية جباية الضرائب، ومن الناحية الدينية مقر لعبادة طوطم أوالإله .

ومما لا شك فيه أن العامل الديني قد لعب دورا هاما في إختيار موقع العاصمة الإقليمية نظرا للسبق التاريخي للمعتقدات الدينية، ومع تطور المجتمع وزيادة تكتل الثروات وتبلور الطبقات الإجتماعية وتطور "التكنولوجيا"، وإزدهار الفنون والصناعات

اليدوية من منسوجات وأواني وحلي..الخ. وكذلك نمو التبادل التجاري على المستويين المحلي والدولي بدأت العواصم الإدارية تقوم بوظائف أخرى تجارية وصناعية -كما نشأت أيضا المدن ذات الوظيفة التجارية على أفرع النيل- حيث ساعد النقل النهرى كثيرا على نمو وتضخم المدن. وعلى سواحل البحر الأحمر والبحر المتوسط كذلك حتمت ضرورات الدفاع عن حدود مصر نشأة المدن المحصنة وكثيرا ما أضيفت الوظيفة الدفاعية للوظائف الأخرى لمدينة موجودة وتحتل مواقع إستراتيجية.

لعبت إذن العوامل السياسية والدينية والإستراتيجية والإقتصادية دورا هاما في نشأة ونمو المدن في الدلتا، إلا أن التأثير النسبي لتلك المحددات إختلف من حقبة إلى أخرى ومن عصر إلى آخر، فإختلاف التوجه التجارى لمصر مع جيرانها في الشرق الأدني وفي حوض البحر المتوسط إبان العصور الكلاسيكية والعربية وحتى العصر الحديث، أثر على العلاقات داخل شبكة المدن من جانب وعلى إرتقاء شأن البعض وإضمحلال شأن البعض الآخر من جانب آخر.

ففي عهد الدولة الحديثة ـ وعلى سبيل المثال ـ نجد أن العلاقات بين مصر وحوض البحر المتوسط والشام قد نشطت بشكل ملحوظ، فأصبح للمدخل الشمالي الشرقي أهمية تجارية وعسكرية خاصة وإنتشر على طوله العمران بل قد أصبح شرق الدلتا إقليما حيويا نمت فيه المدن وإنتقلت إليه العاصمة في بعض الأوقات(٤). وفى العصر البطلمي نمت أهمية غرب الدلتا ومدنها على حساب الشرق، ليعود الثقل مرة أخرى إلى شرق الدلتا في العصر العربي ، وهكذا..

كما أن تغير موقع العاصمة بين رأس الدلتا والبوابة الشمالية الشرقية والبوابة الشمالية الغربية يرجع إلى أسباب سياسية وإستراتيجية وأحيانا أيضا فردية أو أسرية أو دينية كما سنرى بالتفصيل فيما بعد.

وبالنظر إلى تعقد الظروف وتداخل وتبدل المحددات التي ساهمت في نشأة ونمو المدن في الدلتا، فسوف ندرس أثر كل من تلك المحددات على حدة بدون إغفال الدور النسبي للمحددات الأخرى. وسوف نبدأ بالعوامل الدينية لأنها تعتبر من أولى العوامل التـــي

ساهمت في إستقرار الإنسان بعد ترحاله الطويل الشاق ثم نتطرق إلى العوامل السياسية والإستراتيجية وتليها العوامل الإقتصادية لتنتهى إلى العوامل الإدارية أى التقسيم الإدارى ذلك أن:

"سير التاريخ تدلنا على أن رخاء مصر وإزدهارها إقتصاديا، وإستقرار العمران فيها كانت جميعا رهنا ما بدور الجهاز الإدارى الذى تغلغل كالشرايين في الحياة المصرية كتغلغل شبكة الترع والقنوات في الأراضي المصرية بل بفضلها أساساوعلى طول إمتدادها بالفعل"(٥).

وأخيرا، سوف يختتم هذا الجزء من الدراسة بتحليل عوامل الثبات وعوامل التغير مستخلصين السمات الثابتة على مر العصور.

٢ ـ ٢ العوامل الدينية

يؤكد لويس ممفورد (٦) أن العامل الديني وراء نشأة التجمعات البشرية في المراحل الأولى للإستقرار، ذلك أن أماكن دفن الموتى أو مدن الموتى الأولى بشكل عام كانت تمثل أماكن مقدسة تحج إليها القبائل الرحل حتى جاء الوقت الذى إستقرت فيه بجانبها أو حولها. وفي معظم الحالات كانت تنسج القصص والأساطير على تلك الأماكن وتدور حول طوطم أو إله تستمر عبادته بعد تحول التجمع البدائى إلى تجمع أكثر تحضر وإرتقاء من قرية صغيرة إلى مدينة ثم حاضرة كبرى أو عاصمة وطنية. ألم تقم أسطورة خلق العالم عند قدماء المصريين حول بحيرة البرلس التى انبثق فيها الإله الأعظم آتوم ومنه تفرعت الآلهة الكبرى وبسطت ضيائها وفرضت عبادتها على سائر البلاد؟(٧) ألم تنشأ على ضفاف تلك البحيرة أول مملكة مصرية تكونت في الوجه البحرى عام ٤٢٢٠ق.م. عاصمتها "بوتو" التى لجأت إليها إيزيس عندما قتل زوجها أوزوريس هاربة من إضطهاد ست وشروره لتودع حور بين أبدى مرضعته فى "بوتو"؟ (٨)

وعلى الرغم من أن المصريين القدماء قد وصلوا إلى مفهوم الإله المطلق أوالعالمى فإنهم لم يستطيعوا التخلي عن الآلهة الأخرى التى توارثوها في الماضى، فالإله الأكبر تتبلور مكانته الجديدة تحت العديد من الأسماء طبقا للأقليم أو المؤسسة السياسية المسيطرة لفترة ما، بينما تعتبر المعبودات الأخرى مجرد صفات أو أقانيم للذات الإلاهية هذه (٩).

وقد نتج عن ذلك، وجود العديد من الآلهة المحلية التى كانت تحتفظ جميعها -حتى من خلال الإله السائد- بطابعها المطلق والعام، تلك الآلهة كانت تمثل رموزا للمقاطعات المختلفة وحامية لها، تشيد لها الهياكل والمعابد الهامة في عواصم تلك المقاطعات التى كانت في نفس الوقت مراكز دينية عامة ومن أمثلتها:

- بوبسطة : مركز لعبادة إيزيس.
- بوزيريس : مركز لعبادة إيزيس.
- سايس : مركز لعبادة آتوم.
- أون : مركز لعبادة آمون رع.
- دمنهور : مركز لعبادة حورس.

وفي"منف" كان موقع المدينة بأسره يجسد الإله تانني TATJENEN الذى يعنى الأرض المرتفعة أى التى تظهر فوق سطح المياه الأزلية، كما كان لنفوذ الآلهة المحلية دور فى إختيار موقع العاصمة الوطنية أو العاصمة الإقليمية. وفي المقابل فإن إرتقاء مدينة أو عاصمة إقليمية إلى مصاف العاصمة الوطنية كان يضفى على الآلهة المحلية صفة الشمولية والعالمية فعندما كانت السيادة السياسية المرحلية لعاصمة ما تتصاعد نفوذ إلاهها الحامى، كان يتم توحيد الآلهة المحلية الأخرى مع هذا الإله (١٠). فإنتقال العاصمة في عهد أمنحات الاول وخلفاءه في الشمال عند مدخل الفيوم- نظرا للإمكانيات الزراعية للأراضي المستصلحة التى إنتزعوها لحساب الرقعة الزراعية بواسطة مشروعات الرى الشهيرة على عهدهم- قد أدى إلى رفع قدر الإله الحامى للفيوم سوبك وآلهة منف وهليوبوليس المجاورين للعاصمة الجديدة في مواجهة الإله آمون (طيبة) رغم أن الأخير كان يطلق عليه لقب سيد عروش الأرضين.

كانت المدن المصرية فى العصور الفرعونية إذن مراكز دينية هامة فضلا عن كونها عواصم إقليمية أو تجارية، وقد توطدت الوظيفة الدينية لهذه المدن في العصر البطلمى نظرا لإحترام الإغريق للديانة المصرية القديمة وإتخاذهم من الآلهة الفراعنة آلهة يعبدونها، كما أدى التبادل الحضارى بين الإغريق والمصريين إلى إزدواج الآلهة في المدينة الواحدة فتجاورت معابد أبولو Apollo وأثينا ATHENA مع هياكل ومعابد الآلهة لمصر القديمة.

وقد أدى إنتشار الديانة المسيحية في العصر البيزنطي إلى إحلال الأسقفيات والأديرة والكنائس محل المعابد القديمة، وعلى الرغم من هجرة الأديرة إلى الصحراء نظرا للإضطهاد الذى عانى منه المصريون على يد الرومان نتيجة للخلافات المذهبية، فقد إنتشرت مراكز العبادة المسيحية في مدن الدلتا، ونظرا لكون الديانة المسيحية ديانة توحيدية فلم تعد المدن الكبرى تستمد أهميتها من كونها مراكز لعبادة إله ذو مكانة عليا في نفوس المصريين، بل أصبحت تستمد تلك الأهمية من تمركز المنشآت الدينية ورجال الدين فيها ودورها في نشر المذهب الجديد، وينطبق هذا الوضع على مدينة "الإسكندرية". وتقابلها "القاهرة" في العصور الفاطمية والعصور اللاحقة. هذا وقد عرفت مصر العربية نمط المدن الدينية، فكانت "الخانكة" وبدرجة أقل "طنطا".

الخانكة

أنشئت في العصر المملوكي الذى أضاف إلى أنماط المدن المصرية نمطا فريدا لم يتكرر ولم يعرف من قبل وهو المدينة الدينية المنشأة (الخانكة تحوير للخانقاة) وقد استمرت كمدينة لها أهميتها على الرغم من قربها المكانى من عاصمة البلاد التى تطغى بطبيعتها على المدن القريبة (١١).

أما "طنطا"، فلا يمكن إعتبارها مدينة دينية المنشأ، حتى ولو كانت قد نشأت حول ضريح السيد البدوى، ذلك أنها كانت سوقا تجارية هاما للتبادل التجارى داخل الدلتا.

وأخيرا، فالحديث عن العوامل الدينية يجرنا بالضرورة للتطرق في المقام الثاني للعوامل السياسية ومن ثم العوامل الإستراتيجية، فالدين والسياسة كانا متلازمان منذ نشأة الحضارة المصرية حيث كانت السلطة الزمنية متواجدة مع السلطة الدينية في شخص الملك الإله أو إبن الإله. كما كانت الديانة النتاج العام للعديد من مختلف التيارات اللاهوتية والسياسية وقد أثر ذلك بشكل خاص في العصور الكلاسيكية على إختيار موقع العاصمة الوطنية أو إرتقاء عاصمة إقليمية إلى مصاف العاصمة الوطنية.

٢ ـ ٣ العوامل السياسية والاستراتيجية

تضافرت العوامل السياسية والعوامل الدينية مع العوامل الجغرافية تارة، أو العوامل الإقتصادية، أو الإستراتيجية تارة أخرى لتساهم في تحديد أو إختيار موقع العاصمة الوطنية أو العواصم الإقليمية.

فإنتقال عاصمة مصرمن"منف"إلى"إخيناتون" Akhetaton - قرب منتصف المسافة بين "منف" و"طيبة" ، جوار قرية "العمارنة الحديثة"- في عصر أمنحوتب الرابع (إخناتون) كان لأسباب دينية وسياسية على وجه السواء، فقد قرر الملك الشاب بناء عاصمة وقصر جديد لآلهة "آتون" ولبلاطه الملكي، فإختار لذلك بقعة لم ترتبط من قبل باسم أي معبود أو حتى مخلوق بشرى (١٢)، ومن المؤكد أن الدافع الذى حدا بالملك إلى إتخاذ هذا القرار يرجع إلى المقاومة المتزايدة لكهنة "آمون" ضد آلهه الجديد (١٣).

أما إنتقال عاصمة مصر في العصور الفرعونية بين "طيبة" و"منفيس" من جانب - وتنقلها وهجرتها المستمرة من موقع إلى آخر- فقد عكست التوجيه السياسي والإستراتيجي لمصر في حقبات مختلفة، فعواصم الشمال الشرقي القديمة "تانيس" و"أفاريس" و"بوسطة" كانت تعكس توجها أسيويا إلى حد ما، وعواصم الشمال الغربي "سايس" و"بوتو" و"الإسكندرية" و"سبينيتوس" و"سخا" كانت تعكس توجها أوروبيا وشمال إفريقي، أما عواصم الجنوب فكانت توحى بتوجه إفريقي بقدر أو بآخر(١٤).

وبالنسبة لعواصم رأس الدلتا "أون" و"منف" ثم "الفسطاط" و"العسكر" و"القطائع" و"القاهرة" - فالمسألة أكثر تعقيدا- فمن العسير أن نسلم أنها كانت تعكس "توجها وطنيا" فحسب(١٥)، ذلك أن هناك عوامل متعددة، من بينها الموقع الجغرافي، أثرت على توطن العاصمة لحقب طويلة في هذا الموقع . ومن وجهة نظرنا، فقد عكس هذا التوطن أساسا الرغبة فى إرساء وتوطيد معالم المركزية الصارخة ببيروقراطيتها وتعسفها وطغيانها وإنكارها للتنوع فتم القضاء بذلك على الإقليمية "كفلسفة مكانية" ميزت العصور السابقة.

هذا ولم يقتصر دور المحددات السياسية والإستراتيجية على إختيار موقع العاصمة أو إرتقاء عاصمة إقليمية إلى مصاف العاصمة الوطنية، بل ساهمت أيضا في تحديد الوظيفة الحربية للمدن كما سنرى في هذا الجزء من الدراسة.

٢ ـ ٣ ـ ١ عواصم مصر

كان من الطبيعي أن تتعدد العواصم في الدلتا كما في الوادى قبل التوحيد - نظرا لوجود شكل من أشكال المدن الدول City States - ولا نعرف على وجه التحديد متى تجمعت مقاطعات الوجه البحرى في مملكتين ، ولكن سير التاريخ تشير(١٧) إلى ذلك وإلى قيام هاتين المملكتين، الأولى في الغرب وعاصمتها "بحدت" وربما كانت "دمنهور" الحالية، والثانية في الشرق وعاصمتها "بوصير" بالقرب من "سمنود" الحالية، وبعد مدة من الزمن إندمجت هاتان المملكتان فى مملكة واحدة أطلق عليها الوجه البحرى: وكانت عاصمة تلك المملكة الجديدة فى بادىء الأمر "سايس" (صالحجر، مركز كفر الزيات)، وفيما بعد أصبحت العاصمة "بحدت" "دمنهور" حيث كان الإله الرسمى "حور".

وفي الوقت الذى إتحدت فيه الدلتا في مملكة واحدة تكونت مملكة أخرى في الوجه القبلى عاصمتها بلدة " نغادة" على مسافة قريبة من شمال الأقصر وكان إله الوجه القبلى "ست" المناهض لإله الوجه البحرى "حور" ثم إتحدت الدلتا والصعيد في مملكة واحدة وتحت سيطرة حاكم واحد وإتخذت من "بوصير" -أو زيرعنزتى- عاصمة لها وعندما تم الإنفصال عادت عاصمة الدلتا مرة أخرى إلى "دمنهور"، ومرة أخرى توصلت مملكة "حور" إلى إخضاع مملكة "ست" - وتم التوحيد- وأصبحت العاصمة "أون" "عين شمس"، في موقع متوسط بين القطرين.

ثم قامت الفتن والثورات مرة أخرى وتم الإنفصال فظهرت مملكتان مستقلتان من جديد، الأولى في الوجه البحرى وعاصمتها "بوتو" (تل الفراعين) والثانية في الوجه القبلى وعاصمتها "قفط" ثم "تخن" (الكاب) ثم وحدت البلاد للمرة الثالثة بمبادرة من أمراء الصعيد وعلى رأسهم مينا - ابن طيبة - الذى شيد عاصمة جديدة بالقرب من عين شمس -ربما رغبة منه فى جوار الآله "رع"- وسماها "من نفر" أو "المكان الجميل" (البدرشين وميت رهينة).

ولم تضع الحركة التوحيدية الثالثة حدا لتنافس شطور القطر المصرى ، فلم تمضى ٥٠٠ سنة على توطن العاصمة في "المكان الجميل" حتى هاجرت إلى أقصى الجنوب في "الفنتاين" في عصر الأسرة السادسة عام ٣٧٢٦ ق.م. بعد أن كانت قد استقرت في "منف" من ٤٢١٧ ق.م. إلى ٣٧٢٦ ق.م. وفي عصر الأسرات الثالثة والرابعة والخامسة

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

عواصم مصر في الدلتا على مر العصور

شكل رقم (٣-١)

N

٦٦ كم ٥٥ ميل ٣٣ ميل ١١ ميل

معهد التخطيط الإقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للأبحاث العلمية والتعاون
O.R.S.T.O.M

وطوال فترة حكم الدولة القديمة التى إمتدت من ٤٧٦٢ ق.م. إلى ٢٨٢٦ ق.م.، تنتقلت العاصمة بين "الطينة" (أبيدوس الطرية المدفونة) - و"ممفيس" و"الفنتاين" ثم "ممفيس" ثم "أهناسيا" وأخيرا "طيبة" - وإذا قمنا بعمل حسبة تاريخية بسيطة، يكون مجموع ما قضته "منف" كعاصمة سبعمائة عام (٧٠٠) مقابل مائة عام "لأهناسيا" ، وبقية المدة توزعت بين عواصم الجنوب.

وبنهاية الدولة القديمة، زال الملك عن "منف"، التى ظلت مدينة عامرة وحصينة حتى بدأ نجمها فى الأفول بعد تعرضها لغزوات الأثيوبيين والأشوريين والفرس(١٨). ومن الجدير بالذكر أن إتخاذ "أهناسيا" كعاصمة جاء كنتيجة مباشرة لضعف الأسرة المنفية وتفككها في فترة تميزت بالإضطراب كانت مصر فيها تعانى من غارات بدو الصحراء على الدلتا والجنوب(١٩)، فظهرت "باهناسيا" المدينة عند مدخل منطقة الفيوم أسرة قوية بزعامة أمير يدعى "خيتى" إنتزع الملك من الأسرة الثامنة المنفية الضعيفة وإستطاعوا صد غزوات البدو (٢٠). هذا وقد تم التوصل إلى بعض الحقائق التاريخية عن عصر ملوك أهناسيا الذى تميز بإزدهار الآداب والفنون والطموح إلى الديمقراطية الدينية.

وإن دل هذا الحدث التاريخى عن شىء، فإنما يدل، في المقام الأول، على أن السلطة والنفوذ والفنون والآداب لم تكن حكرا مطلقا على العاصمة، بل ظلت هناك العديد من الإمارات المحلية التى إحتفظت بقوتها ونفوذها وأيضا ثقافتها. وكان هذا يظهر بجلاء في العصور الوسيطة التى أطلق عليها عصور الإنحطاط والتى تخللت الفترات الواقعة بين الدولة القديمة والوسطى، وتلك الأخيرة والدولة الحديثة، وفي واقع الأمر فإن تلك العصور لم تكن عصور إنحطاط في جميع المجالات، بل هى عصور إنحلال وضعف للدولة المركزية فقط - مما كان ينعكس في تدهور جميع أوجه الحياة وخاصة العاصمة - وفي مقابل ضعف الطبقة الحاكمة الطاغية، كانت الثقافات المحلية تزدهر وتطفو الشخصية الإقليمية المقهورة على السطح *. وهذا الإتجاه سوف يتأكد على وجه الخصوص إبان الدولة الحديثة، فعلى عكس الدولة الوسطى، حيث إستقرت العاصمة في "طيبة" من ٢٨٢٦ ق.م. إلى ٢١١٧ ق.م.، إنتقلت لفترة وجيزة إلى "أيت تو" (اللشت) في موقع متوسط بين شطرى البلاد في عصر أمنحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة حيث مكثت قرنين من الزمان.

وقد قضت ضرورات صد هجمات النوبيين من جانب، والليبيين من جانب آخر، هذا الإنتقال. أما في آخر أيام الدولة الوسطى فقد إنتقلت العاصمة إلى "اكسويس" "سخا" في وسط الدلتا لتمكث فيها بين ٢١١٧ق.م. إلى ٢٠٠٣ ق.م. تاريخ غزو الهكسوس. وقد إتخذ الهكسوس من "أفاريس" قرب "تانيس"، عاصمة لهم، بينما تقهقر الملوك المصريين إلى "طيبة"، التى سوف تعود إليها العاصمة بعد طرد الهكسوس بدءا من ١٧٤٣ق.م. عصر الأسرة السابعة عشرة لتمكث فيها حتى عصر الأسرة العشرين ١١٨٣ ق.م.. وقد إتخذ خلفاء رمسيس الثالث فى الأسرة العشرين مدينة "تانيس" عاصمة لهم واضمحلت "طيبة" على أثر ذلك. وقد خضع هذا الإختيار للضرورات السياسية الناشئة من توسع حدود مصر وضم الشام وفلسطين مما حتم إختيار موقع للعاصمة في مكان يسمح بالسيطرة على هذه البلاد الشاسعة - إلا أن طيبة ظلت عاصمة ثانية - ففى عهد رمسيس الثاني عشر، قام "سمنديس" من "تانيس" وعين نفسه ملكا على الدلتا وفصلها عن الوجه القبلى وإحتفظ رمسيس بالوجه القبلى والنوبة وتقهقر إلى "طيبة"، وأسس سمنديس الأسرة الحادية والعشرين وضم الدلتا والصعيد وإتخذ من "تانيس" عاصمة له وظلت كذلك حتى ٩٣٤ ق.م. (من ١٠٨٤ إلى ٩٣٤ ق.م.)، ثم إنتقلت العاصمة إلى "بوبسطيس" في عصر الأسرة الثانية والعشرين النوبية. لتعود مرة أخرى إلى "تانيس" فى عصر الأسرة الثالثة والعشرين (٨١٤ق.م.) ثم تنتقل إلى "سايس"(صا) في عصر الأسرة الرابعة والعشرين ٧٢٥ق.م.، لتظل فيها حتى الغزو الفارسى (٥٢٧ق.م.) حيث إستولى ملكهم اسرحدون على "منف" وولى بخاو إمارة "سايس" (صا) في الدلتا.

---

* بدأ المؤرخون يعيدون قراءة التاريخ من أجل إعادة النظر فى بعض الأمور المسلمة التى لا أساس لها من الصحة. وقد تم التوصل إلى بعض الحقائق التى تعيد الإعتبار إلى العصور الوسيطة.

وبعد طرد الأشوريين تأسست الأسرة السابعة والعشرين ٦٠٨ق.م.، وكان على رأسها أبسماتيك الأول فشجع النازحين من اليونان على الإستيطان بالوجه البحرى وخاصة "سايس" و"منف" ومال إلى إحياء الدولة القديمة وفنونها وحضارتها، وكانت "سايس" (صالحجر) مركزا لهذه النهضة وسمى هذا العصر بالعصر الصاوى نسبة إليها.

وظلت "سايس" أو "صا" قاعدة مصر في عهد الأسرتين السابعة والعشرين والثامنة والعشرين وتليها "منديس"(٣٨٧ق.م.) في عهد الأسرة التاسعة والعشرين، وفي عهد الأسرة الثلاثين كانت العاصمة مدينة "سبينتوس" (سمنود). وفي عهد هذه الأسرة قام بختنبو الأول "أميرسمنود" وكذلك بختنبو الثاني بتشييد المعابد الكبرى وغيرها من الآثار العظيمة وتنتهى الأسرة الثلاثون في سنة ٣٤٠ق.م.، وفي عام ٣٣٢ق.م. فتح الإسكندر مصر ثم بنيت "الإسكندرية" وإستمرت عاصمة لمصر حتى الفتح العربى عام ٦٤٠ ميلادية أى نحو ألف عام. ومنذ ذلك الوقت إستتوطنت العاصمة بدون إنقطاع، في موقع متوسط بين الشمال والجنوب، على مقربة من وسط الدلتا، مثلما كانتا "منف" و"آون". وإذ إستطاع أمراء الدلتا أن ينتزعوا السلطة من أمراء الصعيد في النصف الثانى من الدولة الحديثة -يبدأ الصعيد في الدخول في فترة طويلة من الثبات والتدهور لم تقم له قائمة حتى يومنا هذا- فقد إستطاعت "الإسكندرية" - ولكن بدرجة أقل- ثم "القاهرة" أن تنتزع السلطة نهائيا من كل المدن والأقاليم لتصبح هى "مصر" في لغة ووجدان أبنائها.

بعد هذا العرض السريع للحركة التاريخية لعواصم مصر، نجد أن التوزيع الجغرافي قد خضع بدوره لمحددات سياسية وإستراتيجية. وقد حدد "حزين" دوائر جغرافية أربعة تحركت داخلها تلك العواصم:

- دائرة رأس الدلتا : "منف" وإلى حد ما "أهناسيا"، "الفسطاط" وتوابعها حتى "القاهرة".
- دائرة ثنية قنا: "طيبة"، "طينة" .
- دائرة بوابة الشمال الشرقى: "أفاريس"، "تانيس"، "بوبسطة" .
- دائرة بوابة الشمال الغربى: "سايس"، "إسكندرية" .

وسيلاحظ على الفور، أن هذه الدوائر هى مناطق إستراتيجية أساسا، فرأس الدلتا هى خاصرة الوادى جميعا، وثنية قنا هى المنطقة الإستراتيجية الوحيدة بإمتياز في الصعيد لأنها خاصرة النيل والبحر الأحمر مثلما هى بوابة السودان، أما شمال شرق الدلتا فبوابة آسيا ورأس جسر متقدم للعلاقات الأسيوية الهامة والتوسع الحربي الأساسي(٢١)، بينما الشمال الغربى نافذة مصر على البحر المتوسط وما وراء البحر، وكل عواصم مصر التى أقيمت خارج هذه الدوائر - الفيوم (شمت)، أخيتاتون- تمثل "شذوذا" سياسيا لأسباب خاصة أسرية أو دينية أو فردية.

هذا ، وإذا كان ثبات موقع العاصمة في العصر العربى الإسلامي مطلقا وكانت الذبذبة المستمرة والعنيفة هى طابع العصر الفرعوني خاصة ، فلعل ذلك يشير إلى الصراع الذى إتسمت به العصور الكلاسيكية بين المركزية المطلقة والطموح إلى الديمقراطية، بين الإقليمية واللاإقليمية، وأخيرا بين ثراء التنوع الثقافى وجذب وفقر الثقافة الواحدة السائدة.

٢ ـ ٣ ـ ٢ المدن المحصنه فى الدلتا

على الرغم من الحماية الطبيعية التى وفرتها لمصر الصحراء الغربية والشرقية وأفرع النيل بتشعباتها مما كان يجعل عملية إختراق الدلتا من الشرق للغرب مهمة شبه مستحيلة، فقد عرفت مصر المدن المسورة والمدن المحصنة منذ العصر الفرعوني(٢٢).

ومن أمثلة تلك المدن في هذا العصر:
مدن الثغور عند مصبات أفرع النيل كما أشرنا من قبل وكذلك مدينة "مومفيس" أو Imu (تل الحصن حاليا) جنوب غرب "دمنهور" عند المدخل الغربي لمصر.
أما في الشمال الشرقي فنجد مدينة "أفاريس" مدخل مصر البرى من ناحية الشرق وعاصمة مصر إبان حكم الهكسوس.

هذا وقد جمعت هذه المدن في كثير من الأحيان بين وظيفتها الإستراتيجية ووظيفتها التجارية والإدارية ومثال على ذلك "بيلوز" و"بولبتين". وإلى جانب هذه المدن ذات المواقع الإستراتيجية والتى حملت على عاتقها بالضرورة مهمة حماية مداخل مصر فقد أدى

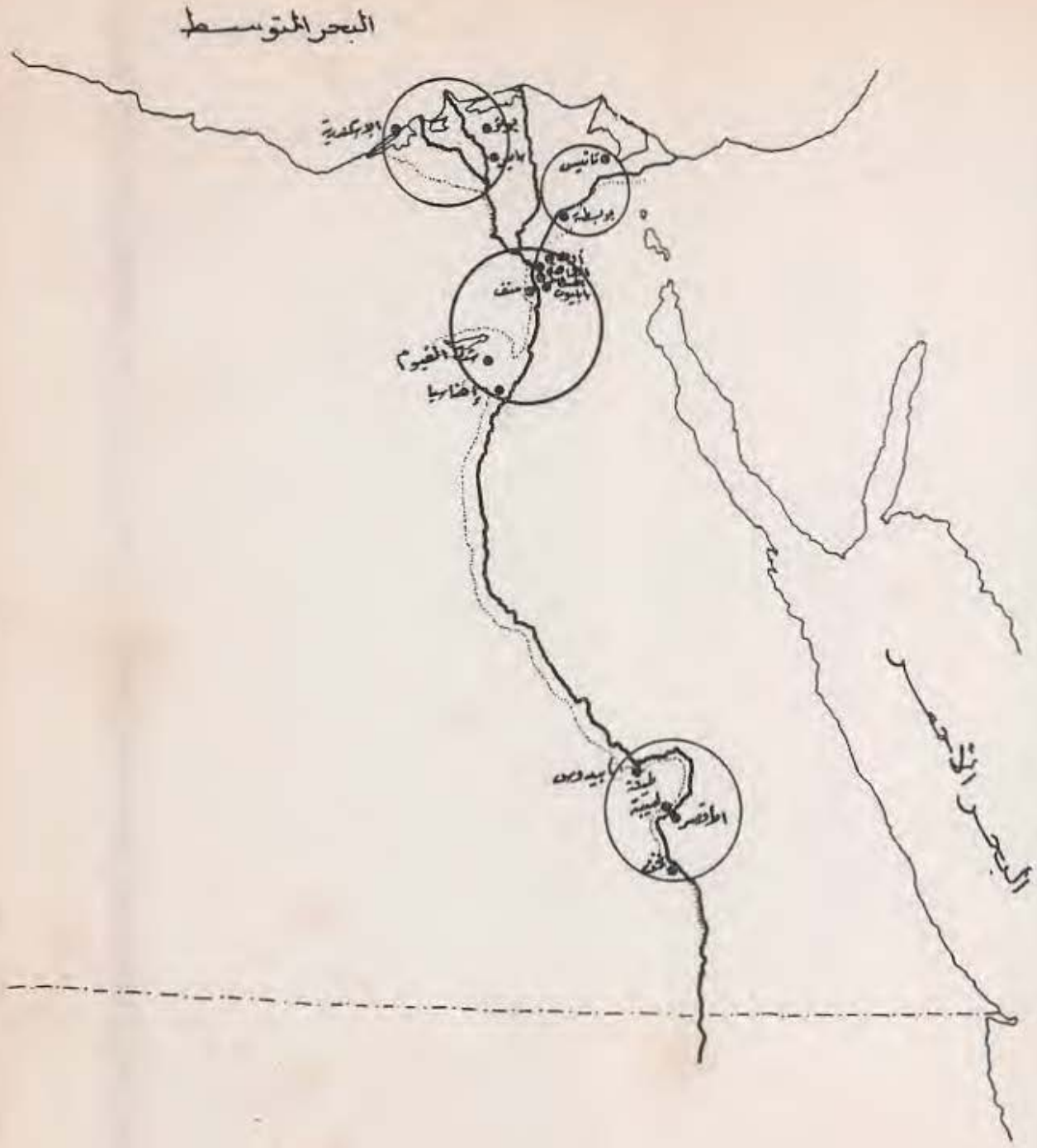

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

الدوائر الإستراتيجية

شكل رقم (٢-٢)

المصدر: د. جمال حمدان
كتاب "شخصية مصر"

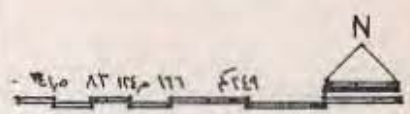

معهد التخطيط الإقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للبحوث العلمية
والتعاون
O.R.S.T.O.M

تتابع الغزوات القادمة من الشرق والشمال والغرب إلى تمركز الحاميات العسكرية في العديد من مدن الدلتا وقد أشار هيرودوت - الذى زار مصر في أواخر العصور الفرعونية وشاهد الغزو الفارسى - إلى الولايات التى عسكر فيها حملة السلاح الذين كان يقال عنهم جنود منظمة ورديف(٢٣).

وكانت ولايات الجنود المنظمة في الدلتا:

"بوصير" و"صا" و"بروسوبيتيس" غرب "الإسكندرية" و"نصف نانو"، وهذه الولايات يجتمع فيها مائة وستون ألفا من الجنود كلهم حملة السلاح ولا يزاول أحد منهم عملا آليا أو يدويا(٢٤).

وأما الرديف فولاياتهم هى:

"بوسطة" و"تنيس"و"منديس" و"سبينتوس" و"فربيتيس" و"ثموريس" و"أنبيس" و"ميكفوريس" وهى جزيرة واقعة إزاء "بوسطة".

وهذه الولايات يجتمع فيها إذا كانت مزدحمة بالسكان مائتان وخمسون ألف جندى ولا يسمح لهم بأن يزاولوا عملا غير حمل السلاح والإبن يخلف أباه(٢٥).

وقد إستمر هذا الوضع في العصور اللاحقة التى سبقت الفتح العربي، نظرا لهامشية العاصمة وسيظهر هذا بجلاء عندما نتناول مدن الدلتا المحصنة في العصر البيزنطي.

٢-٣-٢-١ المدن المحصنة فى العصر البيزنطى (٢٦)

كانت لطبيعة الحكم البيزنطى القادم من البحر والإستقرار "بالإسكندرية" وإتخاذها عاصمة للبلاد أثره على شبكة توزيع المدن بالدلتا والتى تأثرت بالموقع الهامشى للعاصمة، فكان من المحتم أن تنتشر الحصون والقلاع في الداخل من الدلتا خاصة عند قمة الدلتا (حصن بابليون) وعلى المداخل الرئيسية في الشرق عند "الفرما" وأن تنتشر الحصون على الطرق الموصلة بين أضلاع الدلتا والعاصمة. ونظرا لأن العامل الحربي أهم أسباب خلق المدن وإستمرارها في هذا العصر، فيحسن أن نعطى أمثلة للمدن الحربية في الدلتا خلال العصر البيزنطي حتى يمكن الحكم على ما أصاب المدن المصرية من تدهور قبيل الفتح العربى وأسباب ذلك ونتائجه .

أ) مدينة الفرما:

سبق وأن تحدثنا عن مدينة "الفرما" في مواقع متعددة من هذا البحث، وأشرنا أنها كانت مدخل مصر من ناحية الشرق، وأنها إستمرت تلعب هذا الدور بالإضافة إلى وظيفتها الإدارية والتجارية حتى جفاف الفرع البيلوزى وهبوط ساحل البحر في القرن السادس الميلادى، وبالتالى فقد كانت "الفرما" غير قادرة على أداء دورها الحربى فى هذا القرن، ومن ثم فقد فتحها الفرس بدون عناء سنة ٦١٦م وأصابها من جراء هذا الفتح خراب الكثير من كنائسها وأديرتها، وفقدت "الفرما" عند الفتح العربى خصائصها كمدينة حربية حصينة وحتى كمجرد ميناء ساحلى وخصوصا وقد نزل بها الوباء في مستهل القرن السابع الميلادى.

ب) مدينة منوف:

كان بها حصن للقوات البيزنطية وكان هذا الحصن قويا لوقت طويل ولكن تعرضت المدينة لأكثر من مرة-خلال الصراع على السلطة في مطلع القرن السابع الميلادى-للنهب والسلب لتبادل دخول الجيوش المحاربة إليها كما حدث عام ٦٠٩م. ولم تكن مجرد حصن حربى بل مركزا إداريا هاما في وسط الدلتا بها دار الحاكم ودور للكبار من البيزنطيين وقد أتاح هذا الدور الحربى والإدارى خصائص مكانها من حيث الموقع المتوسط وسهولة الإتصال بالعاصمة وحصن بابليون وبقية حصون فرع دمياط وشرق الدلتا وذلك عبر طرق نهرية وبرية.

وتدهورت المدينة وزالت أهميتها كمدينة فى القرون الأولى من الحكم العربى إذ يقتصر ذكرها فى هذه القرون على مجرد إختبارها ضمن مراكز مرتع الجند العربى.

جـ) مدنية "نقيوس":

كانت من المدن ذات الشأن في الدلتا لما فيها من حصون قوية منيعة، بل كانت أمنع الحصون البيزنطية على الطريق ما بين العاصمة وحصن بابليون ولها دورها فى حفظ هذا الطريق الحربى الهام.

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

الولايات العسكرية والمدن المحصنة في العصر الفرعوني

شكل رقم (٢-٣)

N

٠ ١١ ٢٣ ٣٤ ٤٦ ٦٩ كم

معهد التخطيط الإقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للأبحاث العلمية والتعاون
O.R.S.T.O.M

وقد أتاحت لها خصائصها المكانية - فقد كانت إلى جانب وقوعها على فرع رشيد ترقد على مخرج أحد فروعه "خليج إبيار" الذى يمر بـ"منوف"- سهولة الإتصال بجنوب ووسط الدلتا وحصون فرع دمياط مثل حصن أتريب قرب "بنها" و"سمنود" وفوق ذلك ، فقد كان للمدينة مكانتها التاريخية منذ العصر الفرعونى ومقرا لولاء ورؤوس الدين المسيحي.

وعند الفتح العربى فقدت "تيقوس" من إزدهارها لتعرضها مع غيرها من حصون مدن الدلتا، لسلسلة من الحروب فى مطلع القرن السابع الميلادى خلال الصراع على الحكم وإعادة فتح هذه البلاد بلمس هرقل، ثم الغزو الفارسى، ولهذا لا نجد لها ذكر في سلسلة المعارك والتى خاضها العرب مع البيزنطيين فى طريقهم لفتح "الإسكندرية"، ولعلها أخليت من الجند بعد أن أصبح من العسير الدفاع عنها خصوصا وإن "منوف" كانت قد سقطت فى يد الجيش العربى قبل توجهه لفتح "الإسكندرية."

د) مدينة "تونوط":

من المدن القديمة الواقعة على الطريق الحربى، وترجع أهميتها إلى أنها تقع فوق ميناء يعبر النيل عندها -عند السير إلى "الإسكندرية"- لوقوعها عند مخرج خليج الإسكندر المتفرع من فرع رشيد في غرب الدلتا كما كانت على رأس الطريق البرى المؤدى إلى وادى النطرون، ومن ورائه صحراء ليبيا. وعند الفتح العربى لمصر، كانت "ترنوط" أول مدينة حربية يلقاها العرب في طريقهم لفتح "الإسكندرية" ومع هذا، فإن القتال الذى دار حولها كان قتالا خفيفا. مما يدل على قلة شأنها كحصن حربى وتدهورها كمدينة.

هـ) مدينة "الكوبون":

هى آخر سلسلة الحصون على الطريق الحربى الرئيسى في غرب دلتا النيل، فهى على مسافة لا تزيد عن أربعين كيلو مترا من "الإسكندرية" وأخرى أقل من ذلك عن"دمنهور" وكانت لها قلاعها، ومما زاد من أهميتها الإستراتيجية، وقوعها على أهم المجارى المائية في غرب الدلتا -خليج الإسكندرية- والذى يأخذ أهميته من ربط العاصمة بالدلتا، وشهدت المدينة الترميم على يد البيزنطيين، وأهم ما يشار إليه تدهور وقلة أهمية المدينة.

و) "أتريب":

ظلت مدينة عظيمة في القرن الرابع الميلادى وكان لها دورها الإدارى والحربى في الدلتا، كما إمتازت بموقع هام.

لقد حملت تلك المدن عوامل فنائها منذ نشأتها -وبالتالى فقد إندثر معظمها- عدا "منوف" التى فقدت وظيفتها الحربية ولكنها ظلت محتفظة بوظيفتها الإدارية كعاصمة إقليمية ثم إنحدرت لتصبح عاصمة مركز.

٢-٣-٢-٢ المدن الحربية فى العصر العربى

قامت في العصر العربى مدن مستحدثة أنشأت أساسا للغرض الحربى بحيث إحتلت هذه الوظيفة فيها النشاط السائد. كما تولت مدن قائمة وسيلة الدفاع عن حدود مصر أو نشأت مدن جديدة محل مواقع قديمة للقيام بهذه الوظيفة.

أ) المدن الحربية المستحدثة:

من أهم تلك المدن، "المنصورة" و"الصالحية"، فالأولى أقيمت في موقع تمتاز ٦١٦هـ في زمن الأيوبيين والأخرى عام ٦٤٤هـ أثناء الحروب الصليبية، وقد ظلت المنصورة محتفظة بوظيفتها الحربية حتى أواخر عصر المماليك ثم فقدت وظيفتها الحربية، وإنتزعت من "أشمون الرمان" الوظيفة الإدارية كعاصمة لولاية الدقهلية والمرتاحية فى أوائل العصر العثماني.

ب) المدن الحربية المستمرة:

وتلك المدن هى مدن الثغور - أو مدن الهوامش - من أهم مدن الثغور نجد "رشيد" و"دمياط" على الساحل الشمالى، أما مدن الهوامش، فنجد "دمنهور" و "بلبيس" التى تم تسويرها في العصر المملوكى حيث كانت تتعرض لغارات البدو .

ب -١) مدينة "رشيد":

أصبحت ثغرا منذ الفتح العربى فأدت بذلك دورها الحربى بحكم موقعها، وشيدت فيها الحصون والقلاع خاصة في العصر المملوكى. وإن كانت هذه الوظيفة الحربية قد تباينت أهميتها لما طرأ على الموضع من تغيرات طبيعية، ومع إختلاف إهتمام الدول المتعاقبة بالأسطول والجيش والثغور في مصر. فقد بدأت "رشيد" تلعب دورا هاما في أواخر العصر العثمانى إلتصبح ذات مكانة في المجالين الإقتصادى والحربى، بعدما أصاب التدهور موانىء "الإسكندرية" و"بيلوز" ودمياط" لتكرار الحملات المعادية من بقايا الصليبيين. وقد كانت "رشيد" مسرحا للعمليات العسكرية أثناء الحملة الفرنسية وشيدت بها بعض التحصينات ثم تعرضت لحملة فريزر عام ١٨٠٧م.

ب -٢) مدينة دمياط القديمة

شهدت مدينة "دمياط" القديمة العديد من الحروب، وذلك بسبب موقعها الإستراتيجي. فقدت شهدت الحرب عند قدوم العرب إلى أرض مصر، كذلك هاجم الروم "دمياط" سنة ٩٠هـ و١٢١هـ ثم ٢٠٠هـ وأخيرا عام ٢٨٣هـ (٧٠٨ - ٧٣٩ - ٨١٥ و ٨٩٦م). كما شهدت مدينة "دمياط" العديد من المعارك أثناء الحروب المتصلة بين المسلمين والصليبيين ، وخاصة سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م أثناء الحملة الصليبية الخامسة وسنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م أثناء الحملة الصليبية السابعة.

وقد إتفق المماليك البحرية بعد أن تولوا حكم مصر على تخريب مدينة "دمياط" خوفا من مسير الإفرنج إليها مرة أخرى، فوقع الهدم في أسوارها عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م حتى خربت كلها ومحيت آثارها ولم يبق منها سوى جامع الفتح وبضعة أخصاص على النيل والتى إعتبرت نواة "دمياط" الحالية(٢٧).

لقد كان لتضافر العوامل الجغرافية والإقتصادية والإستراتيجية دور فعال فى نشأة وإزدهار بعض المدن في الدلتا كما أن هناك مدنا إرتبطت نشأتها بالعامل الإستراتيجي فقط إلى جانب العامل الجغرافى - بالطبع - هذا وقد حملت تلك المدن عوامل فنائها منذ نشأتها، وبالتالى فالمحددات التى أدت إلى نشأتها هى نفسها مسببات إندثارها أو تدهورها فقد دمرت تلك المدن إما نتيجة للغزوات المتعاقبة على يد الغازين أو بيد أصحاب البلد خوفا من وقوعها فى أيدى الأعداء والتحصن بها وشن الهجمات من خلالها، فقد إضطر عمرو بن العاص إلى هدم أسوار وحصون مدينة "الفرما"، ثانى موضع بعد "العريش" (لاريس) قوتل فيه عند غزوه لمصر حتى لا ينتفع بها العدو إذا عاد إليها -ويقصد بهم الروم- وعندما أعيد بناؤها فيما بعد، لم تدمر نهائيا إلا على يد بلدوين الأول ملك بيت المقدس أثناء غارات الصليبيين في القرون الوسطى- إذ دمروها قبل تفهقرهم عام ١١١٨م- وما حدث للـ"فرما" حدث لـ"تنيس"، فقد أمر صلاح الدين بإخلائها سنة ١١٩٢م ثم جاء الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب عام ١٢٢٧م، فهدم حصونها وأسوارها وتركها أطلالا وذلك كى لا يمكن الصليبيون من الإقامة فيها والتحصن بها(٢٨).

وإذ لم تقم "لتنيس" و"الفرما" و"تانيس" و"تنيوس" (Imu) و"تل الحصن" ومدن أخرى حصينة قائمة بعد ذلك في العصر الحديث- نظرا لتغير الظروف وتغير أساليب الحرب الحديثة- فقد حلت "بورسعيد" ومدن القناة محل "دمياط" و"رشيد" و"بيلوز" - وأصبحت مدن المواجهة أثناء الحروب مع الكيان الصهيونى - وتحولت قلاع "رشيد" و"الإسكندرية" إلى مواقع سياحية.

إلا أن إختفاء الوظيفة الحربية لـ"دمياط"، وتدميرها لم يمنع نشأة مدينة أخرى تحمل نفس الإسم على مقربة من أطلال الإولى لتؤدى وظائف إدارية وإقتصادية، كذلك الحال بالنسبة "لرشيد"، وإن إختلفت الأهمية لكلتاهما كما سنرى ذلك فى الباب الثالث من تلك الدراسة.

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

مدن المواجهة على مر العصور

★ مدن حربية ظهرت بالعصر البيزنطي وانتشرت فيما بعد

✪ مدن حربية محدثة في العصر العربي

● مدن حربية مستمرة

▲ مدن المواجهة في العصر الحديث

شكل رقم (٢-٤)

N

٠ ١١ كم ٢٢ ٣٣ ٤٤ ٥٥

معهد التخطيط الإقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للأبحاث العلمية والتعاون
O.R.S.T.O.M

٢ ـ ٤ أثر العوامل الاقتصادية على منطقة الدلتا

كان النقل النهرى قد ساهم بشكل كبير فى نمو وتضخم المدن نتيجة للتبادل الداخلى ، بينما كانت أحادية البيئة النيلية وفقرها في المعادن والأخشاب خاصة من محركات التجارة والتبادل الخارجي المبكر(٢٩).

والدراسة التالية هى محاولة للتعرف على أثر تكامل العامل التجارى بشقيه الخارجى والداخلى، والعامل الجغرافى من حيث الموقع على نشأة وتطور المدن بمنطقة الدلتا. فللتجارة الخارجية أسسها الجغرافية وظروفها السياسية والتى رشحت مواقع بعينها لكى تكون بمثابة حلقة الوصل بين مصر والبلدان الخارجية. كما أن للتجارة الداخلية شروطها والتى أختيرت على أساسها نقاط معينة تميزت بأنها بمثابة محطات رئيسية بشبكة المواصلات الوحيدة منذ زمن بعيد والتى سيطرت على حركة التجارة الداخلية والخارجية معا في مصر ونعنى بذلك شبكة نهر النيل وفروعه في منطقة الدلتا.

وإلى جانب النشاط التجارى الذى مثل عماد الإقتصاد فى العصور الكلاسيكية، نجد النشاط الصناعى الذى إزدهر فى العصور الوسيطة فأضاف وظيفة جديدة إلى مدن قائمة أو أدى إلى نشأة مدن مستحدثة. وبالتالى يصبح من العسير الفصل بين الوظيفتين في هذا العصر، لذا سوف نتطرق إلى النشاط الإقتصادى بشقيه آخذين فى إعتبارنا أيضا التأثيرات المتشابكة للعوامل الأخرى وخاصة الجغرافية منها والإستراتيجية والسياسية.

٢-٤-١ تطور العلاقات التجارية لمصر بجيرانها وطرق التجارة الرئيسية

إن العلاقات التجارية بين مصر وجيرانها علاقات قديمة ترجع إلى عصر ما قبل الأسرات. فقد أنشأت مصر علاقات تجارية مع بعض بلاد الشرق الأدنى وبلاد النوبة في ذلك العصر وخاصة الجزء الأخير منه. كما لم يكن غريبا أن تقرى مصر الفرعونية وخاصة الدولة الحديثة أواصر صلاتها التجارية مع العالم المجاور والبعيد، مستغلة في ذلك موقعها الجغرافى وإمكانياتها المادية والبشرية، بل لقد بلغت التجارة الخارجية في تلك الفترة أهمية لم تبلغها التجارة الداخلية في حياة مصر الإقتصادية(٣٠).

وعلى الرغم من وجود آثار تدل على قيام التجارة بين مصر وبلاد الشام منذ أيام الدولة القديمة، فلم تنشط إلا في عهد الدولة الحديثة بعد الحملات الحربية التى قام بها ملوك الأسرة الثامنة عشر، فقد أصبح لمدخل مصر الشمالى الشرقى أهمية تجارية وعسكرية على وجه الخصوص. وإنتشر على طول هذا المدخل العمران - بل أصبح شرق الدلتا إقليما حيويا نمت فيه المدن وإنتقلت إليه العاصمة فى بعض الأوقات- وإنتشار العمران في هذا الإتجاه، كان نتيجة مباشرة للتبادل التجارى بين ثغور الشام وموانى مصر الشمالية كـ "الفرما" و"تانيس"(٣١).

كذلك هناك من الأدلة الأثرية ما يثبت قيام علاقات تجارية بين مصر وجزر البحر المتوسط وخاصة جزيرة قبرص منذ عهد الدولة القديمة، وفى نفس الوقت كشفت عن كثير من آثار الحضارة المصرية في مدن "كريت" و"قبرص" و"ردوس" و"صقلية" وفي جهات كثيرة من سواحل البحر المتوسط (٣٢).

وتشير كل الوثائق والنصوص التاريخية إلى أن تجارة مصر الخارجية في عهد البطالمة إزدهرت كما لم تزدهر من قبل ، ولكن من الثابت أن تجارة مصر فى البلاد الأجنبية وخاصة الشرقية كان لها المقام الأول، فقد إهتم بها البطالمة أشد الإهتمام، فأنشأوا الموانىء على البحر الأحمر، نذكر منها موانىء "أرسنوى" "موبس هرمز" "ليكوس ليمن" وميناء "برنيك".

هذا وقد لعبت مدينة "الإسكندرية" دورا حيويا فى ربط مصر بالعالم الخارجى، فقد خرجت منها معظم الصادرات وإنتهت إليها معظم الواردات. وفى هذا العصر أيضا أنشأت مصر علاقات تجارية قوية مع بلاد بحر إيجة والبحر الأسود وبلاد الحوض الغربى من البحر المتوسط. أما التجارة الشرقية، فكانت تنتقل إلى الإسكندرية بعد وصولها إلى موانىء البحر الأحمر بطريقتين:

الطريق الأول : وهو الأهم عن طريق البر والنهر معا ويبدأ من موانىء سواحل البحر الأحمر مخترقا وديان الصحراء الشرقية إلى النهر وفروعه ثم إلى ميناء الإسكندرية.

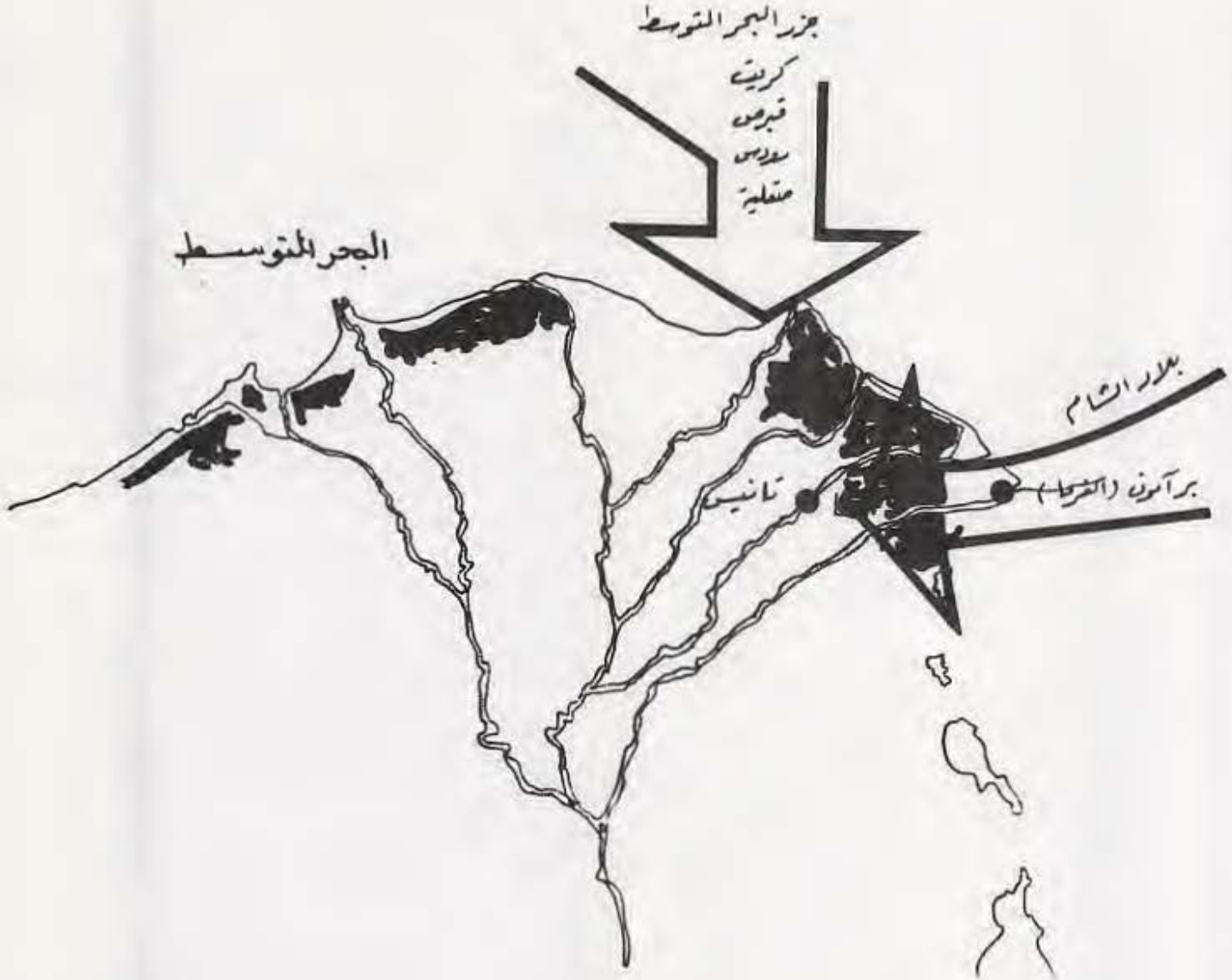

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

تجارة مصر الخارجية في العصور الفرعونية
(بمنطقة الدلتا)

شكل رقم (٢-٥)

معهد التخطيط الاقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للابحاث العلمية والتعاون
O.R.S.T.O.M

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري

مدن الدلتا

تجارة مصر الخارجية في العصر البطلمي

(بمنطقة الدلتا)

شكل رقم (٢-٦)

معهد التخطيط الإقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للبحوث العلمية والتعاون
O.R.S.T.O.M

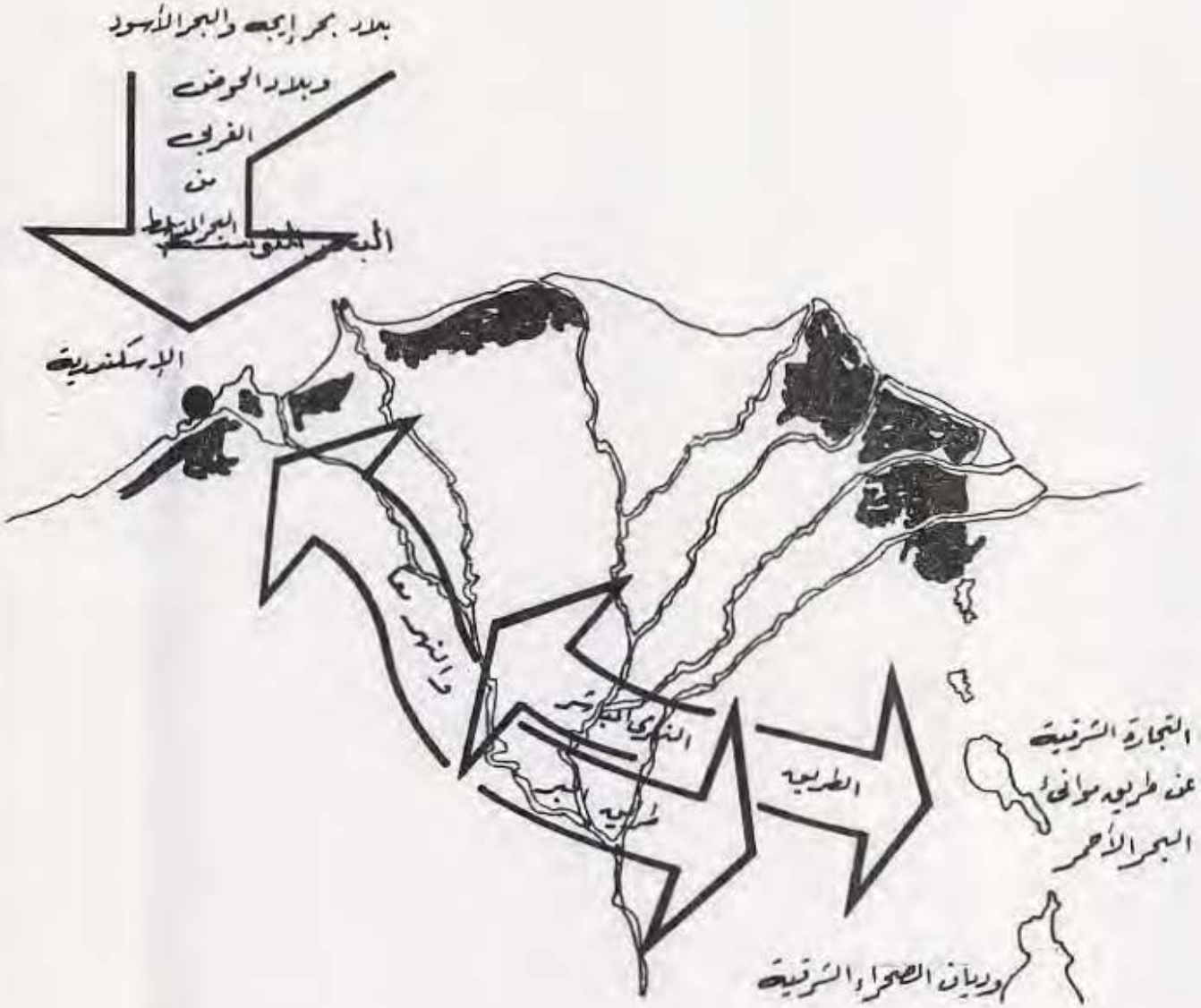

الطريق الثانى: هو الطريق النهرى المباشر، ويبدأ من "هيروبوليس" Heroopolis - أحد الموانىء التى أنشأهاالبطالمة- إلى الشمال من البحيرات المرة، ومنها تبحر السفن النهرية في القناة التى ربطت النيل بالبحـــر الأحمر حتى نهايتها، ومن ثم إلى فروع النيل الغربيـــــة حتى الإسكندرية *.

لم يتغير،كثير من معالم تجارة مصر الخارجية فى الجزء الأكبر من العهدين الرومانى والبيزنطى فقد ظلت مدينة "الإسكندرية" سوقا ومخزنا كبيرا للبضائع الشرقية والغربية وميناء مصر الأول بل أكبر موانىء البحر المتوسط بعد "روما" و "بيزنطة". وقد تمثل هذا النشاط فى مرفأيها البحرى والبحيرى (على بحيرة مريوط) -كما سنرى فيما بعد - وظلت التجارة الشرقية تمر بوادى النيل عن طريق القناة الرابطة بين نهر النيل والبحر الأحمر والتى أعاد تراجان فى القرن الثانى الميلادى حفرها وتعميقها لتقوم بدورها الهام فى الربط بين تجارة الشرق والغرب عن طريق الإسكندرية.

بدخول الإسلام مصر فترت التجارة الخارجية المباشرة بينها وبين أوروبا وآسيا لأسباب مختلفة، بينما نشطت تجارتها مع بقية العالم الإسلامى وبلاد الشرق الأقصى ووسط إفريقيا، وكان ميناء "الفرما" ذو أهمية كبيرة خاصة فى القرون الأولى للإسلام فى مصر.

كذلك فإن حركة التجارة فى "الإسكندرية" فترت قليلا عن ذى قبل فقد نقل منها مقر الحكم إلى حيث تلتقى مصر السفلى بمصر العليا وتغير توجيه مصر الجغرافى من الشمال إلى الشرق وجنوب الدلتا على الأقل فى القرون الأولى من حكم العرب لمصر. ولكن بالقياس إلى بقية المدن المصرية فى العصور الوسطى الإسلامية ظلت "الأسكندرية" على الرغم من إنكماشها ومنافسة "دمياط" لها أيام العصر الأيوبى من أكثر مدن مصر تجارة.

* توقف هذا الطريق فى أواخر حكم البطالمة بسبب إنسداد تلك القناة بين البحر الأحمر ونهر النيل وعدم صلاحيتها للملاحة.

وكان من الطبيعى أن تنشط صلات مصر بالعالم الإسلامى منذ بدء العهد العربى، وقد شجع ذلك حرية إنتقال التجار المسلمين فى أنحاء الدولة الإسلامية، هذا فضلا عن موقع مصر المركزى والمتوسط فى العالم الإسلامى، لذلك نجد مصر قد دعمت علاقتها التجارية مع سوريا والحجاز وشمال إفريقيا والأندلس فى فجر الإسلام. هذا وقد إتصلت سوريا بمصر بالطريقين القديمين : طريق البر وطريق البحر.

١) **طريق البر:** يبدأ من العاصمة "الفسطاط" ثم "القاهرة" ثم يسير جهة الشمال الشرقى متتبعا أطراف الدلتا الشرقية ثم يعبر برزخ السويس إلى شمال سيناء حيث يمر "بالعريش" و"رفح"، ومن ثم إلى "الرملة". وهنا ينفرج إلى فرعين، فرع يتجه جنوبا إلى مدن "الحجاز "وفرع يتجه شمالا إلى "دمشق".

٢) **طريق البحر:** فكان يبدأ من "تنيس" أو "الفرما" أو"دمياط"، ويتجه نحو "عكا" أو"بيروت" أو "طرابلس".

وقد إضطربت التجارة على هذين الطريقين إبان غزوات الصليبيين وإحتلالهم لسواحل الشام ثم عادت إلى طرقها الأولى بعد طرد الصليبيين من الشرق العربى . وإرتبطت مصر أيضا بشمال إفريقيا والأندلس بطرق برية وبحرية بدأت من "الإسكندرية" إلى موانىء "طرابلس" و"المهدية" و"تونس" و"طنجة" وغيرها من موانىء شمال إفريقيا. وكان أهم الطرق البحرية هو الطريق الموازى لساحل البحر المتوسط ثم يمر محازيا لأطراف الدلتا الغربية لينتهى عند "الجيزة".

وبعد نجاح فاسكو دى جاما Vasco Da Gama فى إكتشاف طريقه إلى الهند بالدوران حول إفريقيا وذلك عام ١٤٩٧م فقد موقع مصر الجغرافى قيمته فتحولت عنه طرق التجارة إلى المحيط وبدأ الكساد والخراب يزحفان على العاصمة والموانىء المصرية، ثم بدأ موقعها الجغرافى يستعيد بعض أهميته السابقة فى أواخر القرن الثامن عشر ثم صار بالغ الأهمية بعد فتح قناة السويس فى سنة ١٨٦٩م.

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

تجارة مصر الخارجية في العصور الإسلامية
(بمنطقة الدلتا)

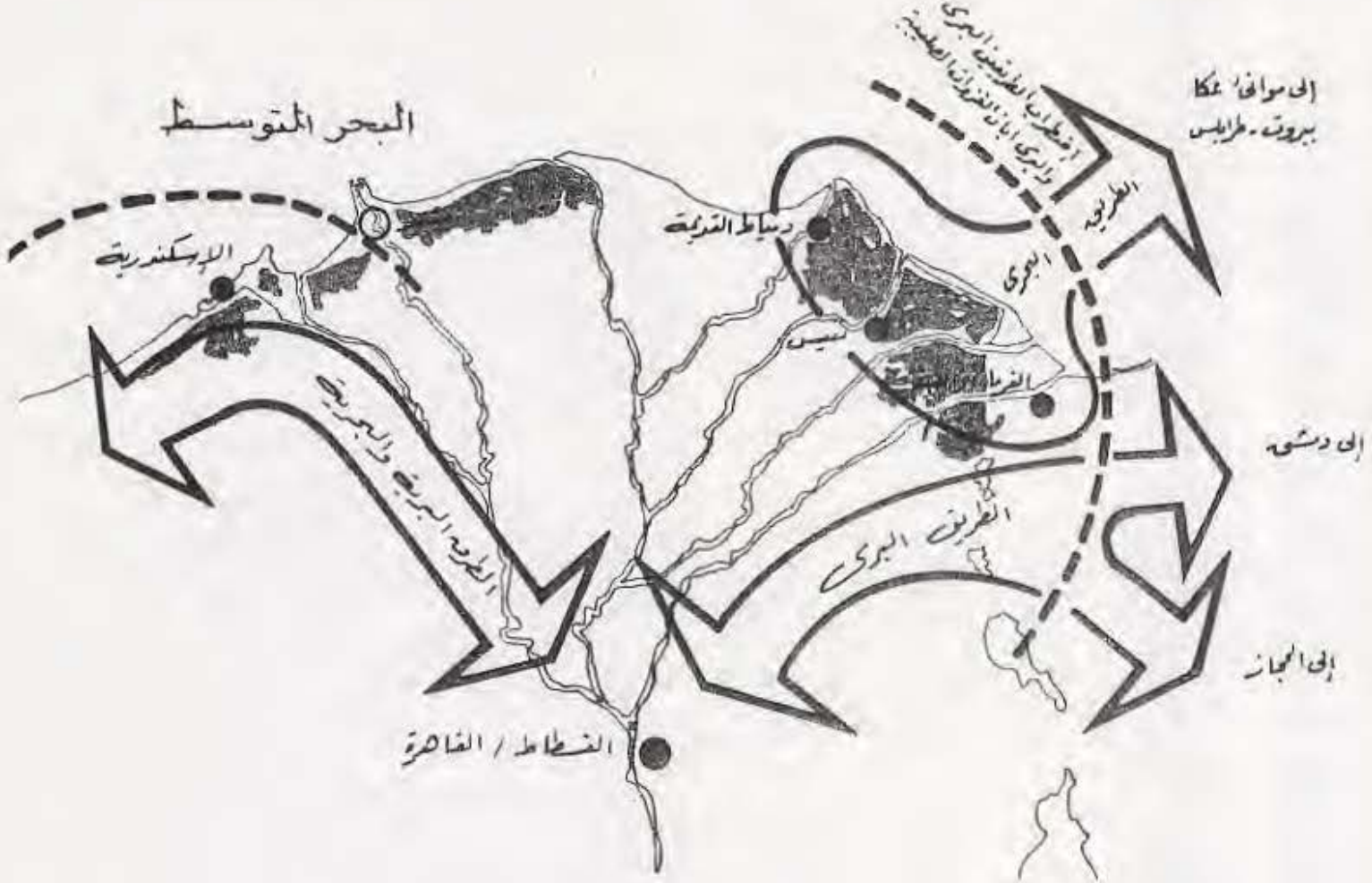

شكل رقم (٢-٧)

معهد التخطيط الإقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للأبحاث العلمية
والتعاون
O.R.S.T.O.M

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

موقع مدينة الاسكندرية بالنسبة للتجارة الخارجية

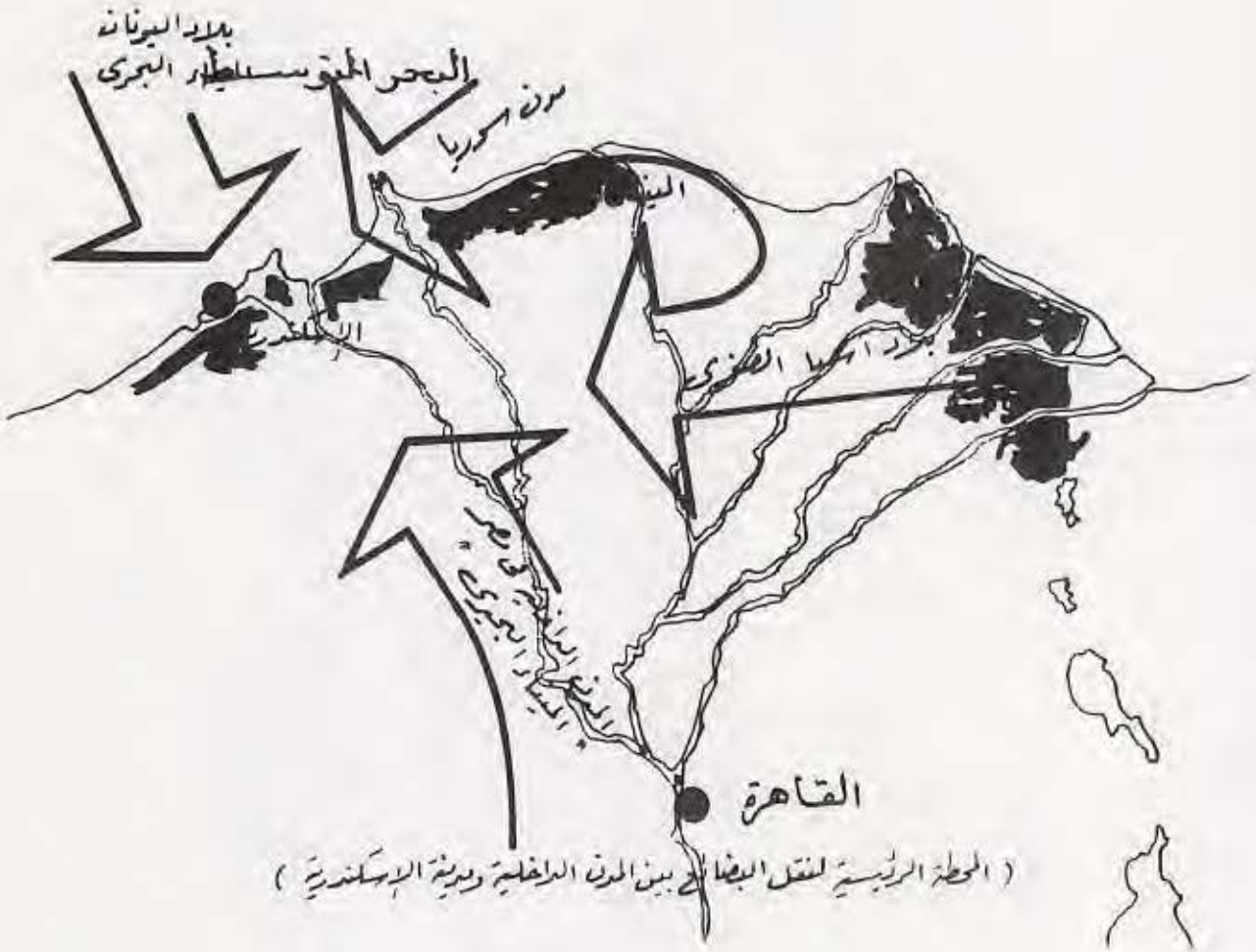

شكل رقم (٢-٨)

معهد التخطيط الإقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للأبحاث العلمية والتعاون
O.R.S.T.O.M

٢-٤-٢ أهم المدن ذات الوظيفة التجارية والصناعية فى دلتا مصر:

جمعت مدن الدلتا فى غالبية العصور بين الوظيفة التجارية والوظيفة الإدارية أو الوظيفة التجارية والحربية أو الوظيفة التجارية والوظيفة الصناعية وخاصة فى العصور الوسيطة أوكل تلك الوظائف مجتمعة.

والصناعة في مصر قديمة قدم حضارتها وتشهد الآثار المصرية إلى الآن على مهارة الصناع الحرفيين المصريين، سواء فى الصناعات التجارية أو التعدين والسباكة أو الصناعات الجلدية أو الأثاث الجنائزى والأدوات الحربية والمجلات وصناعة السفن، وأخيرا السلال والمنسوجات الدقيقة.

ويقصد بكلمة صناعة فى العصور الوسيطة هو إنتاجية المدن بما يزيد عن حاجتها المحلية وذلك بقصد الإتجار فى هذه الصناعات وتصريفها فى باقى بلدان القطر وخارجه وكانت المدن الصناعية مركزا للتجار الوافدين والمقيمين حيث تتجمع بها المصنوعات من البلدان والقرى.

وتدلنا سير التاريخ على أن مصر القديمة كانت تصدر المنسوجات والأوانى الفخارية والسلال. إلا أننا لا نملك أية معلومات على وجود مدن صناعية فى الدلتا كانت وظيفتها السائدة أو الأولى هى الوظيفة الصناعية فى العصور الكلاسيكية، فقد قامت الصناعات المختلفة فى المدن الكبرى مثل "تانيس" و"تنيس" و"هاريا" ومن الملاحظ أيضا فى العصور الوسيطة أن المدن الصناعية والتجارية لم تكن مقصورة على مدن النسيج فى وسط الدلتا "آبيار" و"التحريرية" و"سنباط" وشمال شرق الدلتا "فارسكور" و"المنزلة" بل كانت تلك الوظيفة الصناعية التجارية ضمن الوظائف للمدن المتعددة الوظائف مثل مدينة "تنيس" ومدينة"دمياط" القديمة وإن كان لتدهور الوظيفة الصناعية فى هذه المدن الكبرى أكبر الأثر فى نمو وإزدهار المدن ذات الوظيفة الصناعية فى وسط الدلتا وشمالها الشرقى.

ومن الواضح إرتباط الوظيفة الحربية بالوظيفة التجارية والصناعية وذلك بحكم الموقع الجغرافى لمثل هذه المدن، إذ غالبا ما تكون على رأس طرق هامة أو فى مناطق تغير وسائل النقل مثل الموانى الساحلية، ومن ثم تصبح هذه المدن ثغورا حربية تحل بها الأساطيل البحرية إلى جانب السفن التجارية ويستقر بها أصحاب التجارات وتناصيل الدول فى الفنادق والخانات إلى جانب أمراء الجند ورجال الأسطول فى القلاع والأبراج الحربية وهذا يتضح فى مدينة "دمياط" القديمة، وسوف نستعرض أهم المدن التى إتسمت بالنشاط التجارى والصناعى فى العصور الماضية وقد صنفت طبقا لموقعها الجغرافى:

٢-٤-٢-١ مدن شمال شرق الدلتا.

٢-٤-٢-٢ مدن شمال غرب الدلتا.

٢-٤-٢-٣ مدن وسط الدلتـــــا.

٢-٤-٢-١ مدن نجاوية فى شمال شرق الدلتا:

إن الشيء الملفت للنظر هو كثرة عدد المدن التجارية- والتى تعتمد على النشاط التجارى- فى شمال شرق الدلتا عن باقى أجزاء دلتا مصر ونذكر فى هذا المقام مدن "تنيس" و"تانيس" و"المنزلة" و"شطا" وأخيرا مدينة "دمياط"(٣٣)، بالإضافة إلى مدينة "الفرما" التى ذكرت فى الجزء السابق.

مدينة "تنيس":

وكانت مدينة عظيمة المبانى متسعة الأرجاء عامرة بالتجارة والرزق وإشتهرت بالمنسوجات الدقيقة، وقد قال عنها المقريزى(٣٤):

"كانت "تنيس" مدينة كبيرة وفيها آثار كثيرة للأوائل وكان أهلها مياسير وأصحاب ثراء وأكثرهم حاكة، وبها يحاك الثياب التى لا يصنع مثلها فى الدنيا"..." فكانت من أجل مدن مصر وإن كانت "شطا" و"ديفو" و"دميرة" و"تونة" وما قاربها من تلك الجزائر يعمل بها الرفيع فليس ذلك بقارب التنيسى والدمياطى"

مدينة المنزلة:

كانت مدينة "المنزلة" من المدائن الكبيرة الشهيرة فى الوجه البحرى وهى كمدن "تنيس" و"شطا" و"بورا" و"تونة" وكانت تشتهر بالبراعة فى المنسوجات كما إشتهر أهلها بتكسبهم من التجارة وزرع الأرز والقطن وأنواع الحبوب وصيد الطير والأسماك وأكثر سكانها صيادون *، وهناك مورده (مرفأ) بها سفن كبيرة تشحن البضائع إلى "دمياط" و"المنصورة" وتأتى ببضائع من "دمياط" و"بورسعيد".

مدينة "شطا":

قال ابن حوقل فى كتابه "المسالك والممالك":

إن "شطا" مدينة قريبة من "تنيس" و"دمياط" وفيها تعمل الثياب الشطاوية كما أنه فى "شطا" كان يعمل طرز الكمبة وهى الآن قرية من ضواحى مدينة "دمياط".

مدينة "دمياط":

وتعرف باسم "دمياط القديمة" وقد إشتهرت تلك المدينة هى الأخرى بالمنسوجات الدقيقة الجميلة مثل مدن "تنيس" و"المنزلة" و"شطا"...

---

* مدينة المنزلة الآن هى مدينة قديمة نصف متهدمة تقع على نهاية البحر الصغير الذى يجرى مكان الفرع المنديسى المندثر، وتبعد عن جزيرة المطرية بحوالى ١٢كم وهى الآن مركز فى محافظة الدقهلية.

٢ ـ ٤ ـ ٢ ـ ٢ مدن تجارية في شمال غرب الدلتا

بتحليلنا لتاريخ شمال غرب الدلتا، نجد أن هذه المنطقة تحوى ميناءين ، إحداهما للداخل نسبيا وهو مدينة "نقراطيس" والآخر على ساحل البحر مباشرة وهى مدينة "الإسكندرية".

مدينة نقراطيس:

سبق وتكلمنا عن مدينة "نقراطيس" كأهم المدن الواقعة على الفرع الكانوبى، ولكن يمكننا إضافة أن مدينة "الإسكندرية" لم تكن أول ميناء إغريقى أنشىء فى شمال غرب الدلتا، فقد ظهرت قبلها بعدة قرون مدينة "نقراطيس" على الفرع الكانوبى سنة ٦٥٠ق.م. وقد تساءل عنها هيرودوت "نقراطيس" هى المدينة التجارية الوحيدة ولم يكن غيرها في مصر(٣٥).

ومن المدن التجارية الأقل أهمية نجد "كانوب" التى كانت تتحكم فى الطريق الوحيد للسوق التجارى الوحيد للديار المصرية قبل نشأة "الإسكندرية"، و"الكريون" الواقعة على شاطىء خليج الإسكندرية، و"شبديا" (محطة الجمارك بين مريوط ومايس) و"طابوزيرس" غرب "الإسكندرية"، ثم "مريوط" أو "ماريا" التى كانت الميناء الجنوبى للإسكندرية على البحيرة كما إشتهرت بأبنيتها وزيت الزيتون والبردى. ولم تأخذ هذه المدينة فى الإنحدار إلا عندما إنحسر شاطىء البحيرة بعيدا عنها وبذا تحولت الحركة التجارية إلى نواح أخرى ثم إنتهت هذه المدينة بعد أن عمرت ألفى سنة (٣٦)، ثم "كوم تروجه" Trougah Trougi - Theroge قال عنها دارسى DARRESSEY *"أنها كانت مدينة هامة فى العصور الوسطى على ضفاف بحيرة مريوط، فقد كانت ميناء ترانزيت للمراكب المتجهة إلى "الإسكندرية" و"مريوط" خاصة فى الأوقات التى كانت قناة السويس غير صالحة للملاحة"(٣٧)*

هذا وقد توقف فيها جيش المعز قبل أن يتجه إلى الفسطاط عام ٦٩٦م كما توقف فيها بيبرس فى طريقه إلى الإسكندرية عام ١٢٦٣ و١٢٦٤ بعد زيارته لدير النطرون(٣٨)، ويفترض في الغالب أن تلك المدينة لم تكن واقعة على ضفاف بحيرة مريوط بل كانت على قناة تربط "تقراطيس" "بمريوط"(٣٩).

مدينة فوة:

لا نعرف بالتحديد متى نشأت "فوة"؟ وعما ورثت "مينيليس" القديمة ولكن من الثابت تاريخيا أن "فوه" ليست مينيليس، وقد كانت مرسى للسفن على الفرع البولبتينى ومن أهم المدن حركة وتجارة حتى أن رحالة القرن الخامس عشر قالوا عنها أنها كانت أعظم مدينة بعد "القاهرة" وكان بها قناصل للدول الأجنبية شأنها شأن المدن القريبة من البحر ولم تنقص أهمية "فوه" التجارية إلا بعد أن إنطمر فرع النيل فى جزئه الأدنى فبدأت المراكب ترسو عند "رشيد".

"رشيد":

أصبحت أكبر ميناء تجارى فى غرب الدلتا فى العصر العثمانى بدءا من ١٧٧٧ ورثت أهمية "فوه" وحلت محل "الإسكندرية" وسوف نتحدث عنها بالتفصيل فى الباب الثالث.

٣-٤-٢-٣ مدن زجاجية فى وسط الدلتا

إن الموانىء الواقعة فى وسط الدلتا متعددة وتأخذ شكلا مروحيا مركزها رأس الدلتا حيث العاصمة، وأهم تلك المدن من الشرق إلى الغرب على التوالى: مدينة "سنديس" ومدينة "سمنود" ومدينة "سايس".

وقد سبق أن تحدثنا عن كل تلك المدن بإستفاضة فى مواضع مختلفة من تلك الدراسة وعلى الأخص فى دراسة أهم المدن الواقعة على أفرع النيل القديمة.

٣-٤-٣ تدهور وإندثار المدن التجارية والصناعية القديمة:

١) بإستعراضنا لمدن بحيرة المنزلة - شمال شرق الدلتا- نجد أن تلك المدن قد تبدل فيها النشاط التجارى بصورة جوهرية وذلك نتيجة لتأثير موقع تلك المنطقة بسبب الزلازل فى أواخر القرن السادس الميلادى. فمن الملاحظ أن أغلب المدن التى كانت قائمة قبل حدوث الزلازل إعتمدت فى تجارتها على صناعة المنسوجات الدقيقة التى إشتهرت بها ، ولكن بعد تحول المنطقة من أراضى زراعية إلى بحيرات وتحول المدن العالية إلى جزر تحول بالتالى نشاطها التجارى فغلبت عليها حرفة صيد الأسماك كما إندثرت صناعة المنسوجات مثلما إندثرت العديد من مدن المنطقة وبذلك أخذت حرفة الصيد المكانة الأولى فى إقتصاد شمال شرق الدلتا.

٢) كذلك يمكننا ملاحظة أن هذا التغير فى النشاط التجارى كان لـــه آثار أخرى، فبعد أن كان نطاق النشاط التجارى لتلك المدن ممتدا خارج أرض مصر وعلى صلة بجهة الشرق على وجه الخصوص (الشام والعراق)، وأرض الحجاز (كسوة الكعبة) عندما كان النشاط الغالب هو صناعة المنسوجات الدقيقة، نجد أن نطاق النشاط التجارى البديل (صيد الأسماك) لم يعدو المدن المحيطة بالمنطقة.

٣) إعتماد أهم الموانىء والمدن التجارية ورواج نشاطها الإقتصادى تبعا للإتجاهات السياسية المتعاقبة، فنجد أن ميناء "الفرما" مثلا كان له من الأهمية فى العصر الفرعونى والإسلامى-عندما كانت "الفرما" هى محور التجارة لبلاد الشام- بينما نجدها قد إنكمشت فى العصر البطلمى لتحول التجارة عنها إلى ميناء "الإسكندرية" وكذلك فى العصرين الإغريقى والرومانى. ونستخلص من ذلك تناوب كل من ميناء الشرق (الفرما) وميناء الغرب (الإسكندرية)، الأهمية عبر العصور المتعاقبة تبعا للتيارات السياسية وتأثيرها على النشاط الإقتصادى لمدن الدلتا، ثم إنفراد ميناء "الإسكندرية" بالأهمية وذلك بعد تدمير مدينة "الفرما".

أما مدن غرب الدلتا، أمثال "تقراطيس" و"كوم تروجة" و"شدبا" و"ماريا" و"تابوزيرس" وكلها مدن إغريقية وتوابع للإسكندرية، إزدهرت بوجودها وإرتبطت حياتها بالنظام المائي لهذه المنطقة، فلما أصاب تلك المنطقة الجفاف، وإندثرت المجارى

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

المدن ذات الوظيفة الإقتصادية في العصور الوسطى العربية

- المدن التجارية والصناعية المستمرة
- المدن التجارية والصناعية المستحدثة
- ★ المدن التجارية والصناعية المندثرة

شكل رقم (٢-٩)

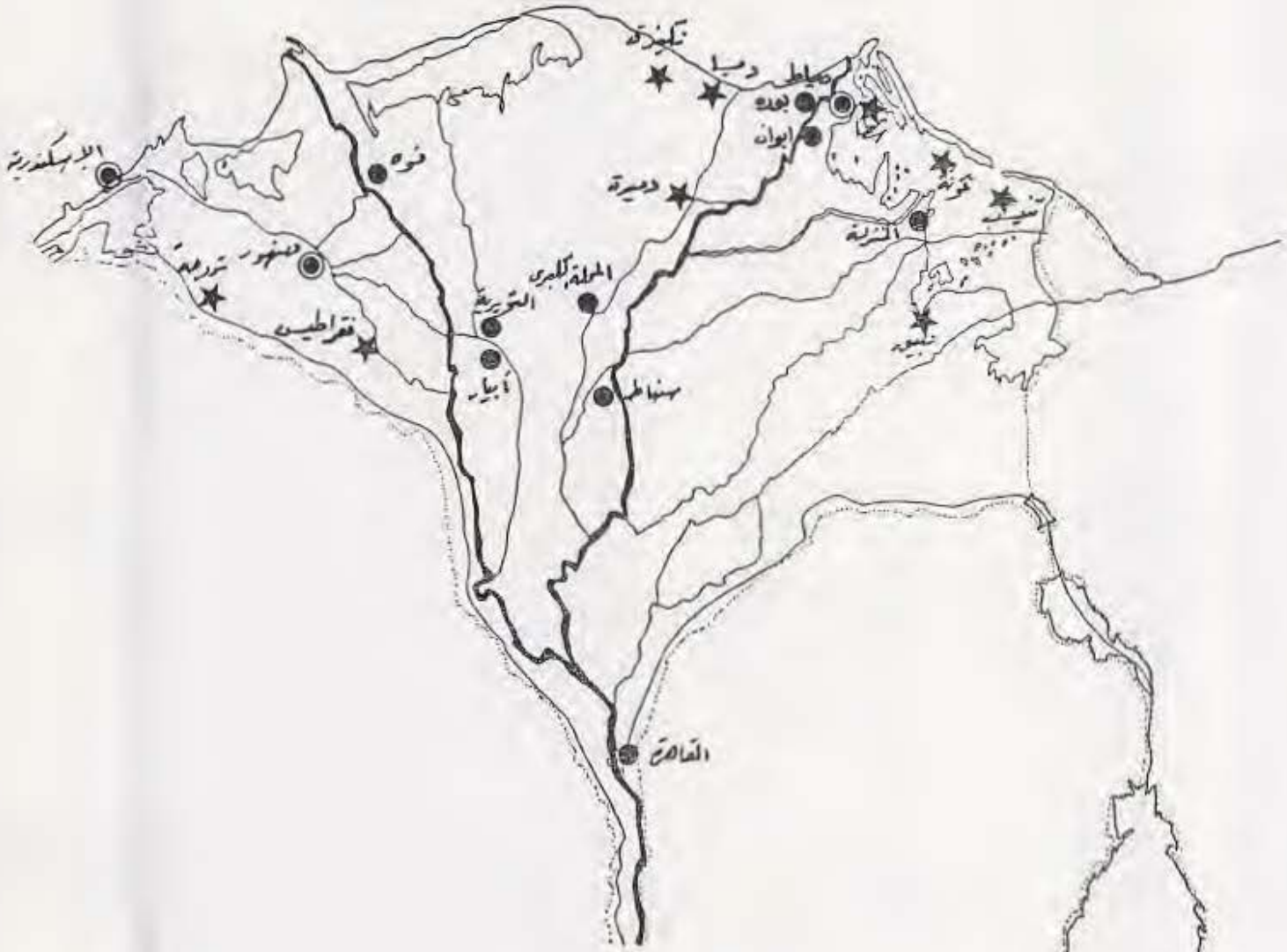

معهد التخطيط الإقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للأبحاث العلمية والتعاون
O.R.S.T.O.M

٢ ـ ٥ التقسيم الإدارى والجغرافى فى الدلتا

المائية الهامة وتحولت التجارة من الغرب إلى الشرق تدهورت تلك المراكز الحضرية وأصبحت أكوام أو تلال.

أما مدن وسط الدلتا الصناعية المستحدثة فى العصر العربى، أمثال "إبيار" و"التحريرية" و"سنباط" فقد حلت محلها مدن مستحدثة فى العصر الحديث.

وفى النهاية، فإنه تجدر الإشارة إلى ثانوية الوظيفة التجارية أو الصناعية بالنسبة للمدن المصرية بشكل عام، فبرجوازية المدن المصرية لم تكن ترتبط بطبقة التجار كما كان الحال فى أوروبا العصور الوسطى، أو فى الشام -وفى هذا، فمصر تختلف إختلافا كبيرا عن بلد شقيق مثل سوريا حيث كان "شهبندر التجار" يمثل برجوازى المدن- فقد كانت تلك الطبقة فى مصر تتمثل فى الموظفين والإداريين وفئة الحكام المحلية.

ومن هنا تأخذ الوظيفة الإداريةللمدن أهمية كبرى، لذا سوف نركز فى الفصل الأخير من هذا الباب على العامل الإدارى وأثره على أوزان المدن فى الدلتا.

لعبت المدن المصرية الثانوية على مر العصور دورا هاما فى تشكيل الحضارة المصرية وإعطائها سماتها الأساسية. فقد عرفت مصر التخطيط الإقليمى منذ عصر ما قبل الأسرات(٤٠) إذ كانت مقسمة إلى أقاليم كبرى تنقسم بدورها إلى أقاليم أصغرNomes لكل إقليم حاضرته التى كانت تؤدى إلى جانب وظائفها الإدارية والسياسية وظائف إقتصادية أو دينية أو دفاعية.

وعلى الرغم من مركزية الحكم فى أعرق دولة فى التاريخ والتى حتمت سيادة "طيبة" و"ممفيس" كحواضر كبرى ومهيمنة فى العصور الفرعونية(٤١)، فإن تغير موقع العاصمة مقر الحكم على المستوى القومى، بين مصر السفلى والعليا والوسطى، فى الدولة القديمة والمتوسطة والحديثة، قد أدى إلى نشأة نوع من الإتزان النسبى فى توزيع الأدوار والأنشطة والسكان بين العواصم الكبرى من جانب ، وبين هذه "المتروبوليس" المبكرة والمدن الثانوية من جانب آخر.

وكما أشرنا من قبل، فإن العواصم الإقليمية كانت ترقى إلى مصاف العاصمة القومية، أو تصبح عاصمة لإقليم من الإقليمين الرئيسيين (مصر السفلى والعليا) فى فترات الغزوات أو الإنحطاط وكذلك فى العصور الوسيطة. وكان يمكن لتلك العواصم أن تنافس الحواضر الكبرى مثلما حدث بين "تانيس" و"ممفيس" فى عصر الدولة الحديثة"(٤٢). وتعتبر نشأة الإسكندرية على أثر الغزو اليونانى بمثابة نقطة البداية للإنكسار التاريخى الأول الذى ألغى دور العديد من المدن الثانوية، خاصة مدن الوجه البحرى محولا إياها إلى ضواحى لهذه الحاضرة الكبرى الكاسحة التى إستحوذت على جميع الوظائف التى كانت موزعة من قبل على عدة مدن ثانوية.

فلم تمر ١٥٠ سنة على قيام "الإسكندرية" حتى أصبحت أكبر مدينة فى مصر، *"بل أكبر مدينة إغريقية فى حوض البحر المتوسط، تلتقى عندها تجارة الشرق والغرب، وتنبعث من جامعتها إشعاعات الثقافة الإغريقية. ليس هذا فحسب، بل صارت مركزا صناعيا هاما"*(٤٣) فقضت بذلك على "نقراطيس" الذى ذاعت شهرتها كأكبر مركز تجارى فى مصر وحولت "كانوب" إلى ضاحية من ضواحيها، كما غدت "طيبة"- مدينة المدائن - أقل شأنا من "بطوليميس"(٤٤)، أما "ممفيس" فقد أصبحت مجرد عاصمة إقليمية، وإن إحتفظت بأهميتها الدينية.

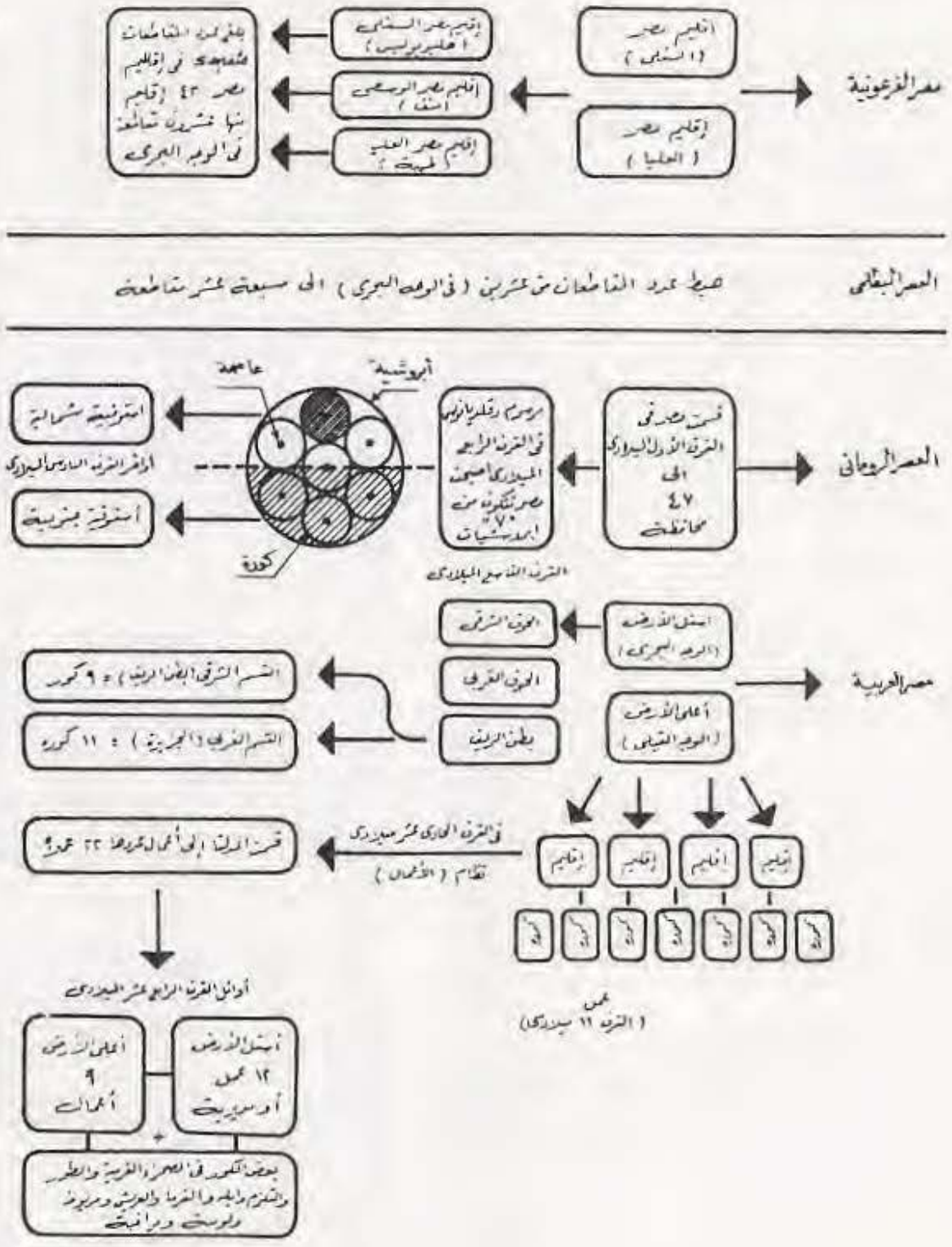

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

شكل بياني يوضح تطور التقسيم الاداري بالدلتا على مر العصور

شكل رقم (٢-١٠)

معهد التخطيط الاقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للبحوث العلمية والتعاون
O.R.S.T.O.M

وعلى الرغم من هيمنة "الإسكندرية" فإنه تجدر الإشارة إلى حقيقة هامة، وهى ثبات التقسيم الإدارى لمصر طوال العصور الفرعونية وجزء كبير من الفترة الهيلينية مما أدى إلى إحتفاظ المقاطعة أو المدينة بوحدتها الإدارية والإقتصادية، وطابعها المميز وإستمرار العواصم الدينية فى إحتفاظها بأهميتها الدينية.

إلا أن تلك الأوضاع قد تغيرت بعد صدور مرسوم دقليانوس، الذى أدى إلى تقسيم مصر إلى عدد أكبر من الأقسام الصغيرة فقضى بالتالى على أهمية العواصم الإقليمية وسيادتها وتحولت قرى ومدن كانت مضمورة إلى حواضر للأقسام الجديدة ومراكز للسلطة الدينية، وإندثرت مدن كبرى(٤٥).

وعلى اثر الفتح العربى، إنتقلت عاصمة مصر مرة أخرى إلى رأس الدلتا، وبذلك فقدت "الإسكندرية" مكانتها وتنازلت "للفسطاط" ثم "للقاهرة" عن الوظائف الإدارية أولا، ثم السياسية، وتليها بالتدريج الوظائف الإقتصادية والثقافية والدينية خاصة بعد بناء جامع الأزهر.

هذا وقد تم إدخال العديد من التعديلات على التقسيم الإدارى منذ الفتح العربى حتى العصر الحديث كنتيجة لتغير أهمية الطرق التجارية، وأيضا لتغير المحددات السياسية والجغرافية والإقتصادية والديموغرافية. وقد إنعكست آثار هذه المحددات على العلاقات بين المدن وبالتحديد على شبكة توزيع المدن الثانوية والمدن الكبرى، فإندثر العديد من المدن الهامة وتم تهميش دور البعض الآخر، وإزدهرت مدن أخرى ونشأت مدن جديدة وأصبحت عواصم الأقاليم فى الفترة الفرعونية مجرد "أكوام للسباخ" يطلق عليها علماء الآثار لفظ "كوم أو تل"، تل من الطين الغنى بالمواد المعدنية اللازمة لتسميد الأرض يخفى فى طياته بعض شواهد مئات السنين من تاريخ الحضارة المصرية مثل قطعة معدنية عليها إسم أو رمز المقاطعة، أو رأس تمثال لإله معبود. أما حجارة المعابد فقد أعيد إستعمالها بعد هدم صروح "الوثنية القديمة" فى بناء المدن الجديدة. ألم تساهم حجارة "تانيس" فى بناء جوامع "رشيد" الحديثة (٤٦) وحجارة "بولبتين" فى تشييد "الإسكندرية" (٤٧).

وعلى الرغم من إندثار وإختفاء حواضر إقليمية هامة مثل "منديس" و"بوتو" و"سايس" و"كانوب"- على سبيل المثال لا الحصر- وتحول حواضر أخرى إلى مجرد قرى أو على أقصى تقدير مراكز مثل "سمنود" (سبنيتوس) و"أتريب"، وإختفاء مدن تجارية هامة أو حصون مثل "نقراطيس" و"بيلوز" و"مومفيس" (كوم الحصن حاليا)، فإن هناك بعض المدن التى إحتفظت بمكانتها على مر العصور حتى لو تغير موقعها بعض الشىء مثل "دمنهور" وَد مياط "و"منوف" وكذلك "رشيد".

وقد تأرجحت مكانة تلك الأخيرة صعودا وهبوطا، فمن مرفأ صغير على فرع من فروع الدلتا، أصبحت عاصمة إقليمية وحصن من الحصون الهامة *، ثم تقهقرت لتصبح مجرد مركز فى مديرية ليرتفع شأنها مرة أخرى وترقى إلى محافظة ليأفل نجمها أخيرا وتغدو عاصمة مركز فى المحافظة.

وسوف نتتبع فى هذا الجزء من الدراسة تطور التقسيم الإدارى للدلتا على مر العصور بدءا من عصر ما قبل الأسرات وإنتهاءا بعصرنا هذا، ملقين الضوء على العصور التى حدثت فيها تغيرات جزرية لنستخلص سمات الثبات والتغير وكذلك لنرى موقع مدينة "رشيد "و"دمياط" من هذا التقسيم.

٢-٥-١ تطور التقسيم الإدارى والجغرافى على مر العصور

٢-٥-١-١ العصر الفرعونى:

١) مرحلة المدن الدول

على عكس ما يعتقده الكثيرون، أو بمعنى آخر ما هو شائع، فقد عرفت مصر نظام المدن الدول City states قبل ظهور الدولة المركزية مثلها مثل مدن الحضارة اليونانية وحضارة ما بين النهرين(٤٨).

"فحينما تم الإستقرار الزراعى بصورة نهائية وحاسمة وعندما تحولت القبائل الرحل والعشائر الرعوية إلى أقاليم ومقاطعات أو دول مدن، وهى التى تعرف عند الإغريق باسم Nomes، وإنتقلت بها وحدة المجتمع من دموية مغلقة إلى وحدة سكنية واسعة، من وحدة قرابة ضيقة إلى وحدة جوار رحبة، فإن التاريخ يسجل لنا

* ذكرها إسترابو وهيرودوت وجورج القبرصى ويلاين ضمن المدن المحصنة التى كانت على أفرع الدلتا.

مرحلة كانت تنقاسم مصر فيها كوكبة من تلك المقاطعات أشبه ما تكون بمرحلة الإقطاع السياسى ودول المدن التى لم تعرفها أوروبا إلا فى العصور الوسطى أو هى أشبه ما تكون بال Bastides فى فرنسا حتى الثورة. وقد كانت تلك الوحدات فى الحقيقة وحدات هيدرولوجية محلية أو قد يكون أساسها هو تخزين حبوب الدول كما يرى "بترى"، فهو يجد أن عواصم هذه المدن الدول أو Nomes فى الدلتا كانت تتباعد عن بعضها البعض بفاصل منتظم إلى حد بعيد مقداره نحو ٢١ ميلا، ويعتقد أن السبب هو صعوبة نقل الحبوب والغلال لمسافات أبعد، فكان إقتصاديا أفضل لها أن تخذ الوحدات السياسية بهذه الأبعاد". (٤٩)

"أيا ما كان، فلقد كانت المرحلة قصيرة العمر نسبيا، وسرعان ما إختزلت هذه الوحدات إلى وحدتين رئيسيتين هما الوجهان البحرى والقبلى تداران من عاصمتين متباعدتا الموقع بوضوح وهما على الترتيب "بوتو" (تل الفراعين) و"طيبة" (أبيدوس العراية المدفونة) ...وبذلك بدأت مرحلة الوحدة الإقليمية، كما ظهرت إلى الوجود أول أمة بالمعنى الحديث، لقد خلقت أول أمة عن طريق الحرب...وبذلك أثبتت الحرب أنها مولدة الأمم"(٥٠)

ب) من بداية عصر الأسرات إلى الغزو اليونانى*

من الصعب رسم صورة واضحة عن التقسيم الإدارى لمصر الفرعونية وذلك لقلة ما لدينا من معلومات عن هذا الموضوع. والذى نستطيع ذكره هنا هو أن مصر الفرعونية كانت تنقسم إلى إقليمين إداريين رئيسيين هما: إقليم مصر السفلى وإقليم مصر العليا.

ثم تغير هذا التقسيم فى فترة متأخرة فأصبح هناك ثلاثة أقسام إدارية رئيسية بدلا من قسمين هى:

- مصر السفلى وعاصمتها هيليوبوليس، وتبدأ من البحر حتى رأس الدلتا.
- مصر الوسطى وعاصمتها منف، وتبدأ من رأس الدلتا حتى قرب أبى تيج.
- مصر العليا وعاصمتها طيبة، وتشمل بقية الوادى حتى أسوان.

وقد إنقسمت هذه الوحدات الكبيرة إلى مقاطعات أو أقاليم Sepats بلغت كما يرجح أرمان ERMAN إثنين وأربعين مقاطعة، منها إثنان وعشرون فى الوجه القبلى، والباقى فى الوجه البحرى"(٥١). وكما أشرنا من قبل، فإن هذه الأقاليم ظهرت قبل بدء التاريخ.

كانت المقاطعات على أية حال صغيرة المساحة بلغ متوسط طولها ٣٢ كم، أما عرضها فكان يتوقف على الموقع بالنسبة للوادى، فحيث يتسع الوادى تقع المقاطعة على جانب واحد وحيث يضيق تمتد على كلا الجانبين.

وبالرجوع إلى قائمة سنوسرت الأول نجد أن مقاطعات الوجه البحرى التى بلغ عددها ٢٠ مقاطعة بما فى ذلك مقاطعة "منف"، كانت تنقسم إلى قسمين رئيسيين: قسم شرقى وآخر غربى. ولكن يلاحظ أنه بينما كان الترتيب العددى لمقاطعات القسم الغربى من الجنوب الشمالى منظما نجد أنه لم يكن كذلك بالنسبة لمقاطعات القسم الشرقى، كما لم يقتصر وجود مدن الدلتا الهامة على أجزائها الجنوبية وإنما قامت مدن أخرى فى أجزائها الشمالية مثل "خبيت" و"بعج" و"تنى" مما يدل على إنها كانت مزدهرة آهلة بالسكان(٥٢).

وشملت كل مقاطعة إلى جانب العاصمة عددا من القرى وما يحوطها من أراضى زراعية ومنافع ومراع، وقد أطلق عليها فى الغالب إسم حاضرتها، وعبد أهلها آلهة محلية كان بعضها يكتسب قداسة واسعة إذا ما إرتفع شأن المقاطعة. وكيفما كان الأمر فقد كان لكل إقليم جوه الدينى ومشكلاته الزراعية وبيئته الجغرافية التى تختلف فى تفصيلاتها عن بقية البيئات.

وتختلف مقاطعات الوجه البحرى عن مقاطعات الصعيد فى أن حدودها كانت أكثر تغيرا بسبب إتساع أراضى الدلتا وتغير أفرع النيل، كماكانت أكثر إتصالا ببعضها وبالعالم الخارجى. وقد أدت سهولة الإتصال هذه إلى نشاط تجارى مبكر وغنى تراث أهل الدلتا المادى والثقافى. ولكن من المؤسف أن معلوماتنا عن مقاطعات الدلتا ومدنها قليلة

---

*إقتبسنا هذه الجزء الخاص بتطوير التقسيم الإدارى من كتاب د. عبد الفتاح وهيبة"دراسة فى جغرافية مصر التاريخية ص ٣٤٤-٣٦٢، مصحوبا بالتعليق الخاص بنا كلما إقتضى الأمر ذلك.

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري

مدن الدلتا

عواصم الأقاليم بمنطقة الدلتا في العصر الفرعوني

شكل رقم (٢ - ١١)

N

٠ ١١٫٥ ٢٣ ٣٤٫٥ ٤٦ ٥٧٫٥ ٦٩ كم

معهد التخطيط الاقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للأبحاث العلمية والتعاون
O.R.S.T.O.M

متفرقة بسبب تحلل الآثار وإنطمارها، وهذا ما يؤكده جورج بوزنير G. POSENER فقال "تمثل مساحة الدلتا التى تتكون من الأراضى الرسوبية الخصبة ضعف مساحة أراضى الوادى من "ممفيس" حتى الشلال الأول"... "وقد إستطاعت طبيعة أراضى الجنوب بحوافها الصخرية أن تحمى المقابر التى تحت داخل الصخر من الإندثار، وبالتالى فقد أمدتنا بمعلومات وافرة عن التجمعات العمرانية فى مصر العليا، أما فى الدلتا حيث كان النيل يرسب طبقة سمكها ١٠سم كل عام على مر آلاف السنين مما أدى إلى إرتفاع مستوى أرض الدلتا عدة أمتار أدت إلى إختفاء العديد من المعابد والمقابر الأثرية"... "وإذا كانت نسبة الترسيب قد قلت فى العصر الحديث نتيجة لبناء السدود، فإن الحاجة إلى الأسمدة العضوية المتوفرة فى طمى النيل قد دفعت الفلاحين إلى إستغلال الأكوام والتلال التى تمثل أطلال المدن المندثرة"(٥٣).

وبالرجوع إلى قائمة تلال السباخ التى نشرت فى الجريدة الرسمية عام ١٩١٠م، نجد أنها إحتوت على ٣٨٩ موقع فى مصر السفلى مقابل ١٤٧ فى مصر العليا، وهذا يعطينا صورة واضحة عن إنطمار وإختفاء العديد من المعلومات التى كان يمكن أن تعطينا صورة جيدة عن عمران منطقة الدلتا.

وفى أقصى الشمال الشرقى للدلتا قامت مدينة "باوار من" (الفرما)، وكانت هذه المدينة هى إحدى مدن الحدود الحصينة، منها بدأت الرحلات والحملات إلى بلاد الشام كما كان يتصل بها سلسلة من المحطات المنتظمة تقوم على حراسة معظم الحدود الشرقية المعرضة للخطر(٥٤).

ويذكر هنرى جوتييه H.GAUTHIER أن عدد أقاليم الدلتا كان ١٦ (ستة عشر) إقليما خلال الأسرة الثانية عشرة كما أنه لم يصل إلى عشرين إقليما حتى الأسرة التاسعة والعشرين، وهى العشرين قسم أو Nomeالتى وجدت فى قائمة البطالمة(٥٥)، كما أنه يشير إلى أن عدد المقاطعات أو الأقسام قد تضاعف فى الفترات اللاحقة فوصل إلى خمسين فى الدلتا على سبيل المثال.

ويعلل هنرى جوتييه الأسباب الرئيسية لتغير التقسيم الإدارى وزيادة أو تقصان عدد الأقاليم وتغير أسمائها والتضارب فى عددها للآتى:

أ) إنكماش دور بعض المدن وإزدهار البعض الآخر أحدث تكوينا جديد للتقسيم الإدارى مما يؤدى إلى عدم تطابق إسم عاصمة الإقليم مع إسم الإقليم.

ب) تقسيم الإقليم إلى أقاليم أصغر أو إندماج إقليمين فى إقليم واحد أكبر. وكمثال لما سبق قوله، نجد أنه ظهرت فى منطقة بحيرات البرلس نتيجة لتقسيم الإقليم السادس إلى جزئين :عاصمة جديدة أو Nome يطلق عليها إسم "شميس" Chemite (كوم خبيزة حاليا) بينما ظل الجزء الآخر للإقليم السادس محتفظا بعاصمة "سخا" أو Xois.

وقد إحتوى هذا الإقليم على مدينة "بوتو" المقدسة، مقر عبادة الآلهة واست، ثم أصبحت "بوتو" عاصمة هذا الإقليم فى فترة لا يمكن تحديدها بدقة ولكن يمكن القول أنها تنحصر بين زيارة هيرودوت لمصر وبلاين PLINE .

ويعطى هنرى جوتييه مثالا آخر لتغير التقسيم الإدارى، وإرتقاء مدينة صغرى إلى مرتبة العاصمة الإقليمية. فيذكر أنه فى زمن هيرودوت كانت "بيلوز" مجرد مرفأ تجارى يونانى حديث النشأة وكانت مجرد ضاحية لمدينة "باپريمس" الوطنية Paprimis والتى أعطت إسمها للعاصمة Nome الذى تمثل إقليمها، إلا أن "بيلوز" بدأت تتسع وتنمو عمرانيا حتى وصلت حدودها إلى Paprimis وإبتلعتها ثم تخطتها وأصبحت هى عاصمة الإقليم برمته(٥٦).

٢-٥-١-٢ العصر البطلمى

من الخطأ الإعتقاد بأن الإغريق إحتفظوا بالتقسيم الإدارى للفراعنة وأعطوا فقط للمدن المصرية ومقاطعاتها أسماء إغريقية. ومعظم معلوماتنا عن أقسام الدلتا فى هذا العصر نستقيها من ديودور الصقلى الذى زار مصر فى سنة ٥٩ق.م.، وسترابو الذى قام بزيارة مصر سنة ٢٤ق.م. ويذكرهـ.جوتييه إستنادا إلى هذين المصدرين، أن التغيير فى التقسيم الإدارى لمصر السفلى قد بدأ فى عصر الغزو الفارسى، أى قبل الغزو اليونانى، كما أن عدد المقاطعات هبط من ٢٠ مقاطعة إلى ١٧ مقاطعة. أما فى الفترة ما بين الغزوين اليونانى والرومانى، فقد حدثت تغيرات جزئت بمقتضاها بعض الأقاليم وأنشئت أقاليم أخرى مستحدثة، خاصة فى غرب الدلتا أى فى إقليم البحيرة.

ويسوق هـ. جوتييه أمثلة مقاطعة مينيلاييس Ménélaite وعاصمتها مدينة "كانوب"، ومقاطعة نيتروييت Nitroite وعاصمة "تيرنيوتيس" Thérénoutis (تل أبو بيلا الحالى)- كذلك مقاطعة فيتيمفوتى Phethemphuti وعاصمتها "توندتا"

(طنطا الحالية)، ومقاطعة هليوبوليس وعاصمتها "بابليون" وهى جزء من مقاطعة هليوبوليس(٥٧).

أما مقاطعة بولبتين Bolbitine وعاصمتها مدينة "بولبتين"، فيرجع جوتبيه نشأتها إلى نهاية العصر الفرعونى، مما يدل على أن نشأة الإسكندرية لم تؤثر بالسالب على مدينة "بولبتين" كما هو شائع، فتلك المدينة كانت تتبع المقاطعة السابعة طبقا لما جاء فى مصادر مختلفة (٥٨)، وكونها أصبحت عاصمة إقليمية فى العصر البطلمى- أو ما قبل ذلك- لدليل على أن هذا المرفأ قليل الأهمية قد إزدهر فى تلك الفترة - وهذا ليس بغريب- فالمصادر التاريخية تشير إلى أن هناك عدة مرافىء كانت مطمورة قبل نشأة الإسكندرية فقدت بعض وظائفها بالتأكيد ولكنها إزدهرت كموانىء ترانزيت مثل "كانوب" و"شيديا"(٥٩) هذا ولا يتسع لنا تضارب قوائم المؤرخين أن نستخلص صورة واضحة عن التقسيم الإدارى فى هذا العصر.

٢-٥-١-٣ العصر الرومانى

فى القرن الأول الميلادى، وضع بلينى PLINY الرومانى موسوعته المسماه "التاريخ الطبيعى" وذكر فيها مصر وتحدث عن نيلها وأقسامها الإدارية. فذكر أن مصر تنقسم إلى ٤٧ محافظة Nomes, Prefectures منها ١١ محافظة في الصعيد الأعلى (جنوب أسيوط)، والباقى موزع بين مصر الوسطى والدلتا، وعلى ساحل البحر المتوسط وفى منخفض الواحات. وردد بلينى ما إدعاه أرتيميدورس ARTEMIDORUS من أن بالدلتا وحدها ٣٥٠ مدينة ولكنه لم يذكر منها غير ٦١ مدينة كانت -كما قال- أكثر مدن مصر حجما وشهرة منها مدينة "الإسكندرية"، عاصمة مصر ومدينتها الأولى .

ثم جاء بطليموس الجغرافى فى القرن الثانى الميلادى ورسم خريطة لمصر الرومانية، وبين عليها مواضع كثير من المدن وحدد وظائفها فميز العواصم الإقليمية وأشار إلى المدن الأخرى الأقل أهمية. ومما ذكره يتبن أن مصر كانت تنقسم إلى ٤٧ محافظة، أى نفس العدد الذى ذكره بلينى، وأن أسماء كثير من المحافظات مشتقة من أسماء عواصمها.

ويمكن القول في هذا المقام أن التقسيم الإدارى فى مصر ظل طوال العصور الفرعونية وجزء كبير من الفترة الهيلينية ذا نمط خاص لم يتغير فى معظم تفصيلاته - وذلك بالرغم من بعض التغيرات التى سبق وأوضحنا أسبابها - فالمحافظة أو المديرية هى وحدة إدارية وإقتصادية لها حياتها الخاصة وطابعها المميز تقوم عاصمتها كمركز إدارى يحكم ويشرف على الأراضى وكسوق تجارية تستغل موضعها على النيل أو أحد فروعه أحسن إستغلال. وكانت عاصمة المحافظة فى واقع الأمر هى نافذتها على العالم الخارجى وقلبها النابض بالنشاط والحركة ومقر أصحاب الأرض من الطبقة الراقية.

وقد شهد التقسيم الإدارى فى مصر تحولا كبيرا بعد صدور مرسوم دقلديانوس فى صدر القرن الرابع الميلادى الخاص بتغيير الإدارة وأقسام مصر الإدارية التى عرفتها بصورة تكاد تكون ثابتة قرابة ٤٠ قرنا. ولعل أهم أسباب هذا التغيير ما يتصل بنقص السكان وإنخفاض إنتاج الأرض نتيجة للصراع الدموى بين المذاهب الدينية وهجر كثير من الفلاحين للأرض هربا من ظلم جباة الضرائب والتنكيل بأصحاب الأرض وإقبال الكثير من القبط على حياة الرهبنة والعزلة إتقاء لشر الحاكم وإضطهاده لهم.

قسمت مصر إذن على أثر صدور هذا المرسوم إلى عدد أكبر من الأقسام الصغيرة Pagi لكل قسم منها عاصمته وأرضه الزراعية ويتمتع بسلطة كبيرة فـــى إدارة أموره *. وهكذا قضى على أهمية العواصم الإقليمية وسيادتها وإندثرت مدن وتحولت قرى ومدن كانت مغمورة إلى حواضر للأقسام الجديدة ومراكز للسلطة الدينية (٦٠)، ويبدو أن هذه الأقسام الصغيرة إنتظمت فيما بعد داخل إطار "أبروشيات" أشار إليها هيروكليز HEROCLES فى النصف الأول من القرن السادس الميلادى فى كتابه المعروف باسم"رفيق السفر"، فنجد أن مصر قسمت إلى سبع إبروشيات Eparchies كان أهمها جميعا وأكثرها مدنا (٢٣ مدينة) هى إبروشيه مصر AEGYPTIACA وتشمل الجزء الأكبر من غرب ووسط الدلتا، ثم جاء بعدها من حيث الأهمية إبروشية أوجستا الأولى التى كانت تشمل الجزء الشمالى الشرقى من الدلتا وشمال سيناء حتى العريش وقامت بها ١٣ مدينة هامة .

---

* هذه الأقسام هى "الكور" التى عرفتها مصر فى صدر الإسلام، وكلمة كورة كلمة إغريقية ومعناها دائرة.

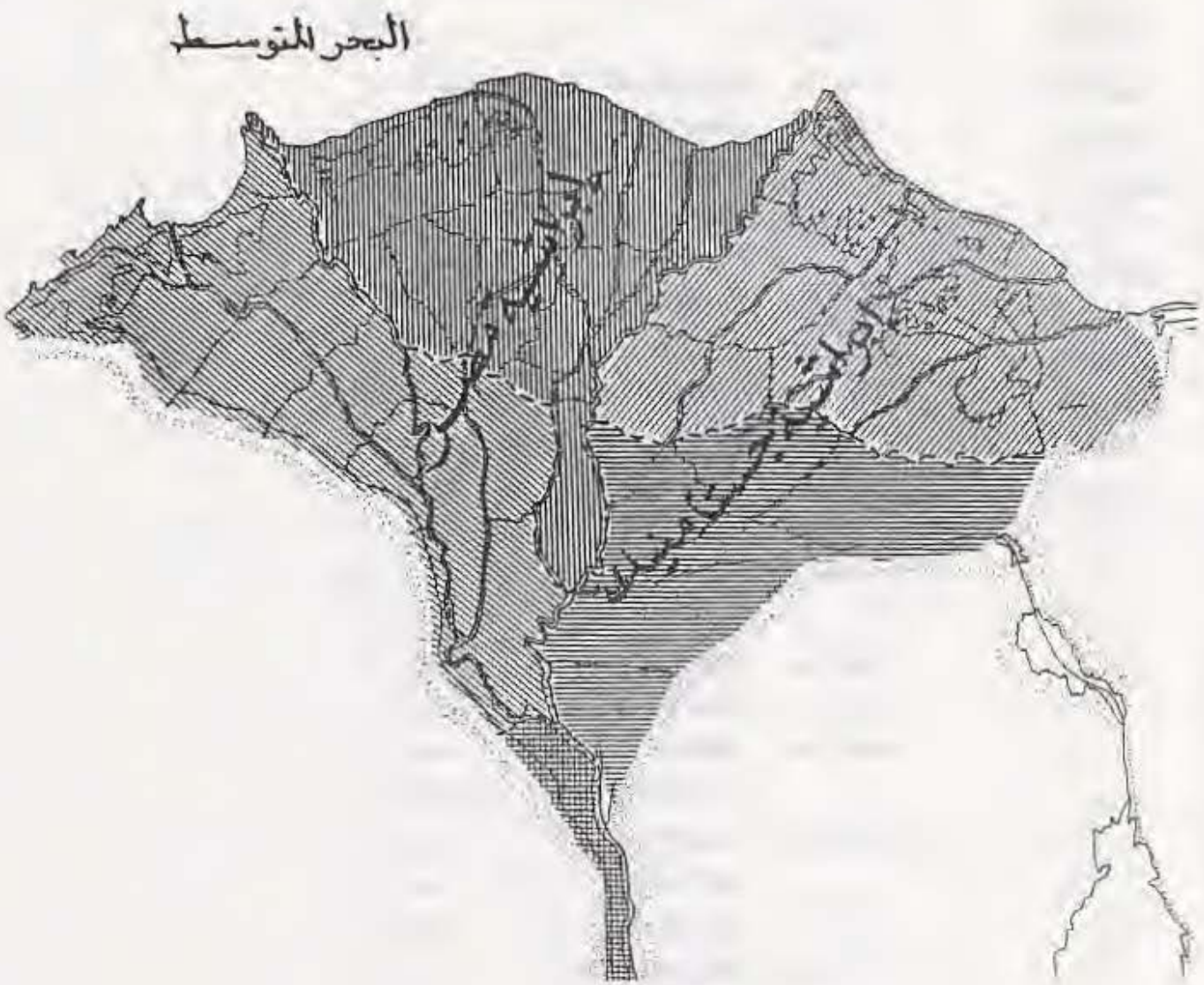

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

التقسيمات الإدارية الكبرى
في نهاية العصر البيزنطي
لجوريج قبرصي - الفترة الأولى

شكل رقم (٢-١٢)
المصدر : عمر طوسون

N

معهد التخطيط الإقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للبحث العلمي
والتعاون
O.R.S.T.O.M

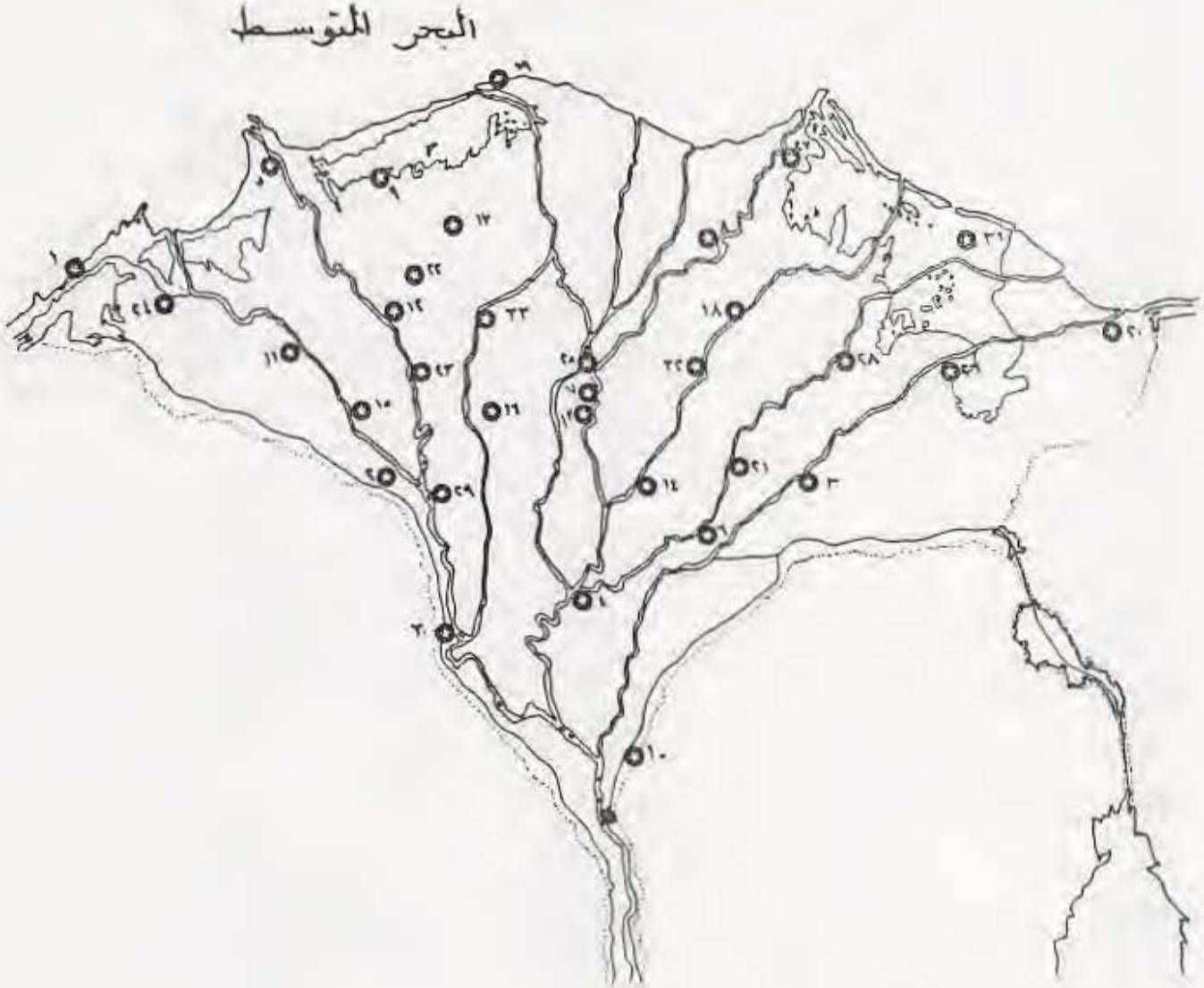

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

عواصم الكور (الجوهج القبرصي) قبل الفتح العربي
(الفترة الأولى)

شكل رقم (٢-١٢)

المصدر : عمر طوسون

N

٢٩ كم ٤٦ ٣٤ ٢٣ ١٢ ميل

معهد التخطيط الإقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للأبحاث العلمية والتعاون
O.R.S.T.O.M

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

التقسيمات الإدارية الصغرى
(الفترة الأولى)
في العصر البيزنطي (٣٢) كورة
لجورج قبرصي

شكل رقم (٢-١٤)

المصدر: عن طوسون

N

٠ ١١ ٢٢ ٣٣ ٤١ ٥٥ ٦٩ كم

معهد التخطيط الإقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للأبحاث العلمية
والتعاون
O.R.S.T.O.M

وقبل دخول العرب مصر بنحو ٢٥ عاما (٦٠٦م) وصف جورج القبرصى العالم الرومانى ولكنه حين أشار إلى مصر إكتفى بسرد قوائم أسماء المدن الهامة التى أصبحت مراكز للأسقوفيات القبطية والتلميح إلى الأقسام الإدارية الرئيسية التى كانت تنقسم إليها مصر. فقد ذكر ٣٣ قسما فى الدلتا (كورة) ويقارنة تقسيم هيروكليس بالتقسيم الإدارى الذى وصفه جورج القبرصى نجد أن الإختلاف طفيف فإبروشيه مصر التى أشار إليها هيروكليس إنقسمت إلى أسقوفيتين شمالية وجنوبية، كذلك لم تختلف حدود أبروشيتى أوجستا الأولى والثانية عن حدود أسقوفيتى أوجستامنكا الأولى والثانية .

٣-٥-١-٤ العصر العربى

أبقى العرب فى أول عهدهم بمصر على التقسيم الإدارى البيزنطى الذى وجدوه وإن كانوا قد أطلقوا إسم "أسفل الأرض" على الوجه البحرى وإسم "أعلى الأرض" على الوجه القبلى ، كما أطلقوا إسم "الحوف" على أسقوفيتى أوجستامنكا الأولى والثانية، كذلك عرفوا أسقوفية مصر الأولى والثانية باسم "الريف"(٦١)، وهنا نلاحظ أن أسقوفية "ليبيا" الرومانية سميت "إقليم الإسكندرية"، وقد إمتد هذا الإقليم شرقا ليشمل منطقة "رشيد"(٦٢) كما إعتبرت الواحات وحدة إدارية منفصلة كما كانت الحال فى العصر البيزنطى . وكانت الأقاليم الرئيسية مقسمة إلى نحو ٨٥ كورة - فى فجر الإسلام - منها حوالى ٤٦ فى الدلتا، كما تخبرنا الوثائق العربية. لكن هذا العدد أخذ يتناقص على مر الزمن حتى أستبدلت الكورة كأساس للتنظيم الإدارى بوحدة أكبر فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر كما سنشير فيما بعد.

ثم أدخل تعديل على أقسام مصر الكبرى فى القرن التاسع الميلادى، ولكن كل معلوماتنا فى هذا التعديل تقتصر على أسفل الأرض. ففى أوائل هذا القرن صارت أراضى الدلتا ثلاثة أقسام:

١) الحوف الشرقى .
٢) الحوف الغربى .
٣) بطن الريـــف .

وكان "الحوف الشرقى" هو الحوف القديم ما عدا الأراضى الواقعة شمال بحر أبى صير، وشمال "الحوف الغربى" هى الأراضى الواقعة إلى الغرب من فرع رشيد وكذلك بعض الجهات التى تقع شرقى هذا الفرع إلى الشمال من صا الحجر. أما بقية الأراضى الواقعة بين الفرعين والأراضى شمالى بحر أبو صير فسميت "بطن الريف".ثم حدث فى أواخر القرن التاسع أن قسم "بطن الريف" إلى قسمين:

القسم الشرقى، ويضم تسع كور وإحتفظ باسم "بطن الريف" **والقسم الغربى**، وضم إحدى عشرة كورة وعرف باسم "الجزيرة ". ومما ينبغى تسجيله هنا أنه منذ دخول العرب مصر حتى أواخر القرن الحادى عشر إقتصر التغيير على الأقسام الكبيرة، أما الكور فظلت فى مجموعها كما هى فى أنحاء مصر طوال تلك الفترة. ولكن ما أن قارب القرن الحادى عشر على الإنتهاء، حتى كان التقسيم الإدارى لمصر قد أصابه تغيير أساسى ، فقد ألغى نظام "الكور" أو الأقسام الصغيرة التى عرفتها مصر مدة طويلة، وكذلك ألغيت الأقاليم الأربعة الكبيرة التى عرفت منذ أيام الدولة البيزنطية وحل محلها نظام "الأعمال" وهى أقسام ضم الواحد منها أكثر من كورة.

ولم يبلغنا من أمر هذا التقسيم الجديد شىء يذكر وكل ما نعرفه هو أن كور الدلتا التى بلغ عددها حينذاك ٤٦ كورة صارت ٢٢ عملا لكل منها عاصمة. وفى سنة ١٢٩٠م شهدت مصر تعديلات طفيفة فى عصر السلطان حسام الدين لاجين وكذلك فى أوائل القرن الرابع عشر فى عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون حيث أعيد تقسيم مصر إداريا وأعيد توزيع الأرض على رجال الجيش والأمراء كما أخبرنا ابن الجيعان فى كتاب "التحفة السنية".

ونتبين من هذا التقسيم أن "أسفل الأرض" قسم إلى ١٢ عملا أو مديرية بلغ عدد قراها ١٦٧٣ قرية بينما قسم "أعلى الأرض" إلى تسعة أعمال بلغ عدد قراها ٦٧٩ قرية، إلى جانب هذه الأعمال التى إنقسمت إليها الدلتا والصعيد كان هناك "كور" الواحات فى الصحراء الغربية والطور والقلزم وأيلة والفرما والعريش ومريوط ولوبية ومراقية، وكلها أقسام حدية تستقبل بعض الصادر والوارد وتسهم فى جمع الضرائب المفروضة على التجارة لذلك وجد من الأفضل تركها قائمة دون إدماج (٦٣).

وإن دل هذا التغيير الجديد على شىء فإنما يدل على نقص عدد السكان بالقياس إلى ما كانوا عليه قبل القرن الرابع عشر، وعلى سبيل المثال فإن إقليم الفيوم إحتوى على

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

التقسيمات الإدارية الكبرى بعد الفتح العربي
(الفترة الثانية)

شكل رقم (٢-١٥)
المصدر : عمر طوسون

N

معهد التخطيط الإقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للأبحاث العلمية والتعاون
O.R.S.T.O.M

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

التقسيمات الإدارية الصغرى (٤٦ كورة) بعد الفتح العربي
(الفترة الثانية)

شكل رقم (٢ - ١٦)

المصدر : عمر طوسون

N

معهد التخطيط الإقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للبحوث العلمية والتعاون
O.R.S.T.O.M

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

التقسيمات الإدارية الكبرى في القرن الثالث الهجري
الفترة الثالثة

شكل رقم (٢-١٧)
المصدر : عمر طوسون

N

٠ ١١٥ ٢٣ ٣٤٥ ٤٦ ٦٩ كم

معهد التخطيط الإقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي لأبحاث التنمية والتعاون
O.R.S.T.O.M

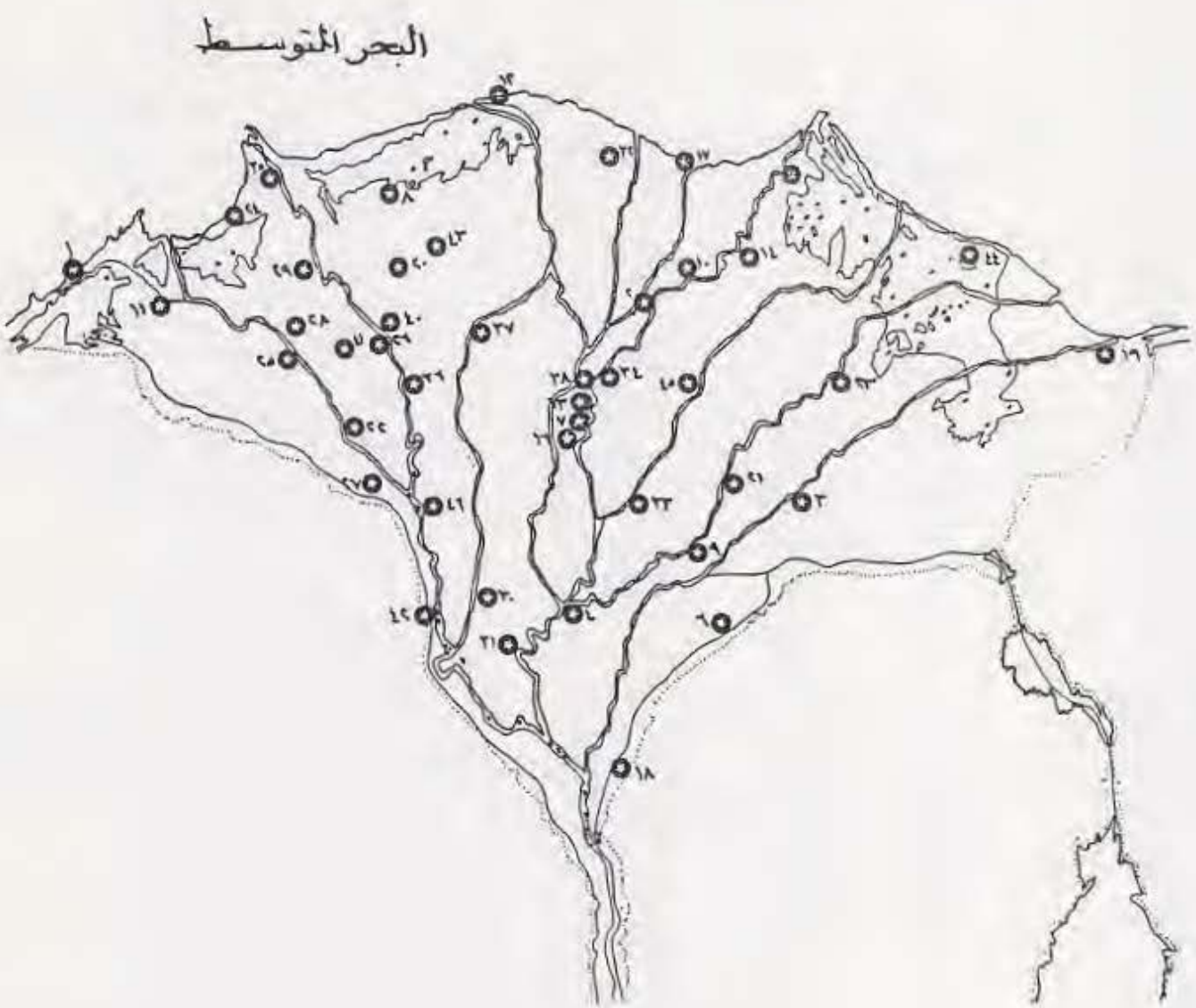

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

عواصم الكور (٤٦ كورة) بعد الفتح العربي

شكل رقم (٢-١٨)

المصدر : عمر طوسون

N

معهد التخطيط الاقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للبحث العلمي
والتعاون
O.R.S.T.O.M

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

التقسيمات الإدارية الصغرى (٤٦ كورة) في القرن الثالث الهجري
(الفترة الثالثة)

شكل رقم (٢ - ١٦)

المصدر : هرطومسون

N

٠ ١٣ ٢٦ ٣٩ ٥٢ ٦٥ كم

معهد التخطيط الاقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي لأبحاث التنمية والتعاون
O.R.S.T.O.M

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

التقسيمات الادارية الكبرى
في القرن الحادي عشر الميلادي
(الفترة الرابعة)

شكل رقم (٢ - ٢٠)

معهد التخطيط الاقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للبحوث العلمية
والتعاون
O.R.S.T.O.M

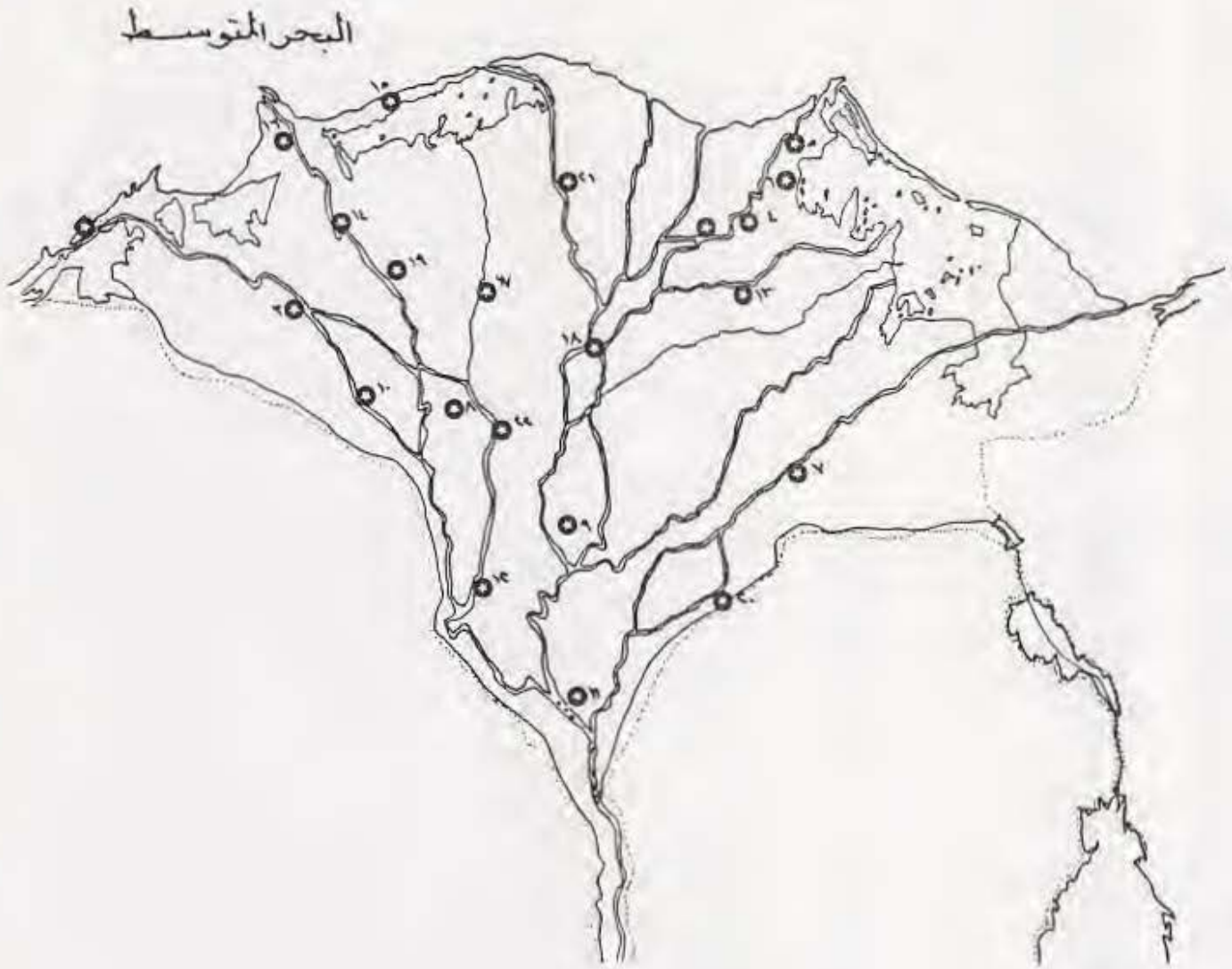

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

عواصم الأقاليم الصغرى (٢٢ مدينة)
في القرن الحادي عشر الميلادي
(الفترة الرابعة)

شكل رقم (٢-٢١)
المصدر : عمر طوسون

N

٠ ١٣ ٢٣ ٣٤ ٤٦ ٥٦ ٦٩ كم

معهد التخطيط الإقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للأبحاث العلمية
والتعاون
O.R.S.T.O.M

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

التقسيمات الإدارية الصغرى
(الفترة الرابعة)

شكل رقم (٢-٢٢)

N

معهد التخطيط الإقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي لأبحاث التنمية والتعاون
O.R.S.T.O.M

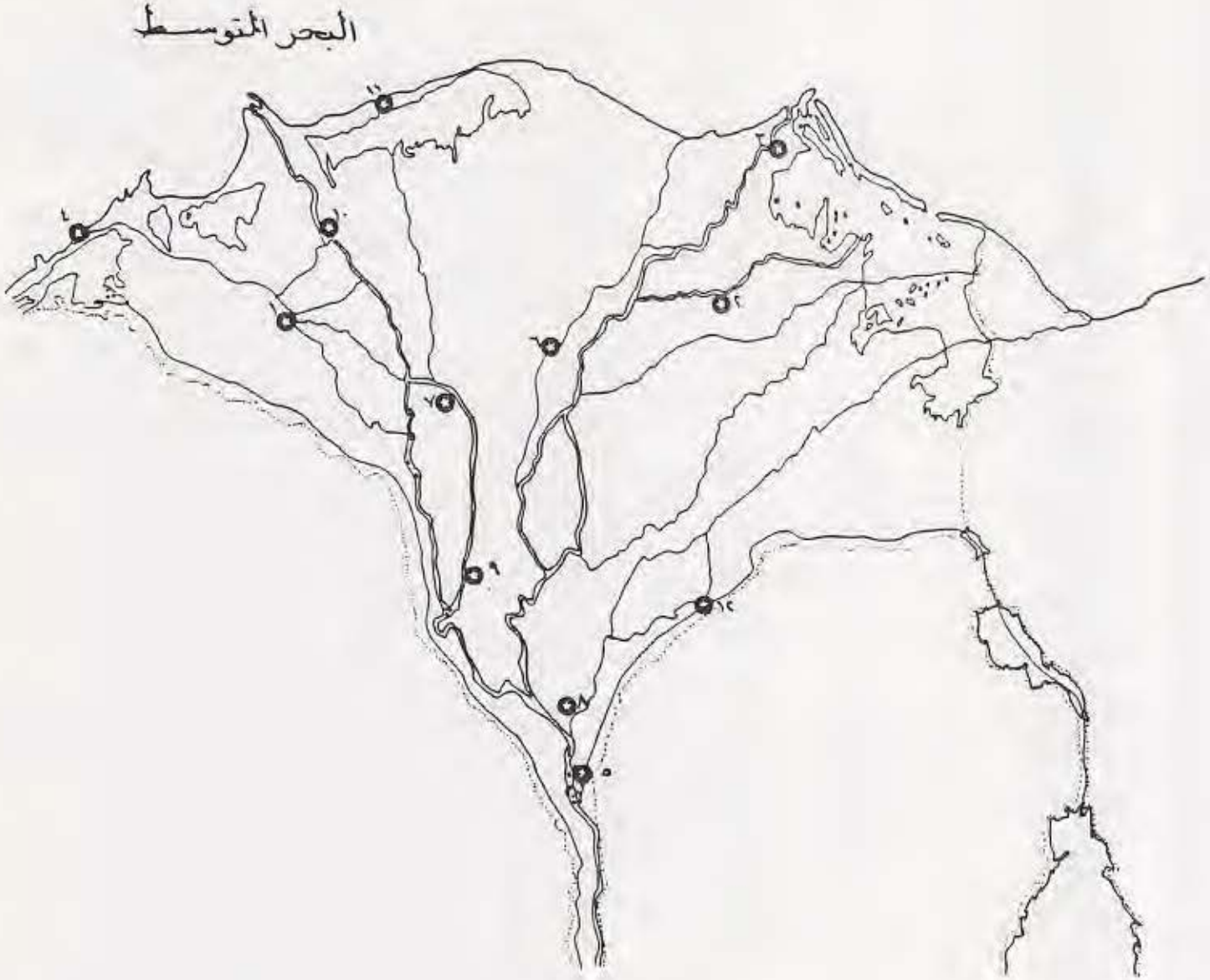

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

عواصم الأعمال الكبرى (١٢ عمل) في القرن الرابع عشر الميلادي
(الفترة الخامسة)

شكل رقم (٢-٢٣)

المصدر: عمر طوسون

N

معهد التخطيط الإقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للأبحاث التنمية والتعاون
O.R.S.T.O.M

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

الحدود الإدارية للأعمال الكبرى
(١٢ عمل) في القرن الرابع عشر الميلادي
(الفترة الخامسة)

شكل رقم (٣-٢٤)
المصدر : محمد طوسون

N

معهد التخطيط الإقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للبحوث العلمية
والتعاون
O.R.S.T.O.M

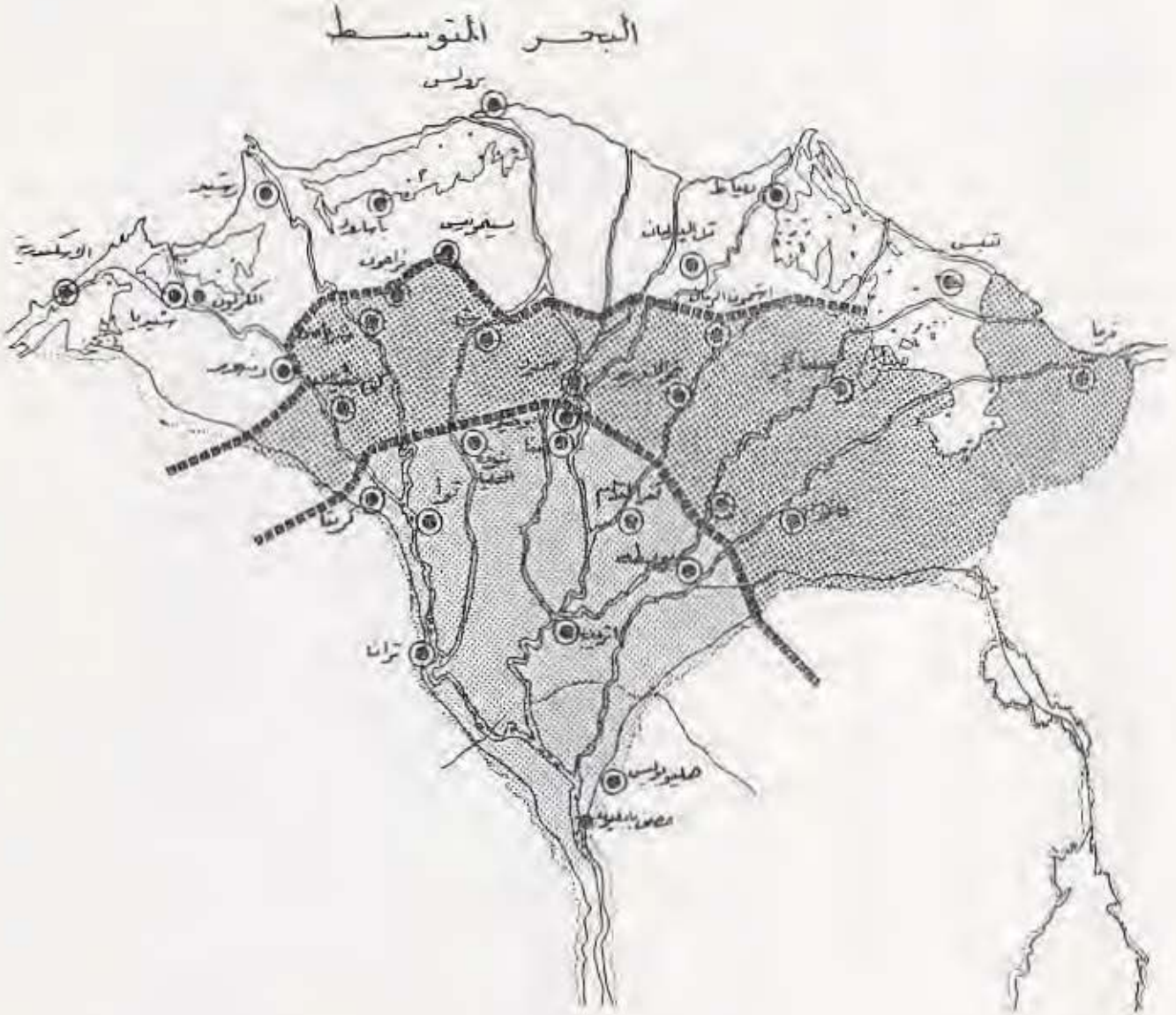

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

الأوزان النسبية للنطاقات العرضية في العصر البطلمي

- تركز مدن مرتفع
- تركز مدن متوسط
- تركز مدن منخفض

شكل رقم (٢-٣٦)

N

٢٢ ٢٦ ٢٩ كم

معهد التخطيط الإقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للأبحاث التنمية والتعاون
O.R.S.T.O.M

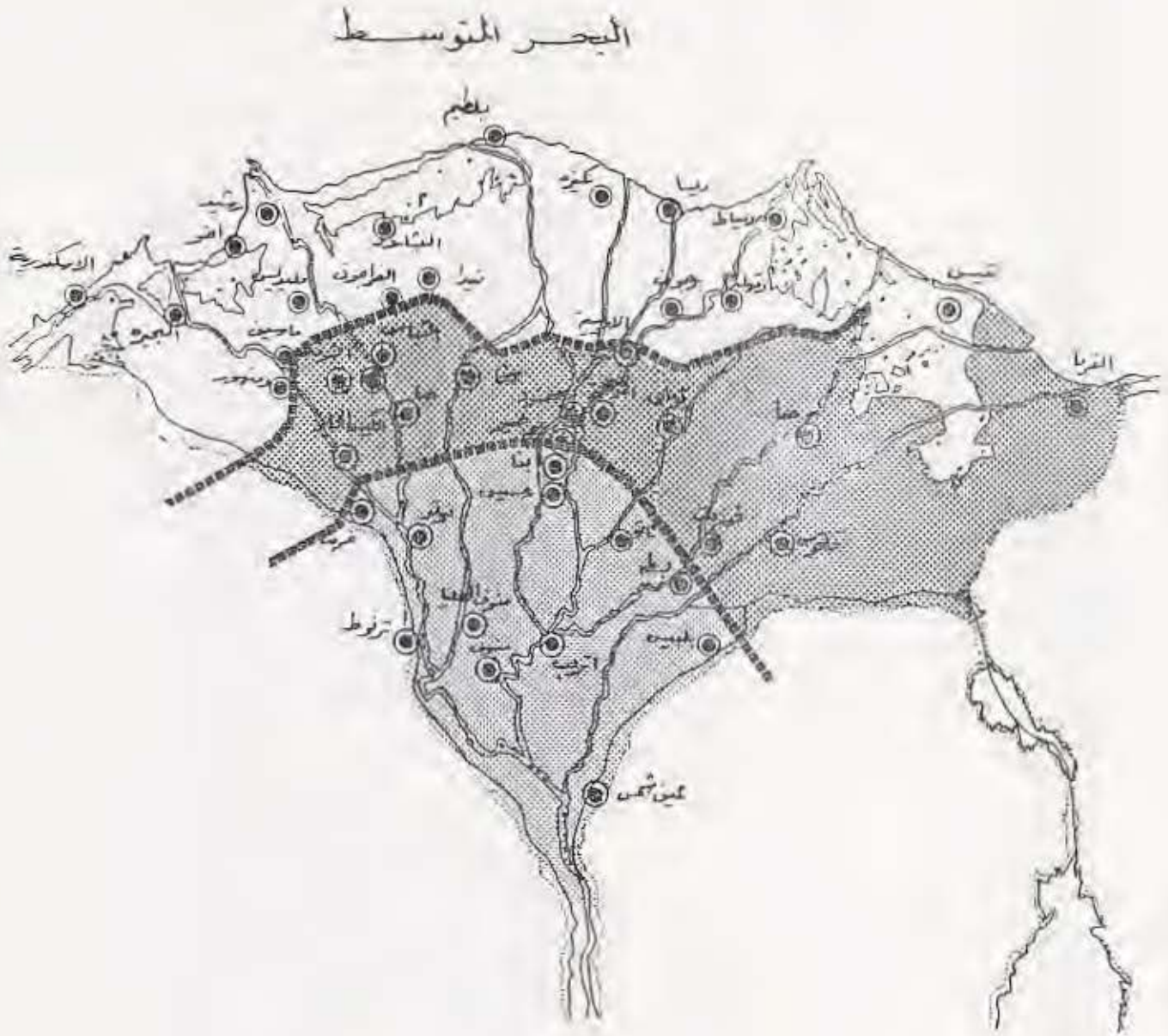

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

الأوزان النسبية للنطاقات العرضية في نهاية العصر البيزنطي وبداية الفتح العربي

- تركز مدن مرتفع
- تركز مدن متوسط
- تركز مدن منخفض

شكل رقم (٢-٣٧)

N

معهد التخطيط الإقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للأبحاث التنمية والتعاون
O.R.S.T.O.M

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

الأوزان النسبية للنطاقات العرضية في العصور الوسطى العربية

- عواصم أعمال
- مدن
- تركز مدن مرتفع
- تركز مدن متوسط

شكل رقم (٢ - ٣٨)

N

٠ ١٣ ٢٦ ٣٩ ٥٢ ٦٥ كم

معهد التخطيط الإقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للأبحاث العلمية والتعاون
O.R.S.T.O.M

مشروع مدن مصر ذات الثقل الحضاري
مدن الدلتا

الأوزان النسبية للنطاقات العرضية في العصر الحديث

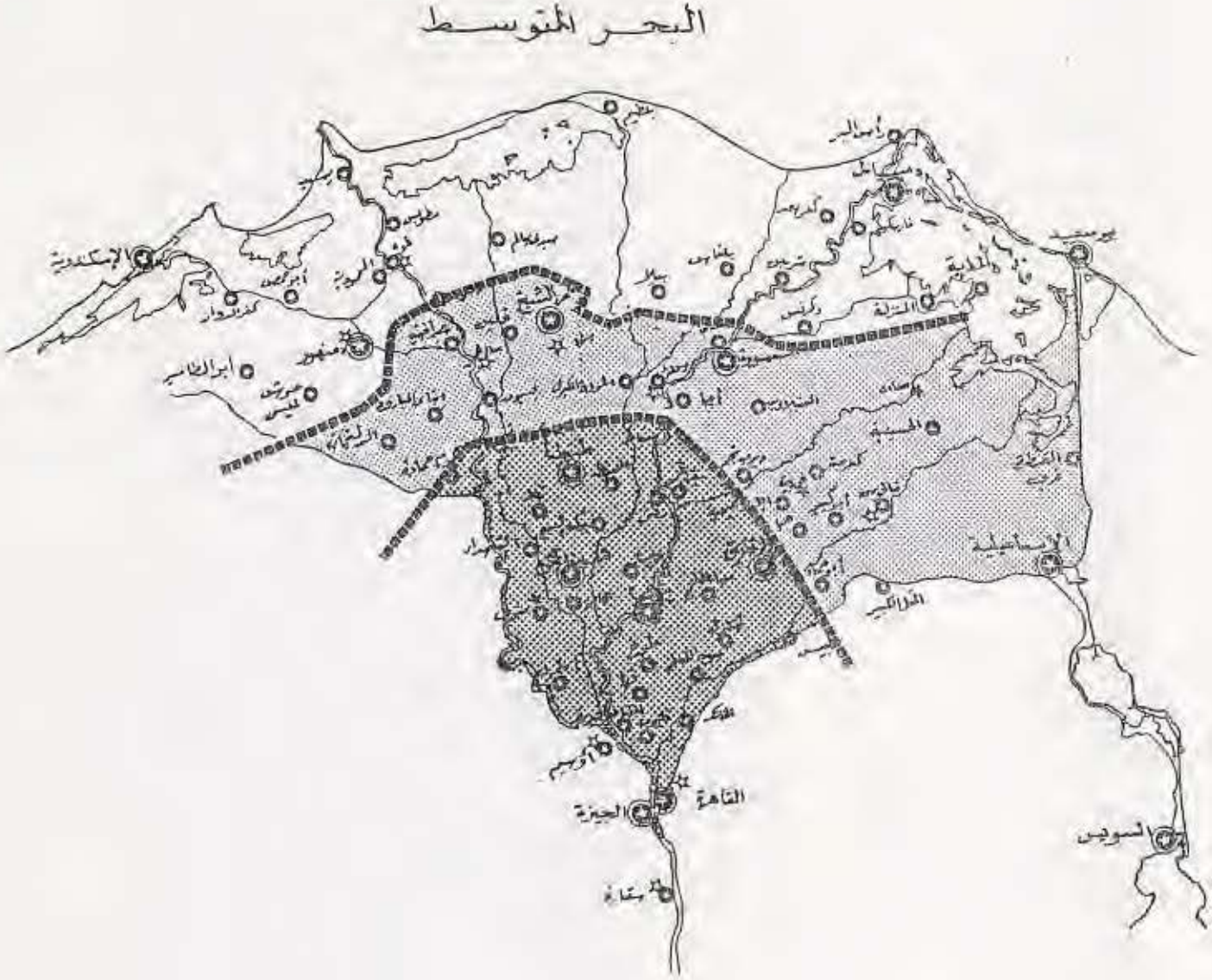

تركز مدن مرتفع

تركز مدن متوسط

تركز مدن منخفض

شكل رقم (٢-٣٩)

٦٩ كم ٤٦ ٢٣ ١١٥

معهد التخطيط الإقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للأبحاث العلمية والتعاون
O.R.S.T.O.M

ففى العصور الفرعونية، خلا تقريبا هذا النطاق من المدن الثانوية الهامة، فلا نكاد نجد فيه سوى "كسا" و"أتريب" في قلبه و"برسيد" (فاقوس) و"بوباسطيس" على حدوده الشمالية -وربما يرجع ذلك إلى ضيق مساحته وإتساع دائرة نفوذ العاصمة الوطنية "منف"- هذا وقد ظل عدد المدن العواصم الإقليمية ثابتا فى هذا النطاق حتى بداية الفتح العربى، وقد برعت داخله مدينتين محصنتين على درجة من الأهمية عند إلتقاء أفرع النيل هما "الترانه" و"نبقوس"، ولم تتبدل تلك الأوضاع طوال العصور العربية وحتى العصور الوسطى، حتى بدأ النطاق الجنوبى يستقطب المدن الهامة فى العصور الوسطى المتقدمة لنجده يتساوى مع النطاق الأوسط مع تركيز شديد للمدن بين الفرعين المستمرين أى فرعى دمياط و رشيد .

وقد نتج هذا الوضع الجديد عن جفاف أفرع النيل الرئيسية أى البيلوزى والكانوبى فى الشرق والغرب على التوالى، وإنتشار البرارى فى الشمال مما أدى إلى هجرة السكان والمدن إلى النطاق الأوسط بمفهومه الضيق، ويأتى هذا النطاق حاليا فى المرتبة الأولى عمرانيا وسكانيا - ففضلا عن وجود القاهرة بتوابعها- نجد تمركزا عاليا للمدن الهامة سواء الإدارية منها أو الصناعية، أو المدن متعددة الوظائف، فهو يضم "بنها" و"شبين الكوم" و"طنطا" و"الزقازيق" و"الإسماعيلية" و"قها" و"قليوب" و"بلبيس" و"ميت غمر" و"العاشر من رمضان".

النطاق الشمالى :

لقد تبدلت الأوضاع فى النطاقين السابقين كما تبادلوا الأدوار والأهمية على مر العصور، أما النطاق الشمالى فالإستمرارية الشبه مطلقة تكاد تكون السمة الغالبة التى تميزه: "الإسكندرية" فى أقصى الغرب، تقابلها "بور سعيد" وريثة "بيلوز" فى أقصى الشرق (داخل مثلث الدلتا)، وما عداهما "أستراوة" و"البرلس" أو "ديسا" و"تنيرة" أو "دميرة" -كلها شذارات مدن لم يكتب لها البقاء طويلا - وقد ساهمت طبيعة الساحل بالتأكيد فى خلو هذا النطاق من المدن الهامة، إلا أن هناك عاملا آخر وهو تعرض مصر للغزوات المستمرة وعدم توافر شروط الحماية الطبيعية لنشأة وإزدهار تجمعات عمرانية هامة على هذا الساحل المنبسط المكشوف.

ولا يمكن أن نعزو ندرة المدن الهامة فى هذا النطاق الساحلى وظهيره إلى "عبقرية المكان" أو إلى ثبات معالم شخصية مصر الجغرافية على مر العصور بل بالأحرى إلى عقم الإنسان وإستسلامه للظروف الطبيعية بدلا من محاولته للسيطرة عليها وتسخيرها لإحتياجاته ، فهناك فروق جوهرية بين "الثبات" و"السبات".

٢-٥-٤-٣ المحاور الطولية

أفرع النيل (المحاور الطبيعية):

من أهم سمات الإستمرارية فى شبكة توزيع المدن فى الدلتا هى تركز المدن الهامة وحتى المدن الأقل أهمية -أى المدن الكبرى والكبيرة والمتوسطة- حول أفرع النيل المختلفة أو عند إلتقاء الأفرع بالبحر عند المصبات، وإذا إستثنينا مدن السواحل - الكبرى منها والثانوية - فإننا نجد أن كل المدن الكبرى والبنادر تقع إما على فرعى النيل أو على الترع الأولية والثانوية، مثلما كانت "منف" و"منديس" و"بوزيريس" و"بوباسطيس" و"صان الحجر" و"فاقوس" و"أتريب"، و"سايس" و"نقراطيس" و"دمنهور" و"بيلوز" على الأفرع المختلفة للنيل فى العصر الفرعونى والبطلمى، وأضيفت لها "طرانة" Terouni-this و"نبقوس" و"تامياتيس" و"رشيت" فى العصر البيزنطى.

ونجد "الفسطاط" /"القاهرة"، و"بلبيس" (بحر أبو النجا) و "ميت غمر" و"ميت دمسيس" و"المنصورة" و"طلخة" و"دقهلة" و"فارسكور" و"بورة" و"دمياط" (على فرع دمياط)، و"أشمون الرمان" على خليج "تنيس" و" التحريرية" و"إبيار" على خليج إبيار و"دسوق" و"فوة" ورشيد" على فرع رشيد فى العصر العربى.

وفى العصر الحديث فيمكننا أن نسوق - على سبيل المثال وليس الحصر- تركز المدن الهامة سواء منها ذات الوظائف المتعددة أو المدن الصناعية أو المدن الإدارية (المراكز وعواصم المحافظات) على أفرع النهر ومجارى المياه الأقل أهمية (الخلجان) أو العقد الهيدرولوجية مثل: "المنصورة" على ملتقى فرع دمياط والبحر الصغير، "ميت غمر" (فرع دمياط X البوهية)، "طنطا" (ترعة القاصدX الجعفرية) "شبين الكوم" (بحر شبين X القاصد)، " المحلة الكبرى" (بحر شبين X الملاح) . ويشير جمال حمدان إلى المدن التوائم المنتشرة بكثرة على إمتداد مصر النهرية كتعبير عن الحد الأقصى من جاذبية النهر مثل "المنصور"/"طلخا" (فرع دمياط) "ميت غمر"/"زفتى" (فرع دمياط) ، "فوة" /"المحمودية" (فرع رشيد)، "دسوق"/"الرحمانية" (فرع رشيد)(٧٠).

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

المحاور الطولية في العصور الفرعونية والبطلمية والبيزنطية

- ○ مدن فرعونيه وبطلميه
- ● مدن بيزنطيه
- ◉ مدن مستمرة بالعصور الثلاثة

شكل رقم (٢-٤٠)

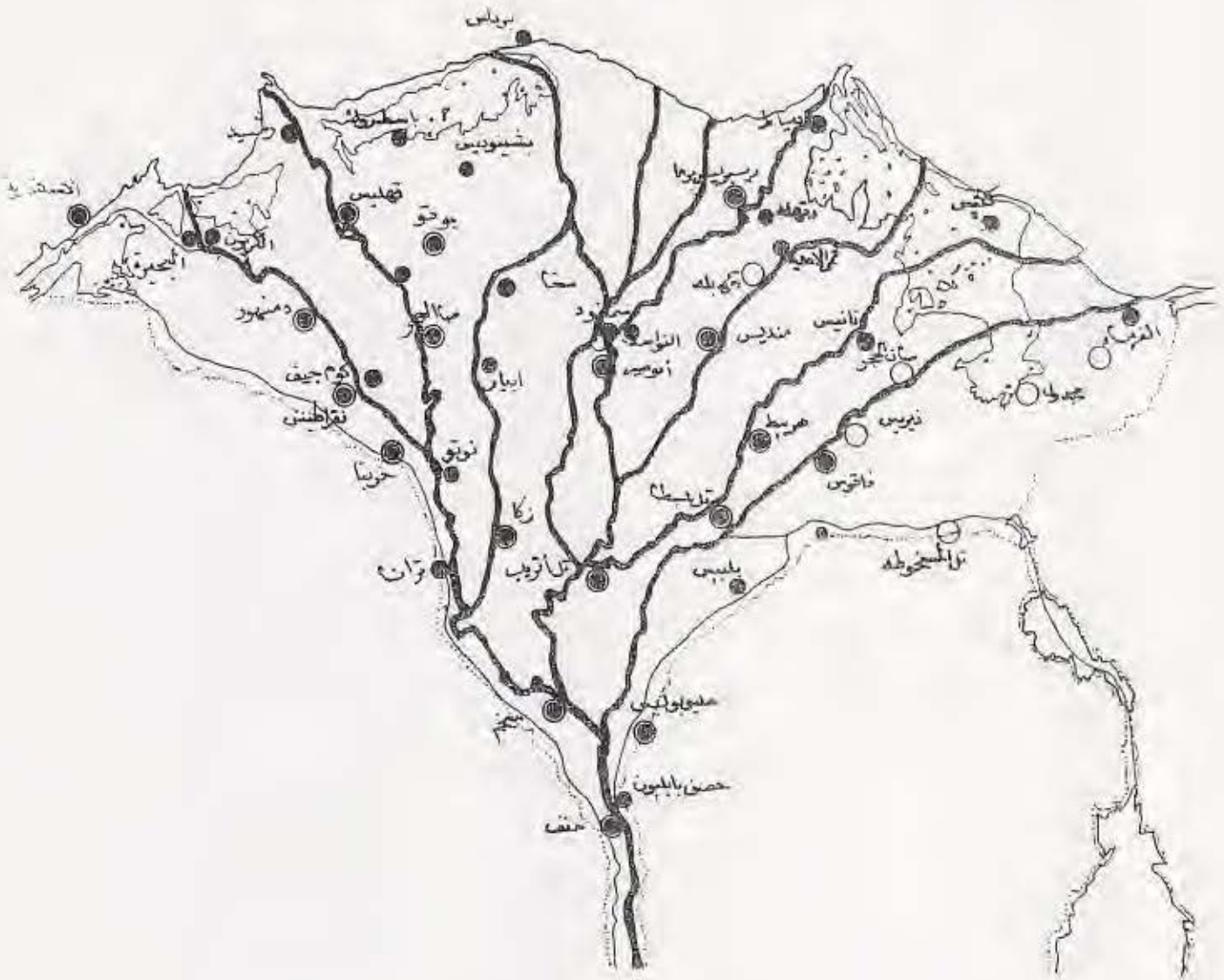

معهد التخطيط الاقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للأبحاث العلمية والتعاون
O.R.S.T.O.M

مشروع مدن مصر ذات التباين الحضاري

مدن الدلتا

المحاور الطولية في العصور الوسطى العربية .

شكل رقم (٢-٤١)

N

٠ ١٣ ٢٣ ٣٣ ٤٦ ٦٦ كم

معهد التخطيط الاقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للأبحاث التنمية والتعاون
O.R.S.T.O.M

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

المحاور الطولية في العصر الحديث

- عواصم محافظات
- عواصم مراكز

شكل رقم (٢-٤٢)

معهد التخطيط الاقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للأبحاث العلمية والتعاون
O.R.S.T.O.M

"حتى الموانىء الساحلية تستمد حياتها من ترع النيل التى تنتهى إليها ومدن القناة هى من خلق الترعة المحلوة بقدر ما هى من خلق القناة المالحة الملاحية وبقدر ما إن الإسكندرية من خلق ترعة المحمودية والبحر المتوسط معا" (٧٢).

٢-٥-٤-٤ المحاور الصناعية

على الرغم من غياب العلاقة المكانية (إلى حد ما) بين المدن الصناعية والإدارية المستحدثة فى الدلتا -والمدن الصناعية التجارية القديمة التى ترجع إلى العصور الوسطى- فإننا نجد أن تلك المدن قد تمركزت على ثلاث محاور تكون حرف Y عند إلتقائها وإن لم تكن تتمركز كلها على فرعى رشيد ودمياط اللذان يكونان هذا الحرف عند إلتقائهم برأس الدلتا.

ويعتبر المحور الشمالى الشرقى أكثر أهمية وتفوقا من المحور الشمالى الغربى من حيث تمركز المدن الصناعية الهامة على طوله ، بل إن بعض تلك المدن تحتل المكانة الثالثة بعد "القاهرة" و"الإسكندرية" ويجمع هذا المحور مدن "المحلة الكبرى"، و"طنطا"، "المنصورة"، "فارسكور"، "دمياط".

"الأولى رأس الخط كما وكيفا وتنوعا وتطورا ، وإذا كانت صناعة الغزل والنسيج تطغر عليها إلى أقصى حد -ثالثة مراكزه بمصر - فإن هذا لا ينبغى أن يحجب دورها كمركز أساسى لمعاصر الزيوت النباتية بأنوعها المختلفة إضافة إلى ضرب الأرز والأعلاف والألبان.." (٧٣).

أما "دمياط" *نهاية المحور جغرافيا، وربما كذلك صناعيا، وإن كانت بالتأكيد رأسه وقمته فى الماضى، ودمياط تجمع إلى جانب صناعة الغزل والنسيج حريرا ثم قطنا، صناعة الألبان الكبيرة والجلود الواسعة. وكذلك الأثاث على الأخشاب المستوردة بفضل موقعها كميناء. والواقع أنها ظلت طويلا عاصمة الحرير والجبن والأحذية والأثاث"* (٧٤). وتبدو "فارسكو" برعما صغيرا بجانب "دمياط" بصنعها للغزل والنسيج ومصانع الخشب المضغوط والألبان الصغيرة.

هى إذن "دمياط" المدينة المتجددة أبدا، تسوى بالأرض ثم يعاد بناؤها مرة أخرى فترجع إلى صورتها القديمة وتضاف إليها وظيفة مستحدثة ترقى من شأنها وتعزز من مكانتها، كانت من مدن النسيج، فإختارها محمد على لينشأ بها صناعة السفن والحرير، ثم تخصصت فى صناعة الأثاث لتصبح أكبر ورشة فى مصر، ولا نكاد نجد فى الدلتا مدنا أخرى شبيهة بتلك المدينة سوى "دمنهور" مقر عبادة الآلهة حور القديمة وعاصمة الصوف والصوفيات والسجاد الآلى فى مصر. إلا أنها لا تتمتع بمميزات موقع "دمياط" التى أصبح لها ميناء بحرى بجانب مينائها النهرى إلا أن المحور الغربى الذى تقع عليه ويضم مدن صناعية هامة مثل "طنطا و"كفر الزيات" و"كفر الدوار" ثم "الإسكندرية"، يوازى فى الأهمية المحور الشمالى الشرقى.

أما فى النطاق الجنوبى للدلتا، فلا نجد سوى "بنها" وبدرجة أقل "قها" كمدن صناعية هامة، نفس الوضع نجده على المحور الشمالى الغربى الذى يضم "سخا" و"كفر الشيخ" ثم ينعطف غربا إلى فرع رشيد ليمر"بدسوق" و"فوة" ثم يعبره إلى المحمودية "فإدفينا" و"رشيد".

وهناك بعض المحاور الأخرى الأقل أهمية مثل محور القاهرة/الإسماعيلية والذى يضم "بلبيس" و"العاشر من رمضان" الحديثة، ومحور مدن القناة.

أما فى العصور الوسطى - فإلى جانب تركز المدن الصناعية الهامة فى نفس النطاق المحدد بحرف Y - نجد أيضا تركزا عاليا لمدن النسيج حول بحيرة المنزلة مما يؤكد ثقل النطاق الشرقى فى الدلتا وإستمراريته على مر العصور.

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الألفية

المحاور الصناعية في العصور الوسطى العربية

- المدن التجارية والصناعية المستقرة
- المدن التجارية والصناعية المستحدثة
- المدن التجارية والصناعية المندثرة

شكل رقم (٢-٤٣)

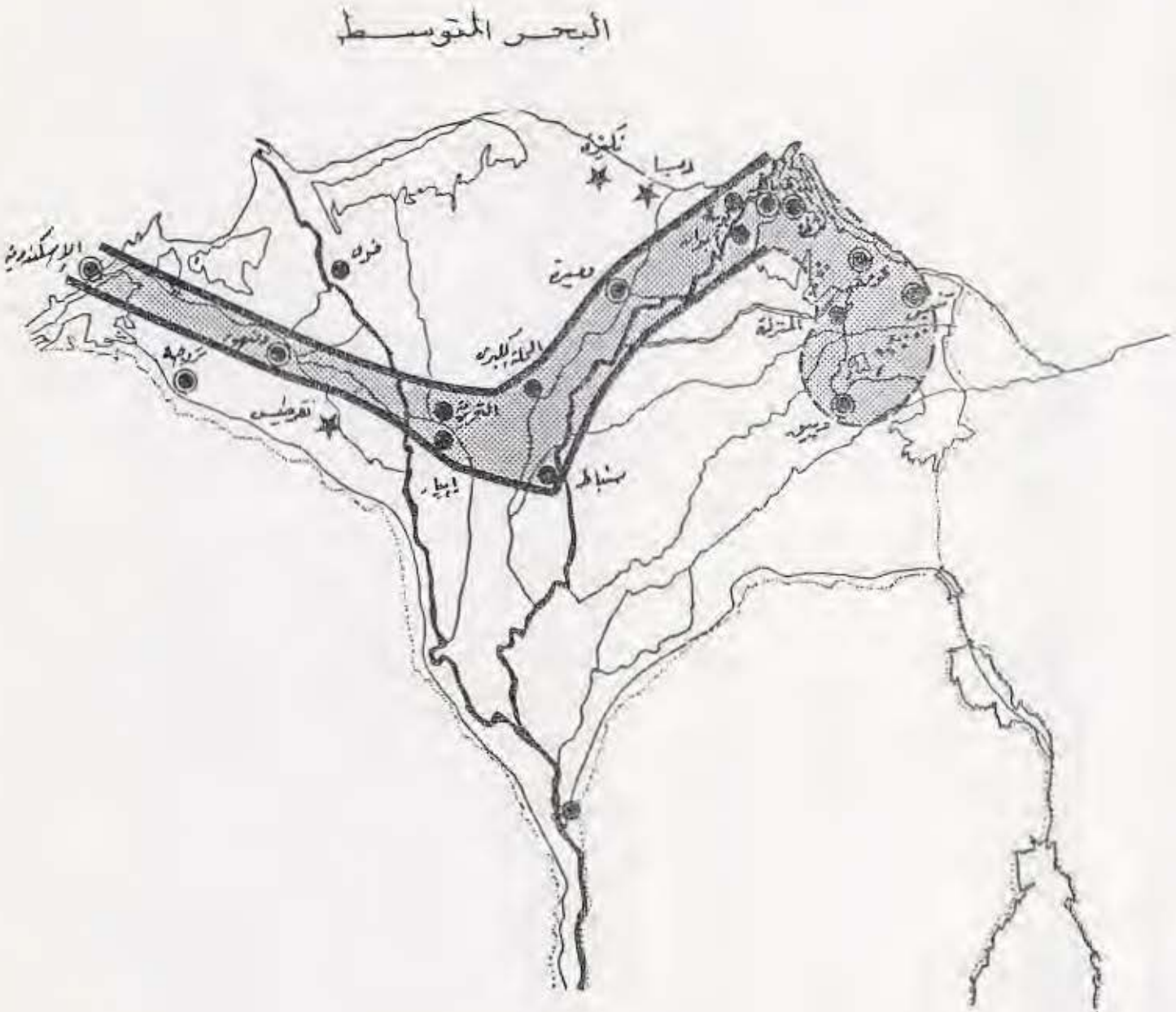

N

معهد التخطيط الإقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي للبحوث العلمية والتعاون
O.R.S.T.O.M

مشروع مدن مصر ذات التبادل الحضاري
مدن الدلتا

المحاور الصناعية في العصر الحديث

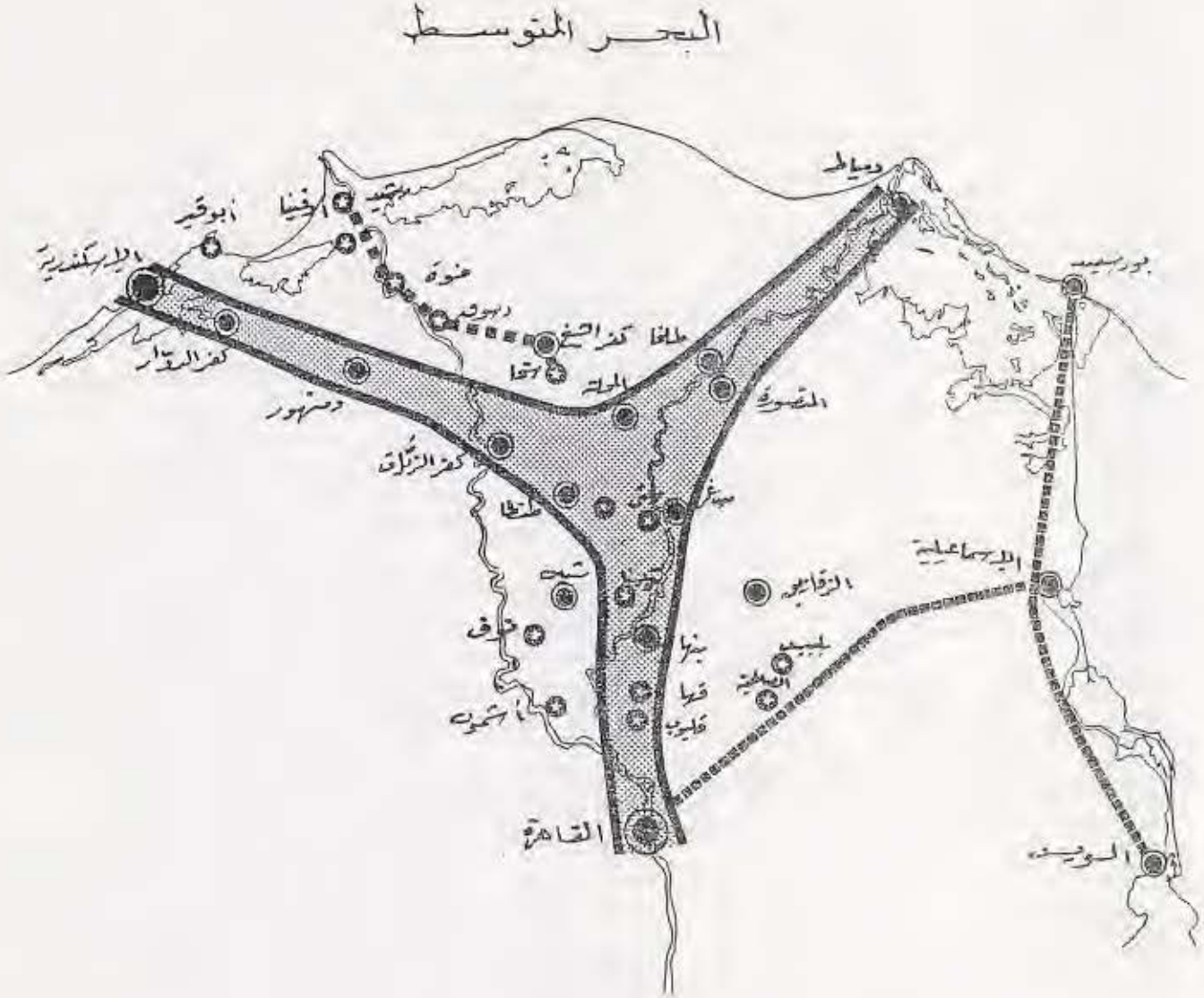

شكل رقم (٢-١٤)

المصدر : د. جمال حمدان
شخصية مصر جـ ٣

معهد التخطيط الإقليمي والعمراني
I.U.R.P
المركز الفرنسي لأبحاث التنمية والتعاون
O.R.S.T.O.M

الخلاصة :

إذا كان الثبات المطلق أو النسبى هو سمة أساسية وهامة فى توزيع المدن الهامة على النطاقات العرضية والطولية والمحاور فى الدلتا، فإن تبدل المدن وإندثار العديد من الحلات القومية الهامة ونشأة مدن مستحدثة وإحلال مدن صاعدة محل مدن متدهورة هو أيضا من السمات الهامة، ولا يقتضى الأمر على تبدل المواقع وتغير الأدوار - فحسب- ولكن هناك مناطق أو أقاليم كاملة فقدت أهميتها بالكامل ولم تقم لها قائمة فى العصر الحديث على الرغم من إستمرار أهميتها حتى العصور الوسطى.

ونسوق على سبيل المثال منطقة البحيرات الشرقية - أى بحيرة المنزلة- فقد نمت وإزدهرت حول تلك البحيرة مدن هامة عديدة، وحتى بعد إتساع حوض البحيرة فى القرن السادس الميلادى على أثر حركة الهبوط التاريخية للساحل الشمالى، فإننا نجد أن مدن النسيج الصناعية الهامة قد تمركزت هنا "تونة" و"دميرة" و"أبوان" و"دبيق" و"شطا". وقد لعب العامل الإقتصادى والتجارة الخارجية دور سائد أثر على إزدهار تلك المدن.

وفى المقابل أيضا نجد نفس الوضع حول بحيرة مريوط -غرب الدلتا - أما بحيرة البرلس فمثلما كان لها السبق الحضرى والحضارى ، فقد تدهورت حضارتها وعمرانها سريعا. لقد أهملت البحيرات بقسوة شديدة فى العصر الحديث - فضلا عن عمليات التجفيف التى قللت من مساحتها - فإن إلقاء المخلفات الصناعية فى مريوط لا يؤثر فقط على الثروة السمكية ولكن أيضا على المحيط الأيكولوجى برمته .

إن من يذهب إلى مناطق البحيرات اليوم يروعه جمال الطبيعة وإتساع هذه المسطحات المائية. وفى المقابل فقر محيطها البيئى بل وإمتداد يد التخريب إليه - فضفاف بحيرة إدكو تحول إلى "جبانة" للسيارات المستعملة - ولكن يمكن أن يتم التشجير حول هذه البحيرات لتصبح غابات شاسعة نفتقدها بشدة فى وادى النيل، وهناك الكثير من "الكوابيس" كما يقول اللواء "عبد المنصف محمود" التى تحلق بالبحيرات وتفسد مواردها بل وتهددها هى أيضا بالإندثار.

ومن المتغيرات الهامة أيضا، إنتقال خط المدن الهامشية فى الدلتا إلى الشرق فلم يصبح الحد الشرقى يبدأ من "الفرما" شمالا إلى "أون" جنوبا مرورا "ببلبيس" و"الصالحية" وIMU الخ. بل أصبح حد طولى يمثله شريان قناة السويس التى شقت فى العصر الحديث، وتتمركز حوله مدن على درجة كبيرة من الأهمية الصناعية والتجارية والحربية والإدارية هى "بورسعيد" و"الإسماعيلية" و"السويس" ومدنا أقل أهمية هى "القنطرة شرق" و"بورفؤاد" و"بور توفيق".

وما تزال الدلتا مسرحا لتغيرات متتالية وسريعة سوف تؤثر فى المستقبل القريب على شبكة توزيع المدن وعلى ثقل وأهمية المحاور والنطاقات التى أشرنا إليها - فهناك مدنا جديدة قد شيدت أو ما زالت فى طور البناء مثل "٦ أكتوبر" و"السادات" فى الغرب و"العاشر من رمضان" فى الشرق و"العبور" فى الشمال وأخيرا "دمياط الجديدة" التى سوف تدعم ركائز تلك المدينة الأبدية - أما توأمتها وسابقتها رشيد- فهى تحاول وبجهد أن تنهض من كبوتها.

وفى النهاية فربما ساهمت عملية إستصلاح البرارى التى كانت مساحتها تقدر بنحو ٢ر١ مليون فدان أى نحو ضعف مساحة البحيرات الشمالية مجتمعة (٦٤١ ألف فدان أى ثلثى المليون أى نحو ١٠,٦٪ من كل مساحة الدلتا) فى نشأة بعض التجمعات العمرانية وإرساء شىء من الإتزان بين جنوب الدلتا وشمالها الصحراوى .

هوامش الباب الثانى

(١) فرانكفورت... مصدر سابق ص ٨٣.

(٢) يسخر مفورد فى كتابه "المدينة على مر العصور"من النظرية الجغرافية التى تزعم أن المدنية المصرية لم تظهر قبل ٥٠٠٠ق.م.

Lewis MUMFORD "La cité à travers l'histoire" édition le Seuil-Paris 1964, p.98.

(٣) A. MORET op. cit. p. 41

(٤) عبد الفتاح وهيبة ، "دراسات فى جغرافية.."مصدر سابق .

(٥) جمال حمدان، مصدر سابق، ج ٤، ص ٢٧١.

(٦) Lewis MUNFORD , "La cité.."p.13.

(٧) اللواء عبد المنصف محمود - مصدر سابق - ص. ١٣٢.

(٨) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(٩) الديانة المصرية القديمة، تأليف باروسلاف نشرنى ، ترجمة د. أحمد قدرى- مشروع المائة كتاب - ص ٤٤.

(١٠) نفس المصدر، ص.٤٤.

(١١) عبد العال الشامى، "مدن مصر..." مصدر سابق

(١٢) "الديانة المصرية القديمة"..مصدر سابق، ص ٨٤.

(١٣) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(١٤) جمال حمدان "شخصية مصر" مصدر سابق ، ج ٤ ص ٢٦٧.

(١٥) نفس المصدر ، ص.٢٧٦.

(١٦) اللواء عبد المنصف محمود " على ضفاف ..". مصدر سابق ص ١٢٤-١٢٦.
عبد الفتاح وهيبة "دراسات فى.." مصدر سابق ص ١٣٤-١٣٥.
جمال حمدان "شخصية مصر" مصدر سابق ج٤، ص ٢٦٣-٢٦٤.

(١٧) لم يكشف التاريخ الكثير عن تلك الفترة سوى أسماء الملوك والعواصم السابقة على مينا ومن نفر ، إذ وجدت أسمازهم على حجر يعرف باسم حجر بالرمو لأنه محفوظ فى بالرمو عاصمة صقلية.

(١٨) POOLE R.S. The cities of Egyp. London 1982 p.19.

(١٩) مصادر التاريخ الفرعونى، د. جمال الدين مختار- فى تاريخ الحضارة المصرية، ألفه نخبة من العلماء ، مكتبة النهضة المصرية ص ٩٨.

(٢٠) مصادر التاريخ... مصدر سابق ص ٩٩.

(٢١) سليمان حزين- البيئة والموقع..الخ، مصدر سابق ص ٤٤٩.

(٢٢) فى هذا الصدد يقول جمال حمدان: "لم تعرف مصر ظاهرة الأسوار الصناعية سواء على المستوى الإقليمى أو حول المدن إلا نادرا أو بقدر محدود وأيا كان الأمر فيبدو أن هذه الأسوار وأمثالها حالة غير عادية وعابرة فى إستراتيجية مصر أغنت عنها الصحراء نفسها غالبا. والواقع كما يعبر مفورد، أن الصحراء كانت " سور مصر الطبيعية" بل وسور المدينة المصرية البعيد كما سنرى، بل إن الإقليم نفسه يحمل ملامح المدينة المسورة من حيث إحاطة الصحراء والجبل والبحر به .." فبقايا الحلات والمدن القديمة فى العصر الطينى قبل التوحيد تكشف عن أن السور كان يغلف كل مدن مصر- غير أنه لما إستتب الأمن إختفت ظاهرة السور- في الوقت الذى كانت الحوائط المزدوجة أو المغلقة تغلف نينوى وبابل.." جمال حمدان ضخصية مصر ..مصدر سابق ، ص ٧٤٤٨-٧٤٩، ج٢.

(٢٣) هيرودوت يتحدث عن مصر.

(٢٤) نفس المصدر

(٢٥) نفس المصدر

(٢٦) إقتبسنا هذا الجزء من رسالة الدكتور عبد العال الشامى"مدن الدلتا فى العصر العربى" رسالة دكتوراه غير منشورة.

(٢٧) اللواء عبد المنصف محمود "على ضفاف بحيرات مصر" ج١، ص٣٣-٤٠.

(٢٨) اللواء عبد المنصف محمود ، نفس المصدر، ج١ ص ١٢٧.

(٢٩) فينيقيا منذ فجر التاريخ - فلسطين ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد- كريت ٢٠٠٠- سنة قبل الميلاد- كذلك كانت مصر تستورد اللازورد من أفغانستان والرخام من بحر إيجة.

VANDIER "peuples médit..."op.cit.,p.484.

(٣٠) أدولف أرمان- هرمان رانكة "مصر والحياة" مصدر سابق ص ٥٧١.

(٣١) عبد الفتاح وهيبة "دراسات.." مصدر سابق

(٣٢) Breasted, op.cit. p.44

(٣٤) المقريزى ..الخطط ، مصدر سابق .

(٣٥) هيرودوت يتحدث عن مصر، مصدر سابق ص ٤٦.

(٣٦) اللواء عبد المنصف محمود " على ضفاف..." مصدر سابق ص ١٢٤.

توجد أطلال مدينة مريوط الآن بجوار سيدى كرير، وقد أكدت الحفريات التى لم تستكمل بعد على أنها كانت مدينة صناعية بالدرجة الأولى وهذا ما تأكده أحواض تخزين الكروم وأحواض العصير ومعداتها من أحجار الجرانيت الأحمر والأفران المبنية بالطوب النى.

(٣٧) DARRESSEY (G) "Menélais et l'embouchure de la branche canopique" Rev.,Eg. Anc. 2 (1929) p.20 - 59.

(٣٨) DE COSSON (A), Mariotis - 1935, p.151

(٣٩) Ibid

(٤٠) MORET (Alexandre), "L'Egypte Pharaonique, Histoire de la nation égyptienne,T.2,1932, p.45.

(٤١) عاشت "طيبة" عاصمة نحو ٨٠٠ سنة فى مجموعها مقابل نحو ١٠٠٠ سنة "للإسكندرية" و٧٠٠ سنة "لمنف" - أنظر جمال حمدان مصدر سابق - ج٤ ص ٢٦٠.

(٤٢) أنشئت "تانيس" حوالى ١٧٣٠ق.م. ويرجح أنها أنشئت على أنقاض "أفاريس" التى أنشأها الهكسوس وقد إتخذها رمسيس الثانى عاصمة له أنظر:
VANDIER "peuples médit..."op.cit.pp. 290 et 366.

(٤٣) عبد الفتاح وهيبة"دراسات..." مصدر سابق ص ٢٦٢.

(٤٤) أنشأ البطالمة مدينة "بطولوميس" بالقرب من "طيبة" لمنافستها والقضاء عليها وكانت مدينة يونانية وليست وطنية مثلها مثل "نقراطيس" و"الإسكندرية" و"كانوب" ومدن أخرى.

(٤٥) عبد الفتاح وهيبة ..مصدر سابق ص ٣٤١.

(٤٦) Les Annales du Services des Antiquités Egyptiennes, 1942-43,pp294-395.

(٤٧) BERNAND (André) "Le Delta Egyptien d'après les textes grecs" Le Caire 1970, tome I,pp.IX.

(٤٨) MORET (A), op.cit, tome II, p49.

(٤٩) جمال حمدان ، مصدر سابق ج٢ ص ٤٦٦.

(٥٠) PIRENNE " Histoire des institutions et de droit privé de l'ancienne Egypte.

(٥١) أدولف إرمان وهرما راتكة "مصر والحياة فى العصور القديمة" مصدر سابق ص ١٠.

(٥٢) يرجح أن تكون "خبيت" قائمة فى موضع كوم الخبيزة التى تقع إلى الجنوب قليلا من بحيرة البرلس..أما "بمج" فربما كانت مكان تل البهو الحالى مركز "أجا"، وإحتلت "تنى"جزيرة تنيس فى بحيرة المنزلة. عبد الفتاح وهيبة مصدر سابق.

(٥٣) POSENER (G) Leçon Inaugurale, 6 décembre 1961,pp. 16 - 78

(٥٤) عندما زار هيرودوت مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد، لم يشر إلى كل المقاطعات (nomes) فقد إكتفى بالإشارة إلى الوحدات التى يستمد منها الملك جنوده وعددها ١٨ من بينها سبع لم يرد ذكرها فيما ذكره الكتاب اللاحقون. ومن المدن والقرى لم يذكر هيرودوت غير أسماء ٤٢ فقط معظمها يقع فى الدلتا وإن كان يدعى فى نفس الوقت أنه كان بمصر أيام الملك أمازيس Amasis(٥٦٩-٥٢٦ق.م.) ما يقرب من ٢٠ ألف مدينة، وهذا مبالغة كبيرة دون شك.

(٥٥) GAUTHIER (Henri) "Les Nomes de l'Egypte depuis Hérodote jusqu'à la conquete arabe",M.I.E.,tome XXV.1935.

(٥٦) Ibid

(٥٧) Ibid

(٥٨) صلاح عبد الجابر عيسى ، مصدر سابق، ص ٦٦.

(٥٩) BERNAND (André) op.cit.

(٦٠) إختفت ٢٤ مدينة من مجموع ٦٠ كانت موجودة على أيام البطالمة.

(٦١) BELL H. "The Administration of Egypt under the Umayad Khalifs", Congress of Orientalist's Oxford 1928.

(٦٢) TOUSSON (Omar) "La géographie de l'Egypte à l'époque arabe", Le Caire 1928.

(٦٣) فى أسفل الأرض كان عمل الغربية هو أكثر الأعمال قرى (٤٧٧) وكذلك أوسعها

عمل النستراوية فسجل حينذاك ٦ قرى ونحو ١٠ آلاف فدان فقط. .عمر طوسون، كتاب مالية مصر، القاهرة ١٩٣١- ص ٢٦٠ ومابعدها.

(٦٤) نفس المصدر السابق، نفس الصفحات.

(٦٥) يشير عمر طوسون أنه في عام ١٨١٣ قسمت الدلتا أو "أسفل الأرض" إلى ستة أعمال هي: "البحيرة" و"الدقهلية" و"القليوبية" و"الغربية" و"المنوفية" و"الشرقية"، وقسم كل عمل إلى أخطاط وقسمت محافظة البحيرة إلى ١٩ خطا، والخط هو الحوض ويتفق مع وحدة الرى التى تضرب بجذورها فى أعماق التاريخ.. وهذه الأخطاط لا تمثل فقط القاعدة الأساسية لتقسيم الأعمال على مر العصور ولكننا نلاحظ أيضا أن الكثير من هذه الأخطاط قد إحتفظت بأسماء مقاطعات أو مدن قديمة مندثرة، عمر طوسون، مصدر سابق ص ٣٣٩ - ٣٤٣.

(٦٦) جمال حمدان "شخصية مصر" مصدر سابق ج٤ ص ٢٠٢.

(٦٧) نفس المصدر السابق ج١ ص ٢١١.

(٦٨) نفس المصدر السابق ج١ ص ٢١١.

(٦٩) نفس المصدر السابق ج١ ص ٨١١.

(٧٠) نفس المصدر السابق ج١ ص ٨١٢.

(٧١) نفس المصدر السابق ج٢ ص٢٠٣.

(٧٢) نفس المصدر السابق ج٢ ص ٢٠٢.

(٧٣) نفس المصدر السابق ج٤ ص ٦٢٦.

(٧٤) نفس المصدر السابق ج٤ ص ٦٢٧.

(٧٥) نفس المصدر السابق ج١ ص ٨١٦-٨١٨.

الباب الثالث

تبادل الأدوار بين مدن الثغور

يعتبر هذا الجزء من الدراسة بمثابة إستنتاج للجزئين السابقين ومدخل للتقرير الثاني. بل بالأحرى هى مجموعة من الأطروحات والقضايا التى تناقش ثنائيات غالبا ما كانت موضع الجدل بين الباحثين فى هذا المجال.

•

وسوف نناقش من خلالها العلاقة بين المدن الساحلية التى تهمنا. أى "رشيد" و"دمياط"، و"دمياط" و "بورسعيد"، ومن العسير أن تكتمل جوانب الموضوع بدون التطرق للعلاقة الثنائية بين "رشيد" و"فوة" أو بين "رشيد" و "الإسكندرية"، ذلك أن هناك علاقات ثنائية متبادلة بين كل تلك المجموعات، وقد تبادلت تلك المدن الأدوار على مر العصور نظرا لكونها ثغور مصر الساحلية أو مداخلها على الشاطىء الشمالى وإتفقت جميعا فى أدائها لوظائف متعددة كمدن تجارية وحربية تحتل مواقع إستراتيجية وتشرف على طرق مواصلات على درجة عالية من الأهمية.

ومثلما كانت تلك المدن مدن المواجهة مع الغزاء الأجانب - عدا فوة - فهى أيضا من مدن المواجهة مع تغيرات الطبيعة، فهى تقع على أو بالقرب من ساحل متغير يتبدل هبوطا وصعودا، أو مدا وجزرا.

وأخيرا فإن "رشيد" و "دمياط"، على الرغم من إختلاف كل منهما، من المدن المستمرة التى قاومت تقلبات الزمان على مختلف أشكالها وما تزالا محتفظتان ليس بوجودهما فحسب، ولكن أيضا بأهميتهما - حتى إذا كانت "رشيد" قد تدهورت - فهى تحمل فى داخلها إمكانيات إزدهارها من جديد.

وسوف نبدأ فى هذا الباب بمناقشة العلاقة بين "رشيد" الحديثة و"بولبتين" لكى نقف على الدور الذى لعبته فى الماضى فى محاولة منا أيضا لتصحيح بعض الفرضيات والإستنتاجات التى تفتقر إلى الدقة، ثم نتطرق بعد ذلك إلى العلاقة بين "رشيد" و"فوة". ولكننا سوف نحاول الإجابة أولا على عدة تساؤلات خاصة بـ"فوة" و"ميتيليس"، ويركز الفصل الثالث على الثغور المصرية وأهميتها النسبية منذ الفتح العربى وحتى العصر الحديث.

٣ ـ ١ عن "بولبتين" و "رشيد"

لم تحظ بولبتين طوال العصور الكلاسيكية إلا بإشارات مقتضبة تطرح الكثير من علامات الإستفهام عن حقيقة الدور الذى لعبته هذه المدينة، هل كانت مدينة ذات وظيفة تجارية وتدهورت نتيجة لنشأة "الإسكندرية" كما يؤكد الكثيرين؟ وهل كانت مدينة أم مجرد حصن به مرفأ للسفن؟ سوف نحاول أن نناقش هذه التساؤلات دون أن نعطى إجابات شافية نظرا لقلة المعلومات وغياب الحفريات التى كان يمكنها أن تقطع الشك باليقين.

تحدثنا فى مواقع عديدة من هذا البحث عن جغرافية الساحل، ومناطق المصبات والتغيرات التى لحقت بها. وبغض النظر عن الكوارث أمثال الزلازل وطغيان البحر على الساحل أو هبوط هذا الأخير فإن مناطق مصبات الأفرع كانت معرضة للإطماء والإنسداد من جانب، أو الإمتداد على شكل لسان طولى داخل البحر كما حدث فى مناطق دمياط ورشيد نتيجة للإرساب النهرى مما كان يجعل موضع أى تجمع عمرانى متغير باستمرار مبتعدا عن الساحل بإضطراد.

وإذا أخذنا كمثال قلعة قايتباى، فقد كانت تلك القلعة تبعد عن البحر بمسافة ٦ كيلومترات فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، ثم أصبحت على بعد ٥ر٨كم عام١٩٣٩(١). أى أنه فى غضون قرن، إمتدت الدلتا داخل البحر بمقدار ٥ر٢كم نتيجة للإرسابات النهرية(٢).

يمكن إذن أن نتصور أن "بولبتين" أو أسلاف "رشيد" الحالية قد تغير موقعها على مر العصور نحو الشمال حتى تقترب من فتحة المصب.* ومن الشائع بين الباحثين، أن موقع بولبتين هو موقع تل أبو مندور الحالى (جنوب رشيد) (٣) **، بينما لا يوجد ما يؤكد هذا.

* تقع رشيد حاليا على بعد ١٢ كم من البحر المتوسط، وقد كانت على بعد حوالى ٢٥ كم قبل النحر الذى بدأ بعد بناء السد السد العالى.

** يقع تل أبو مندور على بعد ٢كم من جنوب رشيد.

وسوف نسوق هنا رأى الأثرى لبيب حبشى الذى قام بعمل بعض الحفريات وتوصل إلى بعض النتائج، أهمها أن "بولبتين" كانت أكثر جنوبا من تل أبو مندور، وأن الحجارة والأعمدة التى أعيد إستعمال بعضها فى بناء القلعة وبعض الجوامع والمنازل قد تم إحضارها من "سايبس" وليس من معابد "بولبتين" المندثرة.

ونورد هنا نص على لسان لبيب حبشى :

" لقد عثرت فى قلعة قايتباى على بعض القطع الحجرية التى ترجع إلى العصر الفرعونى وهذه القطع قد أعيد إستخدامها فى بناء القلعة، كما كانت تحمل أسماء ملوك الأسرة السادسة والعشرين. وقد دفعنى هذا الإكتشاف إلى التردد على رشيد عدة مرات، وأثناء تجوالى فى المدينة لاحظت أنه قلما يوجد منزل أو جامع أو مبنى فى هذه المدينة لا يخلو من بعض الأعمدة والتيجان والقطع الحجرية الأثرية، وأخص بالذكر النشآت التى شيدت فى العصر الذهبى للمدينة أى فى نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن التاسع عشر، حتى أننا نجد جامع زغلول (١٥٩٠م) يحتوى على ٢٤٤ عامود من هذه الأعمدة القديمة. وعندما توجهت لزيارة صهاريج المياه الكائنة فى باطن الأرض تحت بعض المنازل الكبرى حيث كانت تخزن المياه فى أوقات التحاريق لاحظت أن الأضلاع الداخلية لتلك الخزانات تتكون من أسطح حجرية ملساء عليها كتابات هيروغليفية، وقد توصلت إلى أن تلك الأحجار قد جاءت بالتأكيد من معبد الآلهة فى سايبس "..."إن الحجر الذى يعرف الآن بحجر رشيد معروف بأنه جزء من معبد آتوم الذى كان يوجد فى "بولبتين" القديمة. إلا أننا لم يتم تحديد موقع هذا المعبد فى منطقة "رشيد" وكان هناك إتجاه إلى إفتراض موقعه محل قلعة قايتباى، وفى فرضية أخرى إن هذا المعبد ربما كان يقع فى تل أبو مندور، أى الموقع المفترض لبولبتين على بعد ٢كم من جنوب "رشيد" الحالية. إلا أننا نستبعد أن يكون ، المعبد قد شيد فى موقع قلعة قايتباى، ذلك أن الأراضى التى شيدت عليها هذه القلعة حديثة التكوين نسبيا، نشأت من إرسابات النيل ومن جانب

آخر فنحن لا نعلم أى شىء عن الموقع القديم لمدينة "بولبتين" فى العصور الفرعونية والبطلمية - وكل معلوماتنا عن هذه المدينة - أنها كانت تقع على الفرع البولبتينى الذى كان يحمل إسمها كما كان بها ترسانة لبناء السفن فى العصر الرومانى"(٤). "وعلى العكس من "رشيد" فقد كانت "سايبس" عاصمة الأسرة السادسة والعشرين، وقد فضلها نختنابو الأول كما كانت تحظى باهتمام البطالمة. وإذ قمنا بإثبات أن الكثير من الكتل الحجرية التى أعيد إستعمالها فى مبانى "رشيد" قد أتت من "سايبس"، فيمكننا أيضا أن نؤكد أن الأحجار التى ترجع إلى عصور أبسماتيك الأول ونختنابو الأول وأيضا حجر رشيد والتى توجد فى المتحف البريطانى قد جلبت برمتها من"سايبس" (٥).

إن ما يؤكده لبيب حبشى -إن لم يكن ينكر وجود مدينة "بولبتين" - فهو يضع وجودها قبل العصر الرومانى موضعا للشك - وإذا كنا من جانبنا لا نشك فى وجود تجمع أو مدينة حمل إسم "بولبتين" على أقل تقدير فى العصر البيزنطى - حينما أصبحت عاصمة لكورة من الكور إلا إننا نجد صعوبة بالغة فى رسم صورة واضحة عن الدور الذى لعبته تلك المدينة فى العصور القديمة.

فمن المحتمل أنها كانت مجرد موقع حصين على أحد مداخل النيل السبعة أو مرفأ للسفن على أقصى تقدير، ومما يدفعنا للأخذ بهذا الرأى ما يلى :

- ما يذكره ديودور عن ساحل البحر (أنظر الجزء الأول)
- طبقا لما جاء فى الوثائق التاريخية(٦)، وما ذكره سترابو أنه قد ورد على مصر فى زمن أبسماتيك كثير من الميلزيين فى نحو ثلاثين سفينة وأرسو عند مصب فرع النيل البولبتينى، ثم توغلوا داخل الدلتا وشيدوا ما يعرف بالحائط الميليذى(٧)، ثم توغلوا غربا وشيدوا مدينة "نقراطيس"(٨) ولم يعثر على أى أثر حتى الآن لـــهذا الحائط الميليذى ويعتقد خطأ أن الحائط الميليذى هو حصن رشيد مكان الموقع الحالى لمدينة فوة التى يخلط الباحثون بينها وبين مدينة "مينيليس"(٩).

أما ما يهمنا فهو تشييد مدينة "نقراطيس" التى ستصبح فيما بعد أول ميناء تجارى هام فى غرب الدلتا قبل نشأة "الإسكندرية" . لقد تم إختيار موقع "نقراطيس" على بعد ٧٠كم من ساحل البحر وعلى الفرع الكانوبى، فما هى الأسباب التى جعلت هؤلاء البحارة(١٠) يختارون هذه الموقع؟ سوف نسوق بعض الأسباب المنطقية التى تبرر هذا الإختيار:

- البعد عن إرسابات النيل عند المصبات.
- خلو الساحل من التعرجات (كما أشرنا من قبل).
- البحث عن مكان آمن بعيدا عن مداخل النيل التى كانت دائمة التعرض للغزوات القادمة من البحر مما كان يشكل مخاطر على إزدهار النشاط التجارى.
- العيوب الملاحية للفرع البولبتينى التى تحدث عنها علماء الحملة بالتفصيل فيما بعد والتى سوف نشير إليها فى هذا الباب.

لقد كان إذن للموقع الساحلى مساوئه بحيث كان من المفضل أن تنشأ المدن بعيدة عنه ورغما كان هذا شرطا من شروط إزدهارها وبقائها. ومما يؤكد ذلك وجود معظم المدن فى العصر الفرعونى عند خط عرض ٣١°"سبنتوس" على الفرع السبنيتى و"تانيس" على الفرع التانيسى و"منديس" على الفرع المنديسى كلها تقع جنوب منطقة البرارى(١١)، لا تشذ عن هذه القاعدة سوى "بيلوز" ورغما "بولبتين" على اللسان الممتد داخل البحر والذى كان يسمى "قرن الحمل" Corne d'agneau . إذا كانت المدن التى تحمل أسماء فروع النيل السبعة -تقع داخل الدلتا وليس على الساحل -عن أى مدينة يتحدث إذن سترابو وهيرودوت والآخرون الذين أشاروا إلى وجود مدينة عند إلتقاء فرع النيل بالبحر وتحمل إسم الفرع؟ هل كانت هناك مدن أخرى فى هذه المواقع لها نفس أسماء المدن الداخلية الموجودة داخل الدلتا والتى تركت العديد من الآثار التى ساهمت فى تحديد موقعها؟ وفى الواقع فإن ديودور الصقلى الذى زار مصر إبان الغزو الفارسى يعطينا إجابة على هذا التساؤل فهو يقول : *"يصب النيل فى البحر من خلال سبعة مصبات وعند كل مصب نشأت مدينة شيدت بها تحصينات وطوابى عالية وعلى جانبى النهر الذى رُبطت ضفتيه بكوبرى من الخشب"(١٢)* ثم يتحدث ديودور باستفاضة عن مصب الفرع البيلوزى وتحصينات مدينة "بيلوز" ثم يضيف *"عندما فطن جنود فارنباز أنه سوف يتعذر عليهم دخول مصر من خلال فتحة الفرع البيلوزى نتيجة لقوة تحصيناتها، توجهوا إلى فتحة الفرع المنديسى، ونزل ٣٠٠٠ جندى فى المدينة المحصنة التى كانت توجد هناك"(١٣).*

وترجع أهمية هذا النص أنه يستعمل لفظ "Bourgade" أى المدينة المحصنة الصغيرة" ليشير إلى المدينة التى إحتلها الفرس عند المصب المنديسى والتى لا يمكن أن تكون "منديس" فموقع "منديس" معروف، ثم أنها لم تكن قط مدينة محصنة صغيرة، وإن دل هذا النص على شىء فهو يؤكد ما إفترضناه من أن المدن التى كانت عند المصبات، عدا "بيلوز" و "كانوب" لم تكن سوى مجرد مدن حصينة صغيرة الحجم بها حامية - أى

حاميات - يقطنها "المرابطون" كما وصفها العرب بعد ذلك . ربما كانت تلك المدن المحصنة فى أقصى شمال الدلتا شبيهة بالمدن المحصنة على الحدود الجنوبية فى مصر مثل حصن سمنا وآروناتى.

كانت "بولبتين" إذن، حصنا من تلك الحصون ولم تكن تتمتع بالمكانة التجارية لـ"كانوب" أو "نقراطيس" كما أنها لم تتدهور -كما أشرنا من قبل وكما هو شائع(١٤) بعد نشأة الإسكندرية- بل على العكس من ذلك ربما إنتعشت بعد نشأة " الإسكندرية" حيث لعبت دور ميناء الترانزيت كما لعبته "رشيد" الحديثة بعد ذلك فى العصرين المملوكى والعثمانى. وإلا لماذا أصبحت عاصمة إقليمية فى العصر البيزنطى؟

والجدير بالذكر، أنه منذ دخول المسيحية مصر سنة ٥٤م نجد أسماء مراكز العمران ترد فى الآثار القبطية فلأول مرة تهمل تسمية "بولبتين"، ويذكر إميلينو Amelineau أن الإسم القبطى لتلك المدينة هو Raschit ومنه إسمها العربى "رشيد" لكنه يضيف بأنها لم تذكر سوى مرة واحدة فى إحدى الوثائق القبطية على الرغم من شهرتها فى مصر وأوروبا ويعلل ذلك بإن المدينة لم تكن - فى رأيه- توجد فى الأزمنة القديمة ولابد أنها نشأت على أنقاض مدينة قديمة، وبالإمكان فهم هذا الرأى على أن "بولبتين" قد أصابها التدهور، وأن الأقباط جددوها وأسموها هنا الإسم المصرى الذى ينحدر من Rekhetou (١٥). وقد ذكرت رشيت من بين المدن المحصنة التى تم الإستيلاء عليها عند غزو العرب لمصر (١٦).

٣ - ٢ عن "فوة" و "رشيد"

قبل التطرق للعلاقة بين "فوة" و "رشيد" علينا أولا أن نصحح خطأ شائعا حول أصل "فوة" والرأى القائل بأن فوة هى "ميتليس" Metelis العتيقة حيث صار هذا الرأى عاما وترتبت عليه إستنتاجات خاطئة ما زالت تتردد إلى الآن (١٧).

٣-٢-١ "متيليس" و"فوة"

حاول الرحالة سافارى أن يبرهن، فى رسائله عن مصر المطبوعة عام ١٧٨٦(١٨)، عن أن "فوة" قد شيدها الميلتيون فى عهد أبسماتيك الثانى على ساحل البحر، ونظرا لنمو الدلتا أفقيا على حساب البحر، فقد أصبحت تبعد عن الساحل بمقدار ٤٠ كم فى عهد الإسكندر الأكبر(١٩).

ووجهة النظر هذه تلغى وجود "بولبتين" فى العصور الفرعونية إذ أن "فوة" تقع جنوب "رشيد" حاليا على بعد حوالى ٣٥ كم من جانب، ومن جانب آخر فإن نمو اللسان الرملى لرشيد داخل البحر، نتيجة لإرسابات النهر، يتقدم بمعدل ١٢متر فى السنة (٢٠)، أى بمعدل ١٢٠٠متر فى قرن من الزمان - فإذا كان الميلتيون قد قدموا حوالى ٦٦٥ ق.م.، فكيف يمكن للسان أن يتقدم داخل البحر بأكثر من ٤٠كم حيث أن بولبتين لم تكن على الساحل مباشرة فى غضون ٣٠٠ عام!- هذا وقد دحض Volney هذا الرأى معتمدا على نص سترابو الذى لم يجىء فيه أن الميلتيين قد شيدوا مدينة عند مخرج الفرع البولبيتينى، بل أشار إلى تشييد حصن فى هذا الموقع ثم إتجهوا بعد ذلك إلى كورة "سايبس" حيث تغلبوا على قوات إينارس وشيدوا مدينة "نقراطيس"(٢١) وكل السير التاريخية تؤكد أقوال سترابو. كما يتساءل Volney كيف نما هذا الساحل بمقدار "فرسخ" فى الفترة الواقعة بين زيارة هيرودوت والغزو اليونانى بينما لم يتقدم بمقدار فرسخ من أيام الإسكندر(٢٢). ولكن هذا الجدل لا يجيب على التساؤلات الدائرة حول "فوة" و"متيليس"

هل فوة هى متيليس؟ وإن لم تكن مدينة واحدة أين كان موقع "متيليس" ومتى نشأت فوة؟ وكيف أصبحت ثانى مدن مصر فى العصور الوسطى؟

٣-٢-١-١ موقع كورة "متيليس"

إن أقدم الإشارات لكورة "متيليس" ترجع إلى بلاين Pline الجغرافى (٢٣-٧٩) (٢٣)، ثم بطليموس (القرن الثانى بعد الميلاد) ويعتبر الوحيد الذى حدد موقعها بدقة عند خط عرض ٣١، بين النهر الكبير (الفرع الكانوبى) ونهر طانى أى الفرع البولبتينى(٢٤). أما إثيان البيزنطى Etienne de Bizance، القرن السادس الميلادى، فقد قال عنها أنها قريبة من الإسكندرية، وإسمها الحالى Béchis(٢٥) ، وكذلك جورج القبرصى (٦٠٠م) الذى عدها ضمن كور إبروشية إيجيبت (٢٦) قائلا أنها تقع بعد كورة "الإسكندرية" و"مينيلايس" (شديا) وقبل كورة Phténotu وكلها إشارات غامضة لا تسمح بتحديد موضع الكورة بدقة ولا حدودها الإدارية.

وإعتمادا على بطليموس، الوحيد بين الجغرافيين الذى حدد موقع كورة "مستيليس" بالتقريب، فإنه لا يمكن الخلط بين Métélis التي تقع شرق الفرع الكانوبى غرب فرع رشيد و فوة الحالية التى تقع على الشاطىء الشرقى لفرع رشيد. هذا وقد أكدت البرديات والعملات إستمرار "مستيليس" خلال الأربعة قرون الأولى الميلادية منذ ١٢٧م "هادريان" حتى عام ٥٢٧م أى فى بداية عصر "جستنيان.Justinien(٢٧)

ولا توجد أية شواهد على وجود تلك الكورة فى العصر البطلمى بينما وجدت كورة "رشيد" منذ نهاية هذا العصر، وقد نشأت بالتأكيد فى العصر الرومانى عندما زاد عدد الكور في غرب الدلتا نتيجة لزيادة عدد السكان وإتساع الرقعة الزراعية(٢٨).

وقد تحور اسم كورة Métélis فى العصر القبطى ـ حيث تشير وقائع حنا النيقوسى والقوائم العربية القبطية للقرن الرابع عشر الميلادى ـ إلى أن Métélis قد أصبحت Malidis أو Maçil . واذا كانت شهادات الجغرافيين القدامى لم تعطى إجابات شافية على التساؤلات المطروحة حول "مستيليس" Métélis على التساؤلات المطروحة حول فإن الفرضيات الحديثة لا تقل تضاربا وغموضا وسوف نسوقها طبقا لترتيبها التاريخى:

* سونينى(١٧٩٩م): Sonnini

أعطانا سونينى وصفا فريدا لمدينة "فوة" إلا أنه خلط بينها وبين "نقراطيس" مما يعد خطأ غير مقبول حيث كشفت الحفريات عن موقع "نقراطيس" بالتحديد(٢٩).

* شامبليون (١٨١٤م): Champollion

وقد أكد شامبليون العالم الأثرى المعروف أن Métélis ليست Maçil العربية أو Mailidis القبطية ويعتقد أن التشابه بين Massil و Métélis هو أساس الخلط بين المدينتين(٣٠).

* جان دى روجيه وبتوى (١٨٨٦م) (٣١): Jean de Rougèt Petry

وفى أول محاولة لتوقيع موقع مدينة Métélis وليس كورة مستيليس، قام بترى بتحديد موقعها عند "كوم مالاشا" Kom Malasha شرق إدكو. بينما يوقع جان روجيه موضعها فى "فوة" جنوب البحيرة (٣٢).

أميلينو(١٨٩٣م): Amélineau

ويتفق أميلينو صاحب القاموس الجغرافى الشهير والذى تخصص فى دراسة أسماء الأماكن مع "شامبليون" على أن الإسم القبطى "ماسيل"Maçil مشتق من الإسم الرومانى "مستيليس" Métélis . ويشير إلى أن ماسيل Maçil هى أسقفية "فوة" وأسقفها يدعى "مكارى". إلا أنه يفرق بين "فوة" و"ماسيل" ويضيف إلى أن تلك الأخيرة قد ضمت إلى"فوة"نظرا لفقدانها أهميتها أو بسبب نقص عدد الأسقفيات(٣٣).

وفى عام ١٨٩٤م ـ حدد دارسى Darressey موقع "مستيليس" Métilis بجوار "أطفيح" على الشاطى الغربى لفرع دشيد ـ محل "كوم النخل" الحالى(٣٤). وفى عام ١٩١٢، إستطاع ماسبيروأن يحدد موقع "مستيليس" Métilis فى مدينة Aykelah التى أشار إليها حنا النيقوسى فى حديثه عن ثورة أهل هذه المدينة القبطية ضد الإمبراطور أغسطس. وإتفق معه فى الرأى جاستون فييت G.Viet (٣٥). وقد إستند عمر طوسون (١٩٢٦) على اليعقوبى لكى يحدد موقع كورة ميتيليس، فقال أن كورة Maçil-Malidis عند اليعقوبى كانت تقع على قناة الإسكندرية بجانب كورة Métilis وكانت حدودها الإدارية تمتد من خور "بولبتين" وتقع بين هذه الكورة وبحيرة إدكو. وبهذا يتفق عمر طوسون مع عالم الأثريات بترى(٣٦) .

وجاء هنرى جوتييه Henri Gauthier (١٩٣٥) ليطرح رأيا يناقض كل ما قيل من قبل، فقد حدد موقع كورة مستيليس فى منطقة بحيرة إدكو وليس فى النوم السابع طبقا لما جاء فى القائمة الهيروغليفية. كما إفترض أن كورة "مستيليس" قد نشأت من تقسيم كورة ميتيلايس Ménélais (شديا) فى العصرالرومانى. وقد قال " إن *العاصمة ME'E التى وضعها دارسى على الفرع البولبتينى و Mtla المشار إليها فى الوقائع الديموطيقية لا تتطابقا وليست لهما أية علاقة بالنوم السابع للقائمة الهيروغليفية فمنزل "ها" إله الغرب، كان فى غرب الفرع الكانوبى بينما كانت مستيليس وكورتها شرق هذا الفرع، وهى نفسها Maçil القبطية، والتى أشار إليها الرحالة العرب والمجاورة لفوة وقد وصفها هـ. جوتييه فى محافظة البحيرة على الشاطىء الأيسر لفرع رشيد قرب العطف*" (٣٧).ويتفق جون بول John Ball (٣٨) مع هـ.جوتييه .

وبعد أن زار لبيب حبشى (١٩٤٣) المنطقة حدد موقع ماسيل القبطية قرب المحمودية وقال عن فوة: أما فوة، فلم يكن لها أهمية فى العصور الفرعونية والبطلمية ولكنها إزدهرت إزدهارا كبيرا فى العصور الوسطى حتى أصبحت ثانى مدن مصر بعد "القاهرة" فى القرن الخامس عشر(٣٩).

خلاصة القول فى هذا النقاش الذى لم يؤد إلى تحديد كل من موقع كورة مستيليس أو موضع المدينة نفسها:

- إن مستيليس وفوة، مدينتان مختلفتان قامت كل منهما على ضفتى الفـــــرع البولبتينى. وربما كانتا توأمتين كما يذهب إلى القول J.Jarry (١٩٦٤).(٤٠)
- إن إسم ماسيل القبطية مشتق بالقطع من Métilis الرومانية ولكنهما مدينتان مختلفتان غرب فرع رشيد.
- إن الخلط بين "ماسيل" و "فوة" يرجع إلى نقل أسقفية ماسيل إلى فوة، كما تدلنا الوثائق القبطية، أى أن فوة قد أصبحت مقر أسقفية ماسيل.

ولكن كيف أصبحت فوة أهم من رشيد على الرغم من موقع رشيد الجغرافى ومكانتها الإدارية السابقة على وجود فوة وماسيل؟

٣ ـ ٢ ـ ٢ تطور الوضع الإدارى " لفوة " و " رشيد "

تتبع المدينتان حاليا محافظتين مختلفتين، ففوة مركز في محافظة كفر الشيخ كذلك رشيد مركز فى محافظة البحيرة.

ففى العصر الفرعونى لم يكن هناك قسم مستقل لرشيد، فقد كانت تتبع إداريا المقاطعة السابعة "رع أمنتى" أو "نفر أمنت"، بينما لم يكن لمتيليس وجود. وقد ظهرت كورة مستيليس، كما أشرنا من قبل، فى أواخر العصر البطلمى نتيجة لتقسيم كورة مينيلايس (شيديا) التى كانت تحتل الجزء الشمالى لمحافظة البحيرة الحالية.

وقد كانت كورة بولبتين من ضمن الثلاثة والثلاثين كورة التى عددها جورج القبرصى فى قائمته. كما ذكر شارل دى لارونسيير Charles de la Roncière (٤١) عدد أربعة عشر أسقفية فى الإقليم الأول لمصر (إجيبت)، فى العصر البيزنطى، كانت كلها تابعة للكنيسة الكاثوليكية بالإسكندرية. وفيما يلى مقاطعات البحيرة قديما وبين الأقواس مقر أسقفية كل منها:

مستيليس (مصيل)- نقراطيس (النبيرة) - أندروبوليس (خربتا) - مينيلايس (إدكو) ثم مريوطيس (مريوط).(٤٢)

وعلى الرغم من وجود مستيليس، إلا إننا لا نجدها ضمن قائمة الـ ٣٣ كورة التى أوردها عمر طوسون إستنادا على جورج القبرصى.

خلاصة القول، إن "رشيد" أو" بولبتين"، سابقة على كورة "مستيليس" أو ربما تواكب ظهورهما فى العصر الرومانى.

فى بداية الفتح العربى وحتى مرحلة الأعمال الصغرى ـ يختفى إسم مستيليس، ليحل محله أسماء: " كورتين،" ماليديس"،" ماسيل"، بين الفرع الكانوبى والفرع البولبتينى ـ وهى عواصم لكور تحمل نفس الإسم فى الوقت الذى تظل فيه "رشيد " عاصمة لكورة.

وفى أواخر القرن الحادى عشر ـ عندما أعيدت إراكة الأراضى المصرية وحلت الأعمال الصغرى محل الكور يظهر إسم فوة لأول مرة كعاصمة لعمل المزاحمتين ـ كما تظل رشيد قاعدة لعمل رشيد، ويرجح أن المدينتين كانتا تتساويان فى الأهمية فى هذه الفترة (حوالى ١٠٨٩م) فقد قال ياقوت عن فوة أنها "*مدينة صغيرة على شاطىء النيل وقريبة من رشيد ، بينها وبين البحر حوالى خمس parasanges وبها أسواق كثيرة ونخيل.*" وعن مدينة "رشيد"، "أنها *مدينة صغيرة عند إلتقاء البحر بالنيل، تقع بجانب الإسكندرية*".(٤٣)

٣ ـ ٣ ثغور مصر عند الفتح العربى

وفى مرحلة الأعمال الكبرى (القرن الرابع عشر)، ترتقى "قوة" إلى مصاف قاعدة لعمل قوة والمزاحمتين بينما تتقهقر "رشيد" التى أصبحت مدينة ضمن عمل "النستراوية" وفقدت مكانتها كعاصمة إقليمية.

وعندما فك زمام القطر المصرى فى أوائل الحكم العثمانى – أصبح ولاية عثمانية- كان لرشيد ديوانا للجمارك على غرار ما يوجد فى "الإسكندرية" و"دمياط" و"بولاق" (٤٤)، إلا أنها ظلت جزءا من عمل النستراوية الذى كان قاعدته نستراوة(٤٥)، بينما ظلت قوة قاعدة لعمل قوة والمزاحمتين.

أما فى أيام الحملة الفرنسية فقد تضاربت الأقوال، فنجد من يقول بأنه قد ألغى إقليم نستراوة وصارت رشيد أحد أقاليم مصر العثمانية وأصبحت من جديد عاصمة إقليمية(٤٦).

ثم أصبحت رشيد محافظة بدءا من ١٨١١م بينما غدت قوة مركزا فى محافظة الغربية وهو الوضع الذى تحتله حتى الآن.

كانت مداخل مصر الهامة على الساحل الشمالى إبان الفتح العربى هى "بيلوز" فى الشمال الشرقى، والإسكندرية فى الشمال الغربى وبينهما "دمياط" و"رشيد"، أو "تامياتيس" و "رشيت" القبطيتان وكلهم مدن عواصم إقليمية أو قصبات لكور كما ورد فى قائمة جورج القبرصى، كما كانت تلك المدن تشترك أيضا فى كونها مقار لأسقفيات ممثلة فى المجامع المسكونية "بالإسكندرية"(٤٧). وإذا تحينا "الإسكندرية" جانبا، نظرا لكونها مدينة كبرى لا تقارن بالمدن الأولى من حيث الوظائف التى تضطلع بها أوالحجم أو الأهمية، نجد أن الثغور الثلاثة السابقة الذكر تتفاوت أهميتها ووظائفها.

ففى الشرق جمعت "بيلوز" و"دمياط" بين الوظائف الحربية والتجارية والإدارية، وتفوقت "دمياط" على "بيلوز" نظرا لكونها من المدن الصناعية حيث إشتهرت بصناعة الأنسجة الدقيقة مثلها مثل الثغور الأخرى الأقل أهمية ك "شطا" و "تونة" و "تنيس". ففى ذلك الزمان "كانت السفن الشراعية الكبيرة المحملة بالكتان وورق البردى والزجاج والمنسوجات الدقيقة تخرج كل يوم من "دمياط" ثم تدخل إليها مراكب أخرى محملة بأخشاب الشام ومرمر اليونان ومعادن روما(٤٨).

١) "الفرماء"

أما "الفرماء" (بيلوز)، فكانت مفتاح مصر من الشرق، تشرف على الطريق القادم من الصحراء وتلك ناصية البحر ويجرى إليها فرع من النيل يؤدى إلى مصر السفلى وكان الفينيقيون يدخلون مصر بمراكبهم من هذه الميناء وكانت أيضا رأس الطريق إلى بلاد العرب(٤٩).

فى الشمال الشرقى إذن مدينتان – ثغران – متزنان – حتى لو كانت "الفرماء" أو "بيلوز" سابقة على دمياط بعهود طويلة، ولكن أقدار المدينتين سوف تختلف، فإن "الفرماء" ستتدهور بالتدريج نتيجة لتضافر العوامل الطبيعية والإستراتيجية لترثها دمياط وتصبح مدخل مصر الوحيد فى هذه الجهة.

أولا: كانت "الفرماء" أول موضع قوتل فيه عمرو عند فتح مصر، وقد إضطر لهدم أسوارها وحصونها حتى لا ينتفع بها العدو إذا عاد إليها(٥٠).

ثانيا: تواكب الفتح العربى مع حركة الهبوط التاريخية لساحل البحر الشمالى وطغيان البحر عليه (أنظر الباب الأول ...) ، وقد إنعكس هذا الهبوط على فرعى

النيل الطبيعيين البيلوزى فى الشرق والكانوبى فى الغرب، بينما زاد حجم المياه فى فرعى دمياط ورشيد وقد تأثرت مكانة "بيلوز" بهذه التغييرات الفيزوغرافية فانعزلت عن النظام المائى فى مصر أولا قبل أن تدمر ثم تنتهى فى القرن الثانى عشر أثناء الحروب الصليبية.

وعلى الرغم من مخاوف المسلمين الفاتحين من ركوب البحر والأنهار وتفضيلهم للمقام والسكن فى المدن الداخلية، فلم يؤثر ذلك على عمران أو إزدهار مدن الشمال الشرقى وعلى رأسها "الفرما" - قبل تدهورها- وجزيرة "تنيس" و"دمياط" ، وظلت أهم المدن وأكبرها حجما هى تلك المدن الساحلية، ذلك أن مصر كانت ما تزال فى مرحلة التبعية للخلافتين الأموية والعباسية (٥١) وهذه التبعية لها تأثيرها فى ضعف أو ضآلة نمو المدن واقتصار أهميتها على تلك الواقعة فى شرق الدلتا حيث كان توجيه مصر نحو الشرق الآسيوى مما أكسب المدن ذات العلاقات بالشام والعراق والجزيرة العربية أهمية كبيرة أكثر من غيرها وكذلك وقع الإعتناء بها لصد الحملات البحرية التى شنتها الدولة البيزنطية.

ب) " رشيد " :

على الرغم من تشابه "رشيد" مع "دمياط" فى الموقع الجغرافى والإدارى إلا أنها لم تقم بدور يقارن بما قامت به "دمياط" إبان الفترة العربية الأولى وذلك لإختلاف معطيات الموضع بين المدينتين من جانب وتأثير الإسكندرية وضواحيها وموانيها الثانوية على رشيد من جانب آخر.

فالظهير الزراعى "لرشيد" محدود للغاية إذ يكاد ينحصر فى ما يحيط بضفتى النهر فى منطقة المصب كما كان إنتشار التكوينات الرملية فى غربى المدينة وزحفها على العمران أكبر الأثر على الأراضى الزراعية وعلى العمران، فقد هجرت "رشيد" عدة مرات أمام زحف التكوينات ولجأ سكانها إلى "فوة" ثم عادت المدينة إلى حياتها من جديد.

وفى النهاية فإن لمصب رشيد عيوبه الملاحية، إذ تغلقه الرمال المتسببة بفعل الأمواج على شكل حواجز رملية، كما أن تيار النهر المتدفق فى إلتقائه مع البحر يخلق مناطق ثائرة يصعب إجتيازها(٥٢) كل هذه الأسباب مجتمعة، بالإضافة إلى وجود "الإسكندرية" و"كانوب" و"شبديا" و" الكريون" و"ماريا".. الخ، فى غرب الدلتا، جعلت من ثغر "رشيد" غير ذى أهمية سوى من الناحية الإستراتيجية كمدخل من مداخل أفرع النيل.

وعندما إشتدت هجمات الروم البحرية على ثغور مصر، فى عهد الخليفة المتوكل خاصة تلك التى وقعت على "دمياط" و"تنيس"، أمر المتوكل ببناء حصن دمياط ٨٥٣م، وأنشىء حينئذ الأسطول بمصر، كما أقام حصونا أخرى فى "تنيس" و"الفرما"(٥٣) لذا كان من المهم تجديد ثغر "رشيد" البعيد عن الساحل وبالتالى عن هجمات الروم وتحصينه ضد الهجمات التى تقع عليه، هذا فضلا عن أن مصب الفرع الكانوبى كان قد جف تماما حوالى ٨٧٠م وإنحبس ماء النيل عن ترعة شديا (خليج الإسكندرية)، وأضطرت الملاحة إلى سلوك فرع رشيد، غير أن مخاطر إجتياز بوغاز هذا الفرع وعيوبه الملاحية، وجهت السفن نحو "دمياط" التى ورثت "بيلوز" و"الأسكندرية"(٥٤).

جـ) "رشيد" و"فوة"

يعتبر موقع "فوة" من مواقع المعابر بإعتبار جزيرتها التى تقرب المسافة بين ضفتى النهر ووجود المعدية أيضا التى تربط بين رحلتى الطريق البرى فى وسط الدلتا وغربها، وقد تطورت "فوة" فى ضوء إعتبارات خاصة منها تدهور "رشيد" نتيجة لزحف التكوينات الرملية وإنتقال أهلها إلى تلك الأخيرة، ثم قيامها بالوظيفة الإدارية بدلا من "رشيد" لتصبح فى النهاية قاعدة لعمل فوة والمزاحمتين فى مرحلة الأعمال الكبرى.

إلا أننا لا نعرف متى حلت "فوة" محل "رشيد" أو العكس، ففى موسوعة الإسلام جاء ما يلى:

" *حتى القرن التاسع الميلادى كانت السفن تتجه مباشرة لفوة، وبسبب الترسيبات العالية فى تلك المنطقة، بدأت المراكب ترسو عند رشيد فى عصر المتوكل*" (٥٥).

ولا يخلو هذا الأمر من غموض، "فوة" لم يكن لها وجود إدارى على أقل تقدير، قبل العصر الفاطمى، بينما كانت "رشيد" عاصمة أو قصبة كورة، فهل إقتصرت وظيفة "رشيد" فى الفترة العربية الأولى على الوظيفة الدفاعية تاركة الوظيفة التجارية "لفوة"؟

ونظرا لوقوع "فوة" على فرع رشيد فإن الوصول إليها من البحر المتوسط عن طريق هذا الفرع، كانت تحرق به نفس المخاطر التى أشرنا إليها من قبل، فهل كانت "فوة" مرتبطة مائيا بخليج الإسكندرية؟ أو بالفرع الكانوبى عن طريق قناة ثانوية سمحت لها بلعب دور ميناء الترانزيت بين "الإسكندرية" وبقية مدن الإقليم المصرى؟ فى الواقع فإن هذه الفرضية تستند على أسس تاريخية وجغرافية مؤداها:

- يشير حنا النقيوسى فى وقائعه إلى مدينة "ابكلة" Aykhelah التى ثار أهلها ضد الإمبراطور فى العصر البيزنطى، وتلك المدينة كانت تقع بين الفـــرع الكانوبـــــى

والبولبتينى تتحكم فى ملتقى عدة مجارى تهرية سمحت لأهلها أن يقطعوا الإمدادات عن "الإسكندرية" وعن القسطنطينية(٥٦).

- إستنادا على هذه الواقعة، فقد إستنتج الباحث جارى (١٩٦٤) أن "أبكلة" هى "مستيليس" وهى نفسها "قوة". ودلل على وجود قناة فى تلك الفترة حفرت فى عصر الإمبراطور ليون (٤٧٤ -٤٧٥م). وأصبحت فيما بعد قناة المحمودية وبطت "قوة" أو "أبكلة" بخليج الإسكندرية(٥٧).

- ويتفق دارسى Darressey مع جارى Jarry على وجود فرع مائى على درجة من الأهمية يربط ماسيل Maçil أو "ماليديس" بخليج الإسكندرية، إلا أنه يختلف فى موقع هذا الفرع أو القناة. فهو يقول: *"كان نهر طالى (الفرع الكانوب) ينقسم بين نقراطيس ودمنهور إلى فرعين ثانويين، يتجه أحدهما إلى الشرق، مارا بمدينة "لاخان" (لجانة اليوم) وقرى "منية بنى موسى" ومنية داوود". أما الآخر، فكان يتجه إلى الغرب قليلا ثم يعرج شمالا حتى يصل إلى العطف حيث يلتقى بالقناة التى أصبحت فيما بعد فرع رشيد"* (٥٨). هذا ويماثل هذا الفرع الجزء الذى تم حفره فى عصر السلطان قلاوون لتجديد خليج الإسكندرية، فهل كانت هذه المجارى الثانوية موجودة ثم إندثرت وأعيد حفرها ثانية فى عهد السلطان قلاوون.

فى الواقع فإن تضارب الآراء حول هذه النقطة لا يسمح لنا بتأكيد أية فرضية من الفرضيات المطروحة - إلا أننا نعتقد فى النهاية - حتى نضع حدا لهذا الجدل، أنه من غير المنطقى أن "قوة" الواقعة على بعد ٤٥كم من البحر كانت فى العصر العربى الميناء الأول الذى ترسو عنده السفن، فى حين كانت "رشيد" الواقعة على بعد ١٠كم على مخرج النيل - قصبة كورة رشيد- بدون مرفأ لرسو السفن ثم أن "قوة" لم يظهر إسمها بين قصبات الكور سوى فى العصر الفاطمى، وعلى وجه التحديد فى آخر القرن الحادى عشر - كقاعدة لعمل المزاحمتين أى أنها بدأت تحل محل "رشيد" بدءا من هذا التاريخ وليس العكس- ثم وصلت إلى أوج عظمتها فى القرن الخامس عشر كما سنرى بعد ذلك.

٣-٤ العصر الفاطمى (عصر الدولة الفاطمية)

على أثر الغزو الفاطمى لمصر ٩٦٩م، وتأسيس مدينة "القاهرة" كعاصمة، نشطت التجارة الخارجية التى لم تعد مقصورة على "الإسكندرية" فقط.، بل شاركتها فيها "رشيد" و"دمياط.".

أ) " دمياط "

فضلا عن كونها ميناء هام وثغر مصر الأول فى التجارة القادمة من الشام ومدينة من مدن النسيج من الطراز الأول، فقد أصبحت "دمياط" أيضا من المدن الثقافية الهامة إذ غدت مساجدها مراكز علمية لكثير من الطلاب(٥٩) والرواد والفقهاء والشعراء والكتاب الذين سجل بعضهم مشهداته (٦٠).

وفى عام ١٠٩٦م زار مصر الأديب الأندلسى "أمية أبو الصلت" ووضع الرسالة المصرية التى يقول فيها:

" ...وليس تشتمل أرض مصر بعد الفسطاط، الذى هو مقر الملك وكرسى الدولة على مدائن لها قدر فى كثرتها ولا فخامتها. ولكن أجل مدائنها وأفخرها فى الجهة الشمالية من الفسطاط هى الإسكندرية وتنيس ودمياط. وأما فى الجهة الجنوبية إلى أقصى الصعيد "قفوص" و"قفط""(٦١).

وينتهى عصر الدولة الفاطمية بتعرض "دمياط" لغزو الروم عام ١١٥٥م.

ب) " رشيد "

فى دراسته عن العمران الريفى لمنطقة "رشيد"، يشير عبد الجابر عيسى إلى ظهور مراكز عمرانية جديدة فى منطقة "رشيد" المجاورة للنهر مثل نواحى "رشيد" و"الجديدة"(٦٢) كما يظهر فى أطلس الأمير عمر طوسون مركز عمرانى لأول مرة وذلك فى نفس الفترة وهو محله الأمير فى إقليم قوة والمزاحمتين(٦٣) ويستنتج عبد الجابر عيسى من ذلك أن إستمرار إستخدام فرع وميناء "رشيد" فى التجارة فى عهد الدولة الفاطمية خاصة عهدها الأول قد جعل العمران يدب فيها(٦٤). هذا وقد وصفها ياقوت الحموى صاحب معجم البلدان (١٢٢٩م)، بقوله:*"بلدة صغيرة على شاطىء النيل وقريبة من الإسكندرية"* ثم أخذ يعدد أسماء الأعيان والعلماء الذين عاشوا فى رشيد مما يدل على مكانتها العلمية والثقافية.

جـ) " قوة "

ظهرت "قوة" لأول مرة بين العواصم الإقليمية كقاعدة لعمل المزاحمتين فى أواخر القرن الحادى عشر، أى فى العصر الفاطمى.

٣ ـ ٥ عصر الدولة الأيوبية

شهدت "الإسكندرية" بصفة خاصة فى هذا العصر نشاطا تجاريا واسعا نتيجة للإمتيازات التى منحها السلاطين الأيوبيين لتجار المدن الإيطالية(٦٥). وكان قد تم إعادة تطهير خليج الإسكندرية فى العصر الفاطمى عام ١٠١٣م بأمر الحاكم بأمر الله فى جزئه الأدنى، مما ساهم فى ربط "الإسكندرية" ببقية أقاليم القطر المصرى.

ويعزو إزدهار تجارة "الإسكندرية" فى هذا العصر إلى تعرض "دمياط" للعديد من الغزوات الصليبية وحصارها الذى إستمر شهورا طويلة مما أثر على تجارتها، وفى نفس الوقت فقد تم تدمير "تنيس" كلية عام ١٢٢٨م بأمر من الملك العادل حتى لا تقع فى أيدى الصليبيين، وكانت "بيلوز" قد إندثرت أيضا أى أن مدن الشمال الشرقى التجارية لم تكن فى ظروف تسمح لها بمزاولة نشاطها التجارى ، وفي الوقت التى تمتعت فيه مدن الشمال الغربى "الإسكندرية" و"رشيد"، بأمان نسبى نتيجة لعدم تعرضها للغزوات الصليبية المتكررة.

هذا وقد ذكر الوزير الأيوبى إبن مماتى "رشيد" من ضمن الثغور المحروسة المصرية مع "الإسكندرية" و"دمياط" و"تنيس"(٦٦)، غير أنه أشار إلى أن ثغر "رشيد" كان الوحيد من بينها الذى ليس فيه خمس أى ضرائب جمركية وربما ألجأت الريح المراكب إلى دخولها وصعب إخراجها منها(٦٧).

---

* تعرضت دمياط للغزو الصليبى عام ١١٧٠م حيث حوصرت مدة ٥٣ يوما برا وبحرا ثم رد الغزاه على أعقابهم. ثم أعادت جيوش الفرنجة الكرة عام ١٢١٨م حيث إستطاعت دخول "دمياط" بعد حصار دام ستة عشر شهرا، وإستمرت بين أيديهم حتى عام ١٢٢١م.

٣ ـ ٦ عصر الدولة المملوكية (١٢٥٠ ـ ١٥١٦م)

فى هذه الفترة تم تخريب ثغر "دمياط" بعد رحيل حملة لويس التاسع عن المدينة سنة ١٢٥٠م وذلك خوفا من عودة الفرنج إليها مرة ثانية. هذا فضلا عن ضخامة ما كان ينفق على تحصينها ولم يتم البدء فى إعادة بنائها وتحصينها إلا فى عهد الظاهر بيبرس أى بعد ١٠ سنوات من عام ١٢٦٠م.

لكن " لما رأى بيبرس أن دمياط الجديدة لم تعد تحميها أسوارا منيعة وأن السلاسل الحديدية التى تعترض النهر لا تقوى وحدها على المقاومة أمر بسد مصب النيل بالأحجار وذلك في عام ١٢٦١م حتى لا تستطيع سفن الأعداء أن تعبر داخل البلاد" (٦٨).

وقد أثرت الحملات الصليبية والمخاطر التى هددت مصر فى هذا العصر ومن ضمنها الغزو المغولى على النشاط التجارى لدمياط بالتأكيد.

هذا فى الوقت الذى تم فيه تجديد وإعادة حفر خليج الإسكندرية فى عصر الناصر قلاوون فأصبح مأخذ فى جزئه الأعلى عند "العطف" مقابل "فوة". وإزدهرت الحركة التجارية فى "الإسكندرية" خاصة فى عصر المماليك البرجية، كذلك أصبحت فوة أهم مدينة تجارية بعد "القاهرة".

هذا وقد لاحظ أبو الفدا فى القرن الثالث عشر، أن "رشيد" أصغر من "فوة"(٦٩) كما قدم عنها ابن دقماق(٧٠) صورة شاملة، فذكر موقعها عند مجمع البحرين وذكر المنار الذى بناه الظاهر بيبرس لكشف البحر. "وهذه البلدة كثيرة الرمال والنخيل وأهلها قليلون وعامتهم صيادون فى السمك والطير وأهل هذه المدينة كلهم مرابطون"(٧١)

وذكر ابن دقماق أيضا أن السلطان قايتباى أنشأ برجا "برشيد" ٨٦٧هـ وبنى حولها سورا لحمايتها من الغارات(٧٢).

٣ ـ ٧ العصر العثمانى

نستنتج إذن من هذا الوصف أن "رشيد" كانت مدينة ذات وظيفة دفاعية، جل أهلها من المرابطين، ومهنة غالبية السكان هى الصيد، أى أنها لم تكن تقوم بدور تجارى يذكر كما أنها كانت قد فقدت مكانتها كقصبة لكورة وتنازلت عن هذا الدور "لفوة"، وقد زار مصر فى العصور الوسطى العديد من الرحالة الأجانب والعرب، وقد أجمعوا على عظمة "الإسكندرية" وثرائها، وأشاروا إشارات مقتضبة إلى "رشيد"، وأسهبوا فى وصف "دمياط" القديمة التى خربت، وتحدثوا قليلا عن دمياط الجديدة ودورها التجارى.

لعبت إذن "الإسكندرية" وحتى بداية عصر المماليك الجراكسة، دور الميناء الرئيسى لمصر كما فى أزهى عصورها، كما قامت "فوة" بدور ميناء الترانزيت، أما "دمياط" فكانت قد دخلت فى مرحلة طويلة من النقاهة تحاول خلالها أن تنهض من الضربات المتوالية التى أدت إلى تخريبها أولا ثم تعطيل سريان المراكب منها وإليها ثانيا، وأخيرا فإن "رشيد" قدأصابها الكثير من التدهور فإنحطت مكانتها الإدارية وفقدت بعضا من أهميتها التجارية (إذا كانت هناك أهمية تذكر) فمنذ الفتح العربى وحتى نهاية عصر المماليك ظلت "الإسكندرية " ممتنى بها بحيث لم يكن هناك أية دواعى لإستغلال ثغر رشيد" فى التجارة. وقبل إنتهاء عصر المماليك بنحو قرن، وقع حريق عظيم "بدمياط" عام ١٤٢٥م حتى إحترق قدر ثلثها(٧٣)، وشن بقايا الصليبيين بقيادة ملك قبرص، هجوما خاطفا مروعا على "الإسكندرية" عام ١٣٦٥م لم يقم للمدينة بعدها قائمة فقد إنحط بها الزمن وقل سكانها(٧٤).

وقد إرتبط بدء إضمحلال "الإسكندرية" نتيجة للغزوة القبرصية والتى تلتها غزوات أخرى على مجمل الثغور المصرية بعامل آخر وهو إحتكار البنادقة لمعظم النشاط التجارى فى البحر المتوسط وإغارة الجنوية - تجار جنوة الذين دخلوا فى منافسة شديدة مع البنادقة- على سواحل الشام ومصر وكذلك السفن المتجهة إلى هذين البلدين مما سبب كسادا فى تجارة مصر الخارجية وأثر فى تجارة "الإسكندرية "تأثيرا بالغا(٧٥).

فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى توج هذا الكساد بإكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح فقل شأن الثغور المصرية.

أهمل أمر الخلجان فى عصر الدولة العثمانية، فإنعزلت "الإسكندرية" مرة أخرى عن النظام المائى لمصر وإزداد تدهورها كما بطل دور المراكب كلية عند "فوة".

وبالتالى فقد أصبحت "رشيد"- نظرا للضرورة التاريخية الملحة- نقطة الإرتكاز للقادم من "الإسكندرية" إلى "القاهرة" عبر فرع رشيد أو القادم مباشرة من البحر إلى "القاهرة". ومن الجدير بالذكر أن "رشيد" كانت أقرب الثغور المصرية إلى "إستامبول"، وقد عرفت عصرها الذهبى فى تلك الفترة حتى بلغت سنة ١٧٧٧م أعظم درجة وإتسعت فكان "طولها على البحر فرسخا وعرضها ربع فرسخ"، كما ذكر الرحالة سافارى(٧٦).

مثل "رشيد"، كانت "دمياط"، فلم تتوقف الحركة التجارية فى مبناها ولم ينقطع الصادر والوارد كما يتضح من مشاهدات الرحالة الذين زاروها فى ذلك الوقت فكان يصدر من مينائها الأرز والمنسوجات والقمح والبطارخ والملح وكانت السفن ترد إليها محملة بالأخشاب والصابون والتبغ والفواكه (٧٧).

وعند مجيء الحملة الفرنسية إلى مصرعام ١٧٩٨م كانت "دمياط" المدينة الثانية بعد "القاهرة" من حيث عدد السكان وجاءت "المحلة الكبرى" فى المرتبة الثالثة تليها "رشيد" ثم "الإسكندرية"(٧٨). والواقع أن هذا " *إنما يشير إلى توازنات عصر جيوماتيكى سابق ومنقرض برمته منذ كشف طريق رأس الرجاء الصالح وتحول البحر المتوسط إلى بركة من الملاحة المحلية الساحلية أو شبه الساحلية. فلقد كان فى هذا بروز الموانىء المصبية الداخلية، دمياط ورشيد وإنهيار الموانى البحرية البارزة كالإسكندرية التى هوت إلى قرية صيد ضئيلة قوامها بضعة آلاف من السكان*" (٧٩).

٣ ـ ٨ عصر محمد على وما تلاه :

بدءا من عصر محمد على وما تلاه، سوف تحل الموانىء "الحجرية" الساحلية محل الموانىء "الطينية" النهرية، فقد كان لحفر ترعة المحمودية عام ١٨١٩م على يد محمد على ثم لحفر قناة السويس ونشأة بورسعيد ثانيا فى عصر سعيد عام ١٨٥٩م بدايات لإضمحلال "رشيد" و"دمياط" كموانىء نهرية، فقد أصبحت "الإسكندرية" بوابة مصر الذهبية و"بورسعيد" بوابتها الفضية كما يحلو لجمال حمدان أن يصفها. ويجىء القرن العشرين ليصبحان على التوالى ثانى وثالث مدن مصر من حيث الحجم والأهمية(٨٠). كذلك كان لتطور وسائل النقل البرى من سكك حديدة وطرق وقلة تكاليفة مقارنة بالنقل النهرى، أثره على خروج ميناءى "دمياط" و"رشيد" من الميدان التجارى. وإذا كانت "دمياط" قد إحتفظت ببعض من مكانتها نتيجة أدائها وظائف أخرى صناعية وحرفية وإدارية، فإن "رشيد" لم تقم لها قائمة بل لقد بدأ البحر يبتلع كل عام - بعد بناء السد العالى - ما كان النهر قد رسبه فى الماضى على شطئانها من طمى الحبشة، بمعدل الترسيب حتى فقدت ١٠كم فى غضون ٢٠ عاما.*

لقد كان للعيوب الملاحية لموضع "رشيد" مزايا - فربما كان ذلك من أسباب عدم تعرضها للغزو المتكرر الذى لم تسلم منه "دمياط"- وبالتالى فقد حفظت رشيد بمنازلها وجوامعها ووكالاتها الفريدة التى ترجع إلى العصر العثمانى، مما يميزها عن سائر مدن مصر ويجعلها مجالا خصبا للدراسة كما يتيح العديد من إمكانيات النمو المستقبلى إذا لم نترك المحيط العمرانى لتلك الآثار فريسة للتدهور.

لذا سوف يتطرق التقرير الثانى لهذه الدراسة "لرشيد" فى العصر العثمانى وسيتناول ما حل بها بعد هذا العصر وإتجاهات تطورها لكى يخرج بخطة متكاملة للحفاظ على تراثها المعمارى وتنميته.

---

* مشاهدات فى الموقع وخلال نقاش دار مع المسؤولين فى "رشيد".

هوامش الباب الثالث

(١) A. De Cosson Bull soc. Arch. Alex. 33, 1939,p.315.

(٢) Habachi (Labib)- "Saïs an its monuments" dans Ann. Serv. Ant. Eg., 42 (1934), pp.369-407.

(٣) Breccia (E)- Alexandria .. op.cit.

(٤) Bell (H.I.) Greek pap. Britidh Mus.vol. IV (1910) n. 1414,
I 59 et notes.

(٥) Habachi (Labib) op.cit.

(٦) Vandier," Peuples méditéraniens"p.583

Strabon,XVII,1,18 cité in A. BERNAND op.cit.pp.45tome I.

(٧) Vandier, op.cit p.583.

(٨) Ibid.

(٩) عبد المنصف محمود "على ضفاف .."مصدر سابق .

(١٠) فطن أبسماتيك الأول للمزايا الحربية للإغريق فبدأ فى تعيينهم فى الجيش النظامى المصرى الذى كان على رأسه قواد من أصول ليبية وسورية. ثم أخذ فى تشجيع الإغريق على الإستيطان بهدف مقاومة الفرس ، وبالتالى فقد بدأ التجار الإغريق فى إستيطان مدن الدلتا بدءا من عام ٦٥٥ ق.م. أى قبل نشأة الإسكندرية بقرنين

VANDIER ... "Peuples.." op. cit. p 583.

(١١) لم يكن شمال منطقة البراري مقفر وغير مسكون. بل على العكس فقد أثبتت الحفريات قيام تجمعات عمرانية هامة حول بحيرة البرلس منذ أقدم العصور.

AUDEBEAU BEY (C.) "Etude hydrographique et agricole sur la région des bararis" Bull. int. Eg. T.II 1909, Dec.p.43.

(١٢) Texte deDiodore cité in A. Bernand, op. cit. pp:30-31-
tome I.

(١٣) Ibid pp: 30-31

(١٤) إنظر صلاح عبد الجابر ، مصدر سابق ، ص ٦٦- "من المعروف أن مدينة الإسكندرية تأسست عام ٣٣١ ق.م. مكان راقودة الفرعونية ومنذ ذلك الوقت دخلت

فى منافسة شديدة مع مدينة "بولبتين" . مصدر سابق ص ٦٧.

(١٥) طبقا لبعض الروايات المشكوك فيها فإن "أسلاف "رشيد" الحالية ترجع إلى عصر ما قبل الأسرة الفرعونية الأولى، وتذكر بعض الروايات أن الملك نارمر أثناء زحفه من الصعيد لتحقيق الوحدة بين الوجهين إصطدم بأهل هذه المنطقة وهم طائفة من المواطنين يسمون "ربخيتو"، ص. عبد الجابر عيسى، مصدر سابق ص٦٤، ويرجع هذا الكاتب إلى :

FOSTER E.M. "Alexandria, a history and a guide" 1938 p:174

وبالرجوع إلى هذا المصدر وجدنا أن فوستر يروى هذه الواقعة دون الإعتماد على أى نص تاريخى أو رواية أو وثيقة.

(١٦) BUTTLER (A), op. cit.

(١٧) أنظر صلاح عيسى عبد الجابر، مصدر سابق، وجمال حمدان "شخصية مصر"، مصدر سابق ج٢، واللواء عبد المنصف محمود..الخ.

(١٨) "Lettre de l'Egypte" par SAVARY, tome I.

(١٩) VOLNEY, op.
cit.

(٢٠) لا نعرف على وجه الدقة معدل نمو سكان رشيد فى السنة ولكننا إعتمدنا فى تقديرنا على نمو لسان دمياط ، أنظر "تاريخ دمياط منذ أقدم العصور" - الإتحاد القومى بدمياط ، تقولا يوسف ١٩٥٩.

(٢١) STRABON G. Interpretation Lasanbon, édir. 1707- lib. XVII p:1152.

(٢٢) VOLNEY, op.
cit

(٢٣) Histoire Naturelle V,IX, 49 (texte de l'édition de H. Rakhem, The Laeb. Classical Library, t.2 (1947), pp: 254-255.

(٢٤) PTOLEME - géographie,
IV, 5, 19.

(٢٥) Etienne DE BYZANCE, Ethniques, s.v.,éd.Meineke I (1849), p:449.

G. DE Chypre, Corpus Breuxellense - Histoire Byzantine, (٢٦)
Forma Imperi Byzantini, fasc.I

A. BERNAND, op. cit. p: 474 - 475, T.I (٢٧)

Ibid. (٢٨)

SONNINI, "voyage dans la Haute Eypte. et la Basse", (٢٩)
Egypte, T.2 (1799), p: 247-249.

CHAMPOLLION (J.F.) "L'Egypte sous les Pharaons", I, (٣٠)
(1814) pp: 238 -239.

PETRIE (F.L.) "Nancratis 7, dans Mem. Egyp., Expl. (٣١)
Fund III, (1896) p: 93.

DE ROUGE (j) "Géogr. Anc. de la Basse Egypte, 1891, (٣٢)
pp: 30-43.

AMELINEAU (E), " La géographie de l'Egypte à l'époque (٣٣)
Copte" (1893) pp: 244-246 .

DARRESSEY (G) "Les grandes villes de l'Egypte à (٣٤)
l'époque Copte" dans Revue Archéologie 1949,II.p:112.

MASPERO (J), "Organisation de l'Egypte Byzabtine" in (٣٥)
bibliog.Ec. Hautes Etudes, 201 (1912) pp: 61-62, 67,83,130.

TOUSSON (O), "La géographie de l'Egypte.." op. cit. t.(٣٦)
VIII, 1ere partie, p. 27.

GAUTHIER (H), Dictionnaire ... op (٣٧)
cit.p.27.

BALL(J), "Egypt in the classical .." op. (٣٨)
cit.,
p; 109 - 123, 125..

HABACHI (L) renvoie à Pierre Belon " Les observations de(٣٩)
plusieurs singularités et choses mémorables trouvées en grèce,
Asie Arabie,Judé Egypte et et autres pays étrangers"
(1588), pp: 223-224.

JARRY (J), op. cit. (٤٠)

Charles DE LA RONCIERE.." La géographie de l'Egypte" (٤١)
p.205.

Ibid (٤٢)

(٤٣) ص. عبد الجابر عيسى – مصدر سابق، ص ٨٥.

(٤٤) نفس المصدر السابق.

(٤٥) نفس المصدر السابق.

(٤٦) نفس المصدر السابق.

(٤٧) كان عدد الأسقفيات في مصر نحو مائتين ، ثم هبط إلى مائة وستين. وهبط مرة أخرى ليصبح في الستينات ٢٣ ما بين بطريركية ومطرانية وأسقفية. أنظر تقولا يوسف، تاريخ دمياط، مصدر سابق، ص ٧١.

(٤٨) تقولا يوسف، مصدر سابق، ص ٧٥.

(٤٩) اللواء عبد المنصف محمود، مصدر سابق، ج٢، ص ٢٩.

(٥٠) نفس المصدر ص ٢٨.

(٥١) د. عبد العال الشامي- مدن الدلتا في العصر العربي، رسالة دكتوراه غير منشورة.

(٥٢) صلاح عبد الجابر عيسى، مصدر سابق ، نقلا عن المقريزي ج٢ ص. ١٨٩-١٩٠.

(٥٣) نفس المصدر السابق.

(٥٤) نفس المصدر السابق.

Encyclopédie de l'Islam- Rashid, (٥٥)
p. 1246.

Chtoniques de Jean , Eveque de Nikiou Texte Ethiopie et (٥٦)
Traduct . de M.H. Zottenberg dans Notices et extrairs des (`edit
. manuscrits de la bibliotheque , national tome XXIV , chep .
XCVII , pp 529 - 532) , in A. BERNAND , op. cit . p. 471 .

JARRY (J) "Hérésies et Factions en Egypte Byzantine,dans (٥٧)
Bull, inst.,Fr, Arch. Or., Le Caire, 62 (1964) pp. 173-186,
op.cit. in A. BERNAND p. 486.

DARRESSEY G. Les Grandes villes.. op.cit. p.112 (٥٨)

(٥٩) نقولا يوسف ..دمياط- مصدر سابق ص ١٠٠.
(٦٠) نفس المصدر ص ١١٥.
(٦١) نفس المصدر ص ١١٩.
(٦٢) ص. عبد الجابر عيسى - "دراسة فى .."مصدر سابق.
(٦٣) نفس المصدر السابق.
(٦٤) نفس المصدر السابق.
(٦٥) عبد الرحمن الرافعى وسعيد عاشور "مصر فى العصور الوسطى"، القاهرة ١٩٧٠، ص ٤٠٤.
(٦٦) ص. عبد الجابر عيسى - مصدر سابق ص ٧٦.
(٦٧) نقولا يوسف- صدر سابق ص ١٥١-١٥٧.
(٦٨) نفس المصدر السابق ص ١٥٩.
(٦٩) Encyclopédie de l'Islam op. cit. p.1248.
(٧٠) إبن دقماق إبراهيم محمد، الإنتصار لواسطة عقد الأمصار، المطبعة الأميرية - الطبعة الأولى - ١٨٩٣ ج ٥ ص ١١٤.
(٧١) نفس المصدر السابق.
(٧٢) نقولا يوسف .. مصدر سابق ص ١٨١.
(٧٣) ATTIYA (A.S.) "The Cruisade in the latter middle ages, London 1938, pp.348-77.
(٧٤) Ibid
(٧٥) د. عبد العزيز سالم - مصدر سابق ص ٤٢٥.
(٧٦) على باشا مبارك - الخطط التوفيقية ج١١ ص ٧٥.
(٧٧) نيقولا يوسف - مصدر سابق ص ٢١٥.
(٧٨) طبقا لتعداد سكان مصر لعلماء الحملة، إحتلت "القاهرة" المرتبة الأولى بين المدن المصرية بعدد سكان قدره ٢٧٠،٠٠٠ نسمة، تليها "دمياط" ٢٧،٠٠٠ نسمة "فالمحلة" ١٧،٠٠٠ نسمة "فالإسكندرية" و"رشيد" ١٥،٠٠٠. عن جمال حمدان مصدر سابق ج٤ ص ٣٣١. أما صلاح عبد الجابر عيسى، فقد قدر عدد سكان "رشيد" فى بداية القرن التاسع عشر بـ ٣٥،٠٠٠ نسمة -أى ضعف تقدير الحملة الفرنسية وأشار إلى أن كلوت بك قال إن هذا العدد تناقص إلى النصف فى عصر محمد على . صلاح عبد الجابر عيسى- مصدر سابق ص ٨٣.
(٧٩) جمال حمدان - مصدر سابق ، ج ٤ - ص ٣٣٠.

قائمة المصادر والمراجع العربية :

١ ـ ابراهيم أحمد رزاقة ، الجغرافيا التاريخية ، القاهرة ١٩٦٦ .

٢ ـ ابراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عهد البطالمة ، الجزء الثانى ، الأنجلو المصرية سنة ١٩٢٠ .

٣ ـ الفريد بتلر ، فتح العرب لمصر ، مترجم .

٤ ـ الكندى ، أبو عمر محمد ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، مطبعة الآباء اليسوعيين ـ بيروت ١٩٠٨ .

٥ ـ المقريزى ، تقى الدين ، السلوك فى معرفة دول الملوك ، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٥٦ ، تصحيح محمد زيادة .

٦ ـ المقريزى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، القاهرة ١٢٧٠ هـ .

٧ ـ الواقدى ، لأبو عبد الله محمد بن عمر ، فتوح الشام ومصر ، القاهرة ، ١٨٣٤ .

٨ ـ اليعقوبى ، أحمد بن أبى يعقوب ، البلدان ـ طبعة لندن ١٨٩١ م .

٩ ـ د . السيد عبد العزيز سالم ـ تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى ـ مؤسسة شباب الجامعة ـ ١٩٨٣ .

١٠ ـ تاريخ الحضارة المصرية فى العصر الفرعونى ـ تأليف نخبة من علماء التاريخ ـ مكتبة النهضة العربية ـ ١٩٦٠ .

١١ ـ جمال حمدان ـ شخصية مصر ـ دراسة فى عبقرية المكان ـ عالم الكتب ـ أجزاء ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .

١٢ ـ حسن أبو العنين ، أشكال التكوينات الرملية فى منطقة رشيد وضواحيها ، المجلة الجغرافية العربية ـ العدد السابع ـ ١٩٧٣-٣

١٣ ـ سليم حسن ، أقسام مصر الجغرافية فى العهد الفرعونى ، القاهرة ١٩٤٤ .

١٤ ـ سليم حسن ، مصر القديمة ، مطبعة جامعة القاهرة ج ١٢ ـ ١٩٥٧ .

١٥ ـ صلاح عبد الجابر عيسى ـ جغرافية العمران الريفى ـ دراسة تطبيقية ـ عن مركز رشيد ـ مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٨٢ .

١٦ ـ عبد الله زين العابدين ، مقدمة لحصر أنواع الأراضى فى مصر مع حصر أولى لأراضى محافظة البحيرة ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٤٨ .

١٧ ـ د . عبد الفتاح وهيبة ـ دراسات فى جغرافية مصر التاريخية ـ ١٩٦٢ ـ مؤسسة الثقافة الجامعية .

١٨ ـ عبد المنصف محمود ، على ضفاف بحيرات مصر ، الجزء الأول والثانى ، دار الكتاب العربى ، القاهرة ١٩٦٧ .

١٩ ـ عبد العال الشامى ، مدن الدلتا عند الفتح العربى ، رسالة دكتوراة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة .

٢٠ ـ على مبارك ، الخطط التوفيقية ، القاهرة ١٨٨٢ .

٢١ ـ عمر طوسون ، تاريخ خليج الإسكندرية القديم وترعة المحمودية ، ١٩٤٢ .

٢٢ ـ الأمير عمر طوسون ، أطلس أسفل الأرض ـ عشر لوحات .

٢٣ ـ محمد ابراهيم حسن ، نطاق البحيرات فى شمال الدلتا ـ دراسة اقتصادية ، الموسم الثقافى للجمعية الجغرافية المصرية ـ المحاضرات العامه ١٩٦٠ .

٢٤ ـ محمد رمزى القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، القسم الثانى ـ البلاد الحالية ، القاهرة ١٩٥٨ .

٢٥ ـ محمد صبحى عبد الحكيم ، مدينة الإسكندرية ، القاهرة ١٩٥٨ .

٢٦ ـ محمد صفى الدين ، مورفولوجية الأراضى المصرية ، القاهرة ١٩٥٨ .

٢٧ ـ محمد صفى الدين وآخرون ، دراسات فى جغرافيا مصر ، القاهرة ١٩٥٧ .

٢٨ ـ محمد عوض محمد ، نهر النيل ، القاهرة ، الطبعة الأولى .

٢٩ ـ محمد محمود زيتون ، إقليم البحيرة ، صفحات من الحضارة والثقافة والكفاح ، دار المعارف بمصر ١٩٦٢ .

٣٠ ـ محمد محمود الصياد ، سكان مديرية البحيرة فى ٦٠ عام ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد ١٣ جزئين ديسمبر ١٩٥١ .

٣١ ـ نيقولا يوسف ، تاريخ دمياط منذ أقدم العصور ، الاتحاد القومى بدمياط ١٩٥٩

٣٢ ـ ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، طبعة ليبزج ١٩٢٤ الجزء الثانى .

٣٣ ـ وصف مصر ـ الترجمة الكاملة ، تأليف علماء الحملة الفرنسية ، ترجمة زهير الشايب ، جـ ٣ ـ دراسات عن المدن والأقاليم .

٣٤ ـ هيردوت يتحدث عن مصر ، ترجمة الأحاديث عن الأفريقية الدكتور محمد حنفى خفاجة ـ مقدم لها وتولى ترجمتها الدكتور أحمد بدوى ، الهيئة العامه للكتاب ، ١٩٨٧ .

المراجع الأجنبية

1- AMELINEAU (E.), "La géographie de l'Egypte à l'époque Copte" ,Paris 1954.

2- ATTIA (M.), "Deposit in the Nile Valley and the Delta", Cover press, 1954Cairo,

3- AUDEBEAU bey (C.), "Etude Hydrographique et Agricole la région des Bararis, Bull. Inst. Eg. T.III, Dec 1909.sur

4- AUDEBEAU bey (C.), "Le région de Rosetie et l'Irrigation Perenne avant le XIXè siècle, Bull., Inst., d'Egypte, T.X,1927

5- BALL (J.)
"Contribution to the géography of Egypte, Cairo 1939.
"Egypt in the classical geographere,Cairop 1942

6- BRECCIA (Evaristo)," Guide de la ville et du musée d'Alexandrie", Alex. 1907.

7-BREASTED (J.), "A History of Egypt" London 1935.

8-BERNAND (A.),"Le Delta Egyptien d'après les textes T. I,II et III, Le Caire 1970.grecs"

9-BRUGSH Bey,"Dictionnaire géographique de l'ancienne Egypte, Leipzig 1979-1980.

10-BUTZER (K.W.),"Environment and Human Ecology in Egypt during pre-dynastic and dynastic times", Bull. soc. geog. d'Egypte 1959..

11-COMBE (Et.),"Alexandrie musulmane", Bull soc.Roy, de l'Egypte T.XVI, sept. 1928. geog.

12-DARRESSEY (G.):
-"Rapport sur Kôm El-Hisn, dans Ann. Serv, Ant. Eg.IV-(1903).
-"Les grandes villes d'Egypte à l'époque copte, dans Rev. arch. (1894 II).

-"Ménélais et l'embouchure de la brwanche canopique dans Rev. Eg. anc. 2, 1929.

13- DEMANGEON,(A.) "Problemes de géographie humaine", Paris 1947.

14- DIODORE DE SICILE, Bibliothèque Historique- témoign-sur le Delta, 33-37. age

15- FORESTER (E.M.) "Alexandria, a history and a guide" Micheal Haag,London 1982.

16-FRANKFORT (Henri),"The city of Akhenaten" 3 vol, London 1923.

17-FUSTEL DE COULANGES, "La cité antique" 1948, Li-rie Hachette.brai

18-GAUTHIER (H.):
-Dictionnaire des Noms Géographique dans les Textes Hierogliphiques, Le Caire1925, IV partie.
-Les Nomes d'Egypte dans Mém. inst. d'Eg. 25 (1935).

19- HABACHI (L.),"Saïs and it's monuments", dans . ant. Eg.42, 1943..Ann.Serv.

20 -HUZAYEN (S.A.),"Origin of Neolitic and Settled Life Egypt"Bull., Soc., Roy., geog. d'Egypte, T.XXII, 1950.in

21- JALLOIS (M.), Notes sur la ville de Rosettes, dans "Description de l'Egypte" T. XVII, partie I.

22- JARRY (J.)," Hérésies et factions en Egypte Byzantine, Bull. Inst. fr. Arch. Or, Le Caire, 62,1964.

23- JOMARD (E.)"Addition à M. A. Lancret", Notices sur la branche canopique, dans Descrip. Eg., Textes, Antiquités, Mém.I, 1809.

24- LINANT DE BELLEFONDS (L.), "Mémoires sur les paux travaux d'utilité publique exécuté en Egypte"(1872-princi

73).
25-MAHMOUD BEY EL-FALAKI," Mémoire sur l'antique Alexandrie" 1872.
26- MALEK (J.) et BAINES (J.) "Atlas de l'Egypte Ancienne" Nathan- 1983.
27- MASPERO (J.) et WIET (G.), "Matériaux pour servir à la géographie de l'Egypte" dans Mem. Inst. fr.Arch.,Or.36. 1919.
28- MASPERO (J.), "Organisation militaire de l'Egypte Byzantine", 1912.
29- MONTET (Pierres), "Géographie de l'Egypte ancienne", (la basse Egypte 1957).
30-MORET (A.),"L'Egypte Pharaonique dans l'Histoire de la tion égyptienne"Paris 1932.na
31- PLINY'S, "Natural History" Trans. Bostock (J.) & RI- (H.) vol.I.LEY
32- POSNER (G.) "Leçon inaugurale"Déc. 1961.
33- QUATREMER (E.) "Mémoires géographiques et historiques sur l'Egypte", Paris 1811..
34- ROUGE (J. de) "Géographie ancienne de la Basse Egypte", 1891. .
35- SAVARY. "Lettres sur l'Egypte" T.I.
36- SEMPLE (E.),"Mediterranean region", London 1933.
37- SOURDILE (G.) "La durée de l'étendue du voyagne d'Hérodote en Egypte",1910.
38- STRABON, "Géographie", Paris, 1980, IVè partie.
39- TOUSSON (Omar):
-"Les ruines sous marines de la baie d'Aboukir", Bull. Soc. Alex.,29, 1934.
- Mémoire sur les anciennes branches du Nil: Epoques anciennes et arabes, Mem. Inst. Eg., IV, 1922-23.
- " La Géographie de l'Egypte à l'époque arabe", I, : La Basse Egypte, Mem. Soc.Roy. Geogr. Eg.,VIII, 1, 1926 et VII, 2, 1928.
40- VANDIER, "Peuples méditerranéens"
41- VAUJANY , "Alexandrie et la Basse Egypte", Plon, Paris 1890 .
42- VOLNEY (C.F.),"Voyage en Egypte et en Syrie", I, 4è 1807. edit.
43- An Atlas of Ancien Egypt, Special publication of the Egypt Exploration fund..